

كتابي
٣٣
الجريمة لاتفيد
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
حلمي مراد



"قابيل" الهندى!

مأساة مروعة نظرت أمام محاكم كالكوتا

فى هذا الباب أود أن اقدم لك بين الحين والآخر جريمة واقعية مما ينظر أمام محاكم الجنايات سواء فى الشرق أو الغرب .. وسترى منها أن لكل شعب عاداته وطباعه ، وعقليته الغالبة التى تملى على أفراده تصرفاتهم ، فى الحب وفى البغض .. فى العمل والمعاملات ، وفى اللهو والفجور .. فى الزواج وفى الطلاق .. فى الصفح وفى الانتقام .. فى الجريمة وفى العقاب !

والقضية الجنائية التى ألخص لك وقائعها فيما يلى، والتى نظرت أمام محاكم « كلكتا » ، تلقى ضوءا على العقلية التى ارتكب بها مجرم هندى جريمة القتل !

وخزة إبرة !

كان كل شىء يجرى كالمألوف فى فناء محطة « هورا » — محطة سكة الحديد الرئيسية لمدينة كلكتا — بعد ظهر يوم ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٣٣ . عندما دخل الشاب « آمار باندى » إلى رصيف المحطة وبصحبته عمته ، وشقيقاته ، وابنة عمه ، واخوه الاكبر — غير الشقيق — « بينوى » ، فى طريقهم إلى إحدى عربات القطار الذى يقلهم إلى « باكور » بمقاطعة « بيهار » ، حيث يقع منزل الأسرة الموروث ..

كان كل شىء يجرى فى فناء المحطة كالمألوف ، فيما عدا شيئين : أولهما ما تذكره افراد الأسرة فيما بعد ، من رؤيتهم

لشخص ضئيل الجسم ، قاتم البشرة ، بين جموع المتزاحمين حولهم بالمناكب أثناء دخولهم فناء المحطة .. وثانيهما تلك الوخزة الحادة — كأنما من سن إبرة — التى شعر بها «آمار» فى ذراعه وهو يشق طريقه إلى الرصيف !

وصرخ الشاب متألما ، فهرعت نحوه نساء الأسرة ليرين ما أصابه ... وإذ ذاك استحثهن أخوه «بينوى» على الاسراع بالمسير للحاق بالقطار . ساخرا من الضجة التى احدثتها ، والانزعاج الذى بدا عليهن من أجل أمر « تافه » .. وما أهمية وخزة دبوس بسيطة بالنسبة إلى ما كان يحتمل أن يصيب الفتى من وطأة الزحام ؟ .. وهكذا ألقى الأخ نظرة عاجلة على موضع الوخزة ، ودلكها قليلا بإبهامه اليسرى ثم ضحك مستهزئا ..

وبعد ثمانية أيام من ذلك التاريخ ، كان الأخ الأكبر «بينوى» ما يزال يضحك استخفافا بالحادث وهو يشهد حرق جثة اخيه الأصغر آمار ، الذى مات فجأة فى ظروف غريبة غامضة !

وحين انتهت مراسم حرق الجثة استقل بينوى القطار الذاهب إلى بومباى .. لكنه لم يكد يصل إلى محطة صغيرة تبعد اقل من مائة ميل عن كلكتا ، حتى فوجىء برجال الشرطة يلقون القبض عليه .. بتهمة قتله اخاه آمار !

واستمرت المحاكمة ثمانية عشر شهرا ! لم يكن ثمة دليل قائم ضد بينوى ، سوى قرينة ضعيفة ، هى أنه حين ذلك

موضع الوخزه فى ذراع اخيه إنما فعل ذلك بابهامه «اليسرى» ، والديانة الهندوكية تفرض على معتنقيها ان يدعـوا اعمالهم « الشريرة » لليد اليسرى ، فلا يرتكبوا شيئا منها باليمنى !. لكن التحقيق لم يلبث ان تشـعب واتسـع نطاقـه ، كمـا سيجيء ..

نزاع على الإرث

كان الأخوان بينوى وآمار يستحقان — مناصفة — ضيعة ابيهما الواسعة التى أوصى لهما بها (وتقع فى ضواحى باكور) كما يرثان بالتساوى ايضا املاك عمتهما التى تولت تنشئتهما وأشرفت على تربيتهما منذ وفاة والديهما فى طفولتهما ..

وكان بينوى قد أشرف على إدارة الضيعة منذ بلغ أشده، لكنه كان مبذرا متلافا ، فبدد بعضها فى ملذاته وحياته الماجنة فى كلكتا .. بحيث لم يكد أخوه الأصغر « آمار » يبلغ سن الرشد — سنة ١٩٣٢ — حتى بدأ يتخذ الإجراءات لاستلام نصيبه من الضيعة كى يتولى إدارته بنفسه .. الأمر الذى اثار حفيظة بينوى عليه فأغراه الطمع بأن يفكر جديا فى الحيلولة دون استلام اخيه لنصف الضيعة ، باية وسيلة فى مقدوره ! .. ومن ثم راح يقدح زناد فكره باحثا عن طريقة « مبتكرة » لتنفيذ رغبته ! وبدلا من ان يدع اخاه يشاركه ضيعة ابيهما ، رضى مختارا لطبيب من اصدقائه يدعى الدكتور « تارا شارجى » بأن يشاركه « عشيقته » ! .. وكان أهم ما جذبه إلى صديقه هذا واغراه باسترضائه انه كان طبيبا « بكتريولوجيا » يشتغل بالبحث فى جراثيم الأمراض !

الخطة الجهنمية !

وكانت الخطوة التالية أن بدأ الدكتور «تارا» — بناء على طلب بينوى — يسعى للحصول على عينة من جراثيم الطاعون القوية « المزروعة » ، بحجة انه يحتاج إليها لابحاثه الخاصة .. فارسل بتاريخ ١٢ مايو سنة ١٩٣٢ برقية إلى معهد « هافكين » بمدينة بومباى — وهو المعهد الطبى ذو الشهرة العالمية — يطلب فيها موافاته بالعينة المذكورة . لكن المعهد رفض طلبه ، نزولا على حكم اللوائح الرسمية التى تمنع امداد احد بالجراثيم لأجل ابحاثه الخاصة .. وهنا حاول الطبيب توسيط زميل له فى الحصول على العينة بحجة استعمالها فى معمل الأبحاث الذى يعمل فيه ، لكن العينة فسدت بين يديه .. وابى الزميل ان يطلب كمية أخرى !

ورغم ذلك لم ييأس المتآمرون .. فلم يكد بينوى يسمع أن اخاه آمار يقيم مع عمته فى جهة يطلق عليها « ديوجار » حتى هرع إلى زيارتهما ومعه كيميائى .. واغرى الزائران مضيفهما بالخروج معهما إلى نزهة قريبة ، ثم رحلا عائدين من حيث اتيا .. وبعد اربعة ايام أصيب آمار بمرض غامض ، وساءت حالته ! فلما استدعى طبيب المنطقة اعطى المريض حقنة مضادة لتسمم الدم المعروف باسم « تيتانوس » ، وابرقت العمة إلى بينوى ترجوه أن يحضر معه طبيب الأسرة من العاصمة . لكن هذا حضر وبصحبته بدلا من الطبيب المنشود شريكه اللعين الدكتور تارا ، الذى نصح بالكف عن العلاج المضاد للتسمم واستعمال علاج آخر اشار به ! ..

لكن طبيب المنطقة ابى ذلك ، فحاول بينوى إقناعه باستبقاء تارا كمساعد له فى الإشراف على علاج المريض .. لكنه رفض هذا الحل ايضا ! وانضم المريض إلى هذا الرأى ، ففشلت محاولات المتآمرين ، واكمل العلاج المضاد للتسمم .. فبدا آمار يتماثل للشفاء !

لكن بينوى عاد لزيارة أخيه مرة ثانية ، مستصحبا معه طبيبا آخر يحمل نوعا من المصل حقن به المريض — فى غيبة الطبيب المعالج — فساءت حالته ونبت فى موضع الحقنة دمل من الصديد ، وعندئذ استغنى المريض عن « خدمات » طبيبه الجديد وقنع بطبيب المنطقة المتواضع ، وبعد مجهودات جبارة من جانب الأخير شفى المريض تماما !

مجرم لا يعرف اليأس !

ومع ذلك لم يقنط بينوى من الوصول إلى هدفه .. فحصل فى هذه المرة من احد شريكيه على خطاب موجه إلى ضابط بمعهد هافكين للأبحاث ، يزعم فيه ان الدكتور تارا يعتقد انه قد توصل إلى اكتشاف علاج للطاعون ، ويطلب التصريح له باجراء تجارب على علاجه الجديد فى المعهد .. ثم سافر بينوى بنفسه — فى ابريل سنة ١٩٣٣ — إلى بومباى حيث سلم الخطاب إلى المرسل إليه ، قائلا إن الدكتور تارا قد انتدبه لجمع بعض الاستعلامات الضرورية قبل حضوره .. فقيل له إنه ينبغى ان يتقدم الدكتور تارا — شخصيا — إلى مدير المعهد ، ملتمسا التصريح له باجراء تجاربه فى معامل المعهد .. وازاء هذا خشى بينوى أن يتذكر المدير محاولة

تارا الأولى ان يحصل على عينة من جراثيم الطاعون من معامله فيرتاب فى امره ، او فى القليل يرفض طلبه ، ومن ثم كر راجعا إلى كلكتا من فوره !

وبعد شهرين آخرين عاد بينوى ادراجه إلى بومباى ، حيث زار جراحا بيطريا له صلة بمعهد هافكين ، ورجاه فى الحاح ان يعطيه انبوبة من جراثيم الطاعون لصديق له من اطباء كلكتا .. فاعتذر البيطرى ، واحال الزائر على مستشفى فى المدينة يستطيع ان يحصل منه على طلبه !

وتوجه بينوى على الأثر إلى المستشفى المذكور ، فروى لمديره قصة الدكتور تارا المالوفة ، طالبا التصريح له باجراء تجاربه فى معمل المستشفى ، خدمة للطب والإنسانية وسعيا إلى اثبات علاج الطاعون المزعوم ..

وقبل المدير رجاء بينوى !

مرحلة التنفيذ

ووصل الدكتور تارا إلى بومباى يوم ٧ يوليو سنة ١٩٣٣، وبدا عمله فى اليوم ذاته ، فأجرى تجاربه على عدد من الفيران .. وفى اليوم الخامس — ١٢ يوليو — زعم فجاة ان عملا عاجلا يقتضى عودته إلى كلكتا ، وانه سيعود لإكمال ابحاثه فيما بعد .. ثم سافر من فوره .

لكنه لم يعد .. ولم يترك وراءه عنوانا يرشد إليه ! ولم يسمع المشرفون على المستشفى شيئا عن « عمله العاجل فى كلكتا » حتى بعثت هذه المعلومات من مرقدها حين وصفت

الجريمة بالتفصيل اثناء المحاكمة ! وشهد بعض الشـــهود فى المحكمة بأن بينوى قد تعرف فى المدة الأخـــيرة برجل ضـــئيل الجسم قاتم البشرة ، شوهد معه فى أحد مســـارح المدينة — (وظهر انه اخذه إلى المسرح ليشير له إلى شخص اخيه آمار الذى كان فى مقصوره قريبة ، كى يعرفه عند تنفيذ الجريمة !) — كما رؤى الاثنان معا مرة أخرى فى محطـــة كلكتا ليلة ٢٥ نوفمبر — السابقة لارتكاب الجريمة — حين علم « بينوى » ان آمار وعمته وشقيقاته يعتزمون السفر إلى منزل الأسرة فى باكور بعد ظهر اليوم التالى .. فقصد مع شريكه الأسمر إلى المحطة لمعاينة فنائها ومراقبة حركة الزحام لاعـــداد خطـــة الجريمة على اساسها !

وفى ذلك المساء اظهر بينوى نحو أخيه وعمتـــه اجمـــل مظاهر المجاملة والرقة ، فذهب لزيارتهما ، واســـتعلم عن موعد القطار الذى سوف يســـتقلاه ، واعدا بالذهـــاب إلى المحطة لتوديعهما ..

وفى اليوم التالى كان فى انتظارهما فعلا فى المحطة ، ولم يكد يراهما حتى اشار إلى شريكه باشارة خفية ، فاندس هذا وسط الزحام واخذ يقترب من آمار حتى تمكن من وخزة بالابرة القاتلة الملوثة بجرثومة الطاعون ! وحين وصل المجنى عليه ومرافقوه إلى عربه القطار التف حوله افراد اسرته وأصدقاؤه المودعون يستفسرون منه عما أصابه . فلما كشف ذراعـــه راوا آثار وخزة ابرة تحيط بها بقعة صغيرة من مادة لزجـــة ، ونقطة من سائل فوق الثقب الذى فى كم سترته ، والمـــوازى لمكان الإصابة !

الحلقة تضيق حول القـــاتل !

وحين وصل الركب إلى منزل الاسرة فى باكور كان القلق قد استولى على افراده جميعا ، الذين لم يملكوا الا ان يذكروا الحر دات المريبـــة السابقة التى بدرت من بينوى اثناء إصابة آمار بالتسمم فى « ديوجار » ! .. ورغم الاحترام ، الشبيه بالتقديس ، الذى يكنه الهندوس لاكبـــر افـــراد اسرهم من الذكور ، فان ريبتهم بدات تتجه نحو بينوى ! وفى اليوم التالى تلقت الأسرة خطابا من احد اصدقاء آمار الذين راوا الإصابة عند توديعه فى المحطة ، يلح فيه على صديقه أن يبادر بالعودة إلى كلكتا لأجراء الفحص الطبى اللازم والاحتياط لما عســـاه قد يحدث ..

وعـــاد آمار بالفعـــل يوم ٢٩ نوفمبر ، وذهب من فوره فاستشار احـــد كبار اطبـــاء المدينة ، وعـــرض عليه مكان الأصابة ، فلم يهتد الطبيب إلى تفسير للحادث الغامض ، أو يستطيع تحديد المادة التى وخزت بها الذراع !

.. حتى اصيب آمار فى اليوم التالى بحمى شديدة والم فى إبطه ، فارسل طبيبه يستدعى طبيبا محللا ، يزرع عينة من دم المريض ، بغية اكتشاف نوع المرض الذى اصابه ..

الجريمة .. والعقاب

لكن جهود الأطباء جميعا فشلت فى انقاذ الشاب التعس . فلفظ انفاسه فى الصباح الباكر من يوم ٤ ديسمبر ! .. وطبقا لتقاليد البلاد — التى تناسب طقسها — نقلت الجثة فى اليوم

ذاته إلى شاطىء النهر للاحتفال بحرقها .. واقبل بينوى ليرى أخاه للمرة الأولى والأخيرة منذ حادث المحطة ، وبدت عليه اللهفة لمعرفة نتيجة تحليل عينة الدم التى كانت تحت الفحص الميكروسكوبى بمعامل كلية طب المناطق الحارة بكلكتا .

وظهرت النتيجة ، فاذا الدم ملوث بجرثومة الطاعون !. وتساءل الأطباء . من اين اخـذ المجنى عليه العـدوى ؟ ان تقارير وزارة الصحة تثبت خلو منطقة كلكتا ، ومنطقة باكور، من اى اثر للمرض فى ذلك الحين !؟

وضمت اجزاء القصة بعضها إلى بعض ، بمنتهى الحذر والدقة المأثورين عن رجال القضاء .. فتمخضت المحاكمة عن حكم « بالاعدام » على كل من القاتلين : بينوى ، والدكتـور تارا .. ثم عدل الحكم بعد النقض إلى الاشـغال الشـاقة المؤبدة .. ربما امعانا فى تعذيب الآثمين !



هذه المحاكمة ...

فى ١٠ يوليو سنة ١٩٢٣ روعت أسرة مصرية كريمة بمصرع شاب من أفرادها فى زهرة شبابه وقمة ثرائه وإقبال الدنيا عليه — هو المرحوم على فهمى كامل — بيد زوجته « الفرنسية » ، السيدة مرجريت البيي ، (أو مرجريت فهمى كما صارت تدعى بعد زواجها منه) .. وقد أحدثت الجريمة يومئذ ضجة تجاوبت بصداها ثلاث من العواصم الكبرى ، هى : لندن ، حيث وقعت الجريمة .. وباريس ، بلد الجانية .. والقاهرة ، بلد المجنى عليه ..

وقد صدر أخيراً فى لندن كتاب عن حياة المحامى الإنجليزى الأشهر «سير ادوارد مارشال هول» ، تضمن سردا مفصلا لأطوار محاكمة « مرجريت فهمى » ، باعتبارها من أبرز المحاكمات التى خلدت اسم مارشال هول كمحام جنائى من الطراز الأول .. بل لقد أطلق عليه الكثيرون عقب مرافعته فى المحاكمة المذكورة : « أعظم محامى العالم ! » .

ولا يخفى أن الكتاب يسرد القضية بالطبع من وجهة نظر واحدة ، هى وجهة نظر محامى القاتلة .. فإذا كان فى التفصيلات التى تضمنها — والتى نلخصها هنا عنه بكل أمانة — شىء يجانب الصواب ، من وجهة نظر أسرة المجنى عليه ، فنحن نرحب بنشر اى تصحيح للوقائع أو تعليق عليها يصلنا من اى شخص كان طرفا فى المأساة ..

ليلة عاصفة !

فى منتصف ليلة ٩ — ١٠ يوليو سنة ١٩٢٣ اجتاحت مدينة لندن عاصفة عاتية اشتد فيها قصف الرعد وتوالى وميض البرق الخاطف الذى أضاء السماء اضاءة متصلة نحو ساعتين كاملتين ، بدت مبانى العاصمة ومعالمها خلالهما أشبه بالعمالقة المرعبة المزمجرة .. تنفجر فوق رءوسها « كرات النار » وتتفتت إلى ملايين الشهب الصغيرة التى تعشى الأبصار وتصم الآذان ! .. فكانت تلك العاصفة أعنف ما عرفت لندن منذ سنوات طوال ، أو على حد تعبير سير مارشال هول بعد ذلك أمام محكمة « أولد بيلى » : إن تلك الليلة الليلاء الرهيبة كانت كأنما حفلت بأرواح الجن المخيفة والشياطين الغامضة المسحورة ! .. وكان من حسن الطالع ان العاصفة بلغت شدتها القصوى فى وقت كان فيه أكثر رواد المسارح والملاهى قد وصلوا إلى بيوتهم آمنين . والا لوقعت كوارث لا حصر لها ، لا سيما وأن أحدا من سكان لندن لم يكن يتوقع ليلة عاصفة من هذا القبيل فى أعقاب يوم كان — على العكس منها تماما — حارا قائظا ، تشبه حرارته طقس المناطق الاستوائية !

فى تلك الليلة العاصفة وقعت المأساة .. وكأنما كانت الطبيعة طرفا فى المؤامرة التى حبكت خيوطها ، فأعارتها إطارا من الرهبة والكآبة والوجوم خليقا « بمسرحية » من مسرحيات « اخيل » أو مأساة من مآسى شكسبير !

والآن رجعة بنا إلى الوراء ..

الباريسية الظامئة إلى ماء النيل !

كان قد هبط فندق « سافوى » الفاخر بلندن قبـل تلك الليلة بايام « ثلاثى » ممتاز ، يتألف من « الأمير » المصرى على فهمى بك ، وزوجته الباريسـية الحسناء « مرجـريت » ، وسكرتيره وكاتم سره المخلص « سعيد عنانى » ..

وكان « الأمير » ابن مهندس مصرى كبير .. وكان شابا فى الثانية والعشرين ، ورث عن والده ثروته الطائلة ، وانعم عليه برتبة البكوية لكثرة تبرعاته السخية للأعمال الخيرية . واثناء عمله كملحق بالمفوضية المصرية فى باريس ، تعرف هناك إلى « سيدة » باريسية فاتنة ، من الطبقة الرفيعة ، تدعى مدام مرجريت لوران — وكان اسمها العذرى قبل زواجهـا الأول « مرجريت الييـــر — ولا ندرى هل كانت مطلقـة ، او ارملة ، أو منفصلة عن زوجهـا ! وانمـا كل الذى نعلمه ان الأسباب قد اتصلت بينها وبين الشـاب المصرى الثرى .. فلما دعاها إلى زيارة مصر قبلت مرحبـة ، وهنـاك عقـدا زواجهما العرفى فى ديسمبر سنة ١٩٢٢ .. وكان الدافع لها إلى الزواج من الشاب « الشرقى » — وهى التى تنتمى إلى بلد من أعـرق بلاد « الغرب » ثقافة — هـو شوقها إلى « الاستمتاع بحياة الأحلام مع ذلك الشاب الجذاب الذى يبدو غاية فى الرقة والدماثة من كل وجه ، والذى يحبنى حب اعزاز مكين » — على حد تعبيرها فى خطاب كتبته يومئذ إلى صديقة إنجليزية لها .. !

بيد انها حين جلست بعـد زمن إلى مائدة الغـداء مع

زوجها الجديد وسكرتيره فى مطعم الفندق اللندنى الكبيـر ، كانت قد سلخت وطرحت وراءها اشهرا عديدة من التعاسة والشقاء ، لا من « حياة الاحلام » كما كانت تخـال وتتمنى !

وكان قائد الاوركسترا فى الفندق يجهل بطبيعة الحـال تلك الحقيقة الخافية ، فلما خطر له أن يكرم « الأمير » المصرى وزوجته ، اتجه من فوره إلى حيث انحنى للسـيدة أمام الملأ وهى تتناول غداءها ظهر اليوم التاسـع من شـهر يوليو ، وسألها أن كانت ترغب فى أن يعزف لها لحنا معينا تفضله ؟.. فكان جوابها هذه العبارة الغريبة : « أشكرك شكرا جزيلا ، لكنى لست متلهفة على سماع شىء من الموسـيقى .. فان زوجى سيقتلنى فى مدى اربع وعشرين ساعة ! »

وكان الموسيقى المهذب قد الف أن يسمع فى حياته الكثير من الاجابات العجيبة الشاذة ، فأكتفى بان انحنى لمرجريت فى تادب وهـو يجيبهـا بـدوره : « اتمنى أن نراك هنا غـدا يا سيدتى ! »

الجـريمة .. !

فلما انقضت على انتصاف تلك الليلة ساعتان ، وكانت العاصفة العاتية فى عنفوانها ، كان أحد حمالى الفندق يدفع فى رواق من أروقته تلك العربة الصغيرة المعدة لنقل متـاع النزلاء ، حين سمع صوتا يعلو على هزيم الرعد القاصف .. صوت ثلاث طلقات نارية توالت سراعا ! .. فلما خف إلى مصدرها وجد « الأمير » على فهمى ملقى على أرض حجرته ،

فى « بيجامة » النوم ، والدم يتدفق من فمه بغزارة .. وقد القت زوجته على الأرض مسدسا « اوتوماتيكيا » من طراز براونج ، وعند قدميها ثلاث طلقات فارغة !

فلما استدعى مدير الفندق الليلى إلى مكان الجريمة ، ابتدرته السيدة صائحة بالفرنسية : « ماذا فعلت ؟ ماذا سيفعلون بى ؟ آه يا سيدى . لقد تزوجته منذ ستة اشهر ، قاسيت خلالها عذابا رهيبا ! » .. وحين استدعى الطبيب — الدكتور جوردون — على الاثر ، قالت له الزوجة بالفرنسية ايضا : « لقد جذبت الزناد ثلاث مرات ! » .. وكان معروفا انها تحتفظ دائما فى حوزتها بمسدس محشو كى تستعين به على حماية جواهرها عند اللزوم ..

ووكلت مهمة الدفاع عن المتهمة — مدام فهمى — إلى المحامى الشهير مارشال هول .. وأمام تلك الطلقات الثلاث، وما تفوهت به الزوجة بلسانها على اثر مصرع زوجها ، بدا موقف تلك المراة الأجنبية الحسناء المتلبسة بقتل زوجها ، داعيا إلى الرثاء والياس ! .. وكان الراى السائد أنها لا بد قد عانت شقاء مروعا حتى تلجا إلى ارتكاب جريمة كهذه ! .. وقال آخرون معلقين : « لقد نسيت أنها فى بلد آخر غير باريس ، حيث كان يمكن ان تبرا ساحتها بحجة ان الجريمة « عاطفية » مبعثها النزوة الطارئة ! .. اما فى لندن فلا مجال لمثل هذه الأعذار ! » .

لكن مارشال هول لم ييأس مع ذلك أو يخلد إلى القنوط، بل عمد ومساعدوه إلى تقصى ماضى الزوجين وقصة علاقتهما

وزواجهما الكاملة . .وكلما اوغل فى هذا البحث ، تجمعت لديه الادلة على توافر ركن الاستفزاز والاستثارة من جانب المجنى عليه ، وانتفاء ركن القصد الجنائى من جانب المتهمة ! .. ورغم ان مرجريت كانت وحيدة فى لندن فى تلك الأيام العصيبة ، خالية الوفاض من المال ، فقد كان لها اصدقاء مخلصون ، تطوعوا بالمال والجهد للقيام باستقصاء كامل فى باريس وفى غير باريس عن اسرار حياة القتيل الخاصة ! .. وقد جاءت هذه المباحث معززة من كل جهة للقصة المخيفة التى لا تكاد تصدق ، التى نسبتها المتهمة إلى زوجها (ولم يذكر الكتاب كنه القصة باكثر من هذه العبارة) .

بل لقد احضر إلى لندن شابان كانت لهما صلة بالقتيل ، كى يكونا رهن اشارة المحكمة فيما لو قام اى شك بشأن خلق « الأمير » الحقيقى .. وقد برر مارشال هول لجوءه إلى هذا السلاح الشائك فى الدفاع عن موكلته ، بقوله : « نحن فى حل من سماع اية شهادة ، من اى إنسان ، للوصول إلى الحقيقة واثباتها بالدليل القاطع ، بغية انقاذ حياة هذه السيدة المعرضة للخطر ! »

البحث عن منفذ .. !

ولم يدع المحامى الكبير بابا يمكن أن يفيد منه الدفاع وينفذ منه إلى مبتغاه إلا طرقه .. من ذلك انه توجه إلى احد تجار الأسلحة فاقترض منه مسدسا من الطراز الذى ارتكبت به الجريمة ، وراح يفحصه بكل عناية ، فطالما كانت معاينة المسدس سبيلا إلى هدم التهم الآخذة بتلابيب بعض المتهمين!

.. كما انه اخذ يقلب ادلة الدفاع و « تكتيكه » على مختلف الوجوه ، ويعيد وزن كل منها بدل المرة مرات ، من قبيل ذلك انه عثر فى عقد زواج المجنى عليه بالمتهمة على النص المطبوع الذى يعطيها العصمة فى يدها ، وقد «شطب» من العقد بناء على طلب الزوج ! .. فى حين بقى له هو حق تطليقها فى أى وقت ، بايقاع يمين الطلاق المألوفة ، لاتفه سبب .. وقد كانت هذه القرينة سلاحا — للدفاع او الاتهام — ذا حدين . فهى من جهة بمثابة « ظرف مخفف » يدل على نوع « النخ الأيدى » الرهيب الذى وقعت هذه الزوجة « الغربية » فى شراكه ، ومدى القلق النفسى الذى عانته طيلة مدة الزواج ! .. لكن هذه القرينة نفسها ، الا يجوز ان تعتبر على العكس ظرفا « مشددا » ، باعتبارها صورة من التعنت القاسى أمدت المتهمة « بالباعث » على القتل ، مع سبق الاصرار .. ما دام القتل هو المهرب الوحيد لها من ذلك الزواج الذى يتمسك به الزوج ؟

بهذه الدقة ، والتمحيص ، والمثابرة ، جعل مارشال هول يقلب أساليب الدفاع على مختلف وجوهها واحتمالاتها ، منقبا بينها عن الأسلوب الصائب الذى ينقذ حياة موكلته من المشنقة !

المحاكمة ..

وجاء دور نظر القضية ، أمام دائرة الرئيس « ريجبى سويفت » — الذى كان فى الماضى من « تلاميذ » مارشال هول فى المحاماة ! — وجلس فى مقعد ممثل الاتهام مستر برسيفال

كلارك ، وكان الجميع يغبطونه على قوة مركز الاتهام فى الدعوى . ومع ذلك فقد احتشد لمؤازرته وللادعاء بالحق المدنى نيابة عن اسرة القتيل نخبة من أقدر المحامين الانجليز ، إلى جانب عدد من زملائهم المصريين الذين اوفدتهم الأسرة من مصر خصيصا للأخذ لها بثأر فقيدها والاقتصاص من قاتلته الأثيمة .. ثم لاتخاذ الإجراءات الكفيلة بحماية ذكرى الراحل وسمعته من كل تجريح قد يلجأ إليه الدفاع ، بغية انقاذ راس المتهمة . لكن مارشال هول لم يكن مستعدا فى هذه القضية بالذات لابداء أو قبول اى لون من الوان المجاملة لزملائه المحامين الإنجليز أو ضيوفهم المصريين ، ولو مراعاة لسمعة الفقيد !

ونودى الشاهد الأول « سعيد عنانى » سكرتير القتيل ، وكانت إحدى صحف القاهرة قد رمزت إليه فى رسم كاريكاتورى بوصف أنه « ظل الضوء » — أو ظل الفقيد — فاخذ مارشال هول يحاوره ويستجوبه عن حياة سيده الحقيقية مع المتهمة ، اكثر من اربع ساعات متوالية :

— لقد اعترفت للمفتش كروس بانك حاولت ان تثنى الأمير عن عزمه على الزواج منها ؟

— نعم ..
— ووصفته بانه كان شرقيا ، حار العواطف ؟
— نعم ..
— وهل كان على فهمى مفتونا بالمتهمة فى تلك الفترة ؟
— نعم ، كان شغوفا بها كل الشغف ..

وعندئذ تلا مارشال هول خطاب غرام صادر من على فهمى إلى مرجريت يتضمن عبارات غزل وهيام حارة .. وفيه يناشدها ان تلحق به فى مصر : « فان خيالك يلاحقنى بإلحاح اينما اتجهت ، فأراك يا شعلة حياتى محاطة بهالة من نور ، وارى راسك مكللا بتاج اعددته لك هنا كى اتوجك به بمجرد وصولك إلى هذا البلد الجميل ، بلد اسلافى الاقدمين ! » .

ثم انتقل المحامى الكبير من تلاوة هذا الخطاب الفياض بالغزل إلى شرح معاملة على فهمى لزوجته بعد الزواج ، فتلا فقرات من خطاب كتبه المجنى عليه إلى اخت زوجته ، يقول فيه « انى مشغول فى الوقت الحاضر بتعليمها وتهذيبها . وقد بدأت بذلك منذ امس ، فلم احضر للغداء او العشاء ، ثم تركتها وحدها فى المسرح وخرجت ! وآمل ان تتعلم من هذه الدروس كيف تحترم رغباتى . فالإنسان ينبغى ان يكون حازما قاسيا على النساء ! » .. ثم دلل مارشال هول على ان هذا الثرى « المليونير » قد ارغم زوجته على ركوب الترام مع عامة الشعب ! .. وانتقل من التدليل على اضطهاده المعنوى لها إلى الاضطهاد الجسمانى الذى تبعه ! فاستأنف استجوابه لسعيد عنانى :

— هل وقعت بينهما مشادة عنيفة فى الحادى والعشرين من فبراير ؟ وهل تعلم انه اقسم يومئذ على القرآن ان يقتلها ؟

— كلا ..

— وهل تعلم انها كانت تخشى على حياتها ؟

— لم اعلم بشىء من ذلك قط !

— وفى الثالث والعشرين من فبراير ، هل اخذها فهمى على ظهر يخته إلى « الاقصر » ، التى تبعد عن القاهرة عشرة ايام ؟

— نعم ..

— وهل كان على ظهر اليخت ستة من الخدم السود ؟

— نعم ..

— الا تعتقد ان فهمى بدا يسىء معاملتها ويقسو عليها منذ تلك اللحظة ؟

— لا أستطيع أن اسمى ذلك قسوة . كل ما فى الأمر انه لم يكن « رقيقا » معها كما فى البداية ..

— الا تقر بأن مدام فهمى التعسة الحزينة المحطمة التى عرفتها سنة ١٩٢٣ ، كانت امرأة اخرى تختلف كل الاختلاف عن مدام لوران المرحة الطروب الخلابة التى عرفها المجتمع سنة ١٩٢٢ ؟

— ربما ، فقد صارا يتشاجران دائما ..

— هل سمعتها تقول يوما انك انت وعلى فهمى كنتما دائما ضدها ، وأن الكفة لم تكن متعادلة ؟

— نعم ..

وهنا سأل مارشال هول الشاهد عما إذا كان سيده من اصحاب الميول الجنسية الشاذة ؟ فنفى ذلك بشدة .. وعند هذا انتهت شهادة سكرتير القتيل ، بعد أن افلح الدفاع فى ان ينتزع منه اقوالا تثير فى نفوس المحلفين على الأقل شعورا « بالعطف » على المتهمة ، باعتبارها امرأة اوربية « هشة » وقعت تحت سيطرة مليونير « شرقى » عارم الشهوات ! ..

ولئن كانت هذه النتيجة قد تكفى لتخفيف التهمة من القتل العمد إلى القتل غير العمد ، فانها لم تكن تكفى لتبرئة المتهمة تماما كما كان يسعى هول !

الفكرة الجهنمية !

وكان اليوم التالى موعد مناقشة خبير الأسلحة فى شأن المسدس الذى ارتكبت به الجريمة .وكان مسدسا أوتوماتيكيا له خزان (مشط) ، ولابد فيه كى تصبح الرصاصة الأولى معدة للانطلاق ان تجذب ماسورته إلى الخلف بيدك ثم تتركها، ويكفى بعد ذلك ان تضع يدك على الزناد كى تنطلق الرصاصة الأولى ، وتنتقل الرصاصة التالية من تلقاء ذاتها إلى الوضع المعد للانطلاق ، وهكذا . .

وأفاض مارشال هول فى مناقشة الخبير فى هذا الموضوع حتى أوضح للمحكمة تماما النظرية التى اعدها للدفاع بمقتضاها عن المتهمة ، وهى انه إذا جذب صاحب المسدس ماسورته كى يصبح معدا للاستعمال ، يصبح فى وسع اى شخص جاهل بعد ذلك ان يطلق « فى الهواء » الرصاصة المعدة للانطلاق ، حاسبا بذلك انه يفرغ الماسورة من الرصاصة التى بها ، كى يصبح المسدس آمنا بعد ذلك . . فى حين انه بذلك يجعل الرصاصات التالية جميعا معدة للانطلاق على التتابع بمجرد الضغط على الزناد !

سر الشجار الأخير بين الزوجين !

ثم نودى على أثر ذلك الدكتور جوردون ، الذى استدعى

لفحص القتيل فور وقوع الحادث ، فأدلى بشهادة بالغة الأهمية من وجهة نظر الدفاع . فقد قرر ان المتهمة اعترفت له غداة مصرع زوجها بسبب شجارهما الأخير : قالت انه كان يلزمها ان تجرى لها عملية جراحية مؤلمة للغاية ، فرغبت فى اجرائها فى موطنها باريس . لكن زوجها أبى السماح لها بالسفر ، ولم يكن فى حوزتها من المال ما يكفى لنفقات الرحلة والجراحة . . والأنكى من ذلك انه ازعجها بمطارداته وهى ما تزال فى نوبة الم من جراء علتها التى تستدعى اجراء العملية ، فأصابها ذعر عصبى وشعور مفاجىء بالكراهية والفزع مما عرفت انه يعتزم فعله . . وفى نوبة هذا الفزع المميت من قسوة زوجها وشذوذه تناولت المسدس فأطلقت منه رصاصة من النافذة كى تفرغ ماسورته — حسبما ظنت — ثم صوبته نحو زوجها وهو يتقدم نحوها ، وهى لا تنوى إلا اخافته ، بعد أن صار المسدس فى ظنها خاليا عديم الخطر، ولكنها لا تدرى بعد ذلك كيف انطلقت الرصاصات منه فأردت زوجها !

ثم اضاف الطبيب إن حالة المتهمة عند فحصه اياها كانت تعزز ما نسبته إلى زوجها من مسلك شاذ . . كما قرر انها قالت له فى هذا الصدد « اواه يا سيدى ، لو تعلم العذاب الرهيب الذى قاسيته خلال الستة اشهر التى انقضت على زواجنا ! » . . وكان المحلفون قد بدءوا يدركون طرفا من ذلك العذاب ، لا سيما وقد كان بينهم ثلاث نساء . .

المرافعة . .

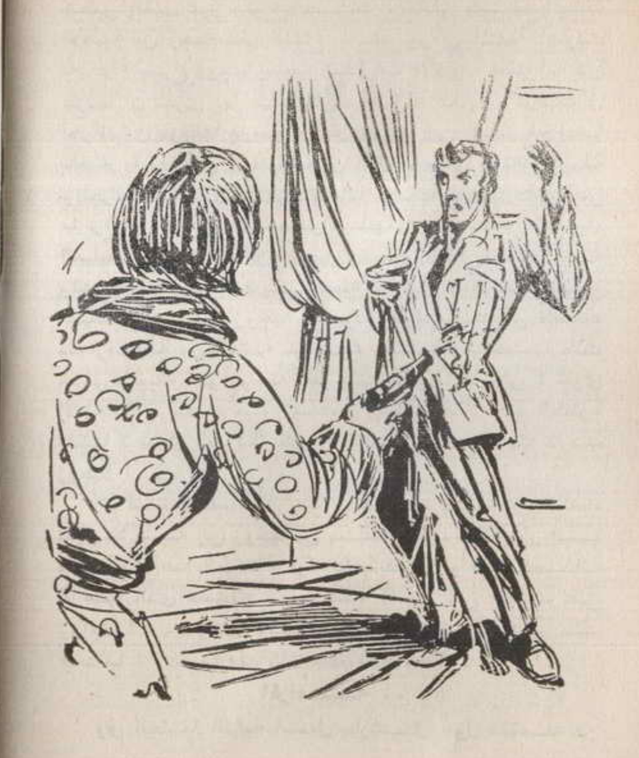
وفى الجلسة التالية استهل مارشال هول دفاعه عن

مرجريت فهمى فاستغل « نعرة » الشرق والغرب أبرع استغلال ، وأبشعه ! .. أبرعه من وجهه نظر واجب المهنه المقدس بصفته محاميا يبحث لموكلته عن مخرج ينقذ راسها .. وابشعه من وجهة نظر الحق والعدالة والمساواة بين الاجناس ..

فقد تحدث هول اول ما تحدث عن الزهو الشديد الذى يحسه الرجل الشرقى حين يمتلك امرأة غربية ! (كذا) .. وندد بضعة وقسوة هذا الشرقى الذى اراد من زوجته طاعة كطاعة العبيد ، وعاملها بوحشية متواصلة « منظمة » ، انتهت بها إلى ان صارت حطاما عصبيا ! ..

ثم ابرز هول للمحكمة خطابا ، من مجهول ، تلقته مرجريت أثناء اقامتها فى فندق سافوى قبل الحادث بأيام ، وقد جاء فيه : « حذار من أن تقبلى العودة مع زوجك إلى مصر ، فقد يعنى ذلك انتهاء حياتك بحادث غامض ، أو سم مدسوس فى برعم زهرة ، او ما إلى ذلك من غوامض اسلحة القتل فى الشرق ! .. فلتحرصى على البقاء فى باريس بين القوم الذين يحبونك والذين سوف يحمونك ! »

ثم اخذ المحامى الكبير يصف للمحلفين كيف كان يحلو للقتيل ان يطلق مسدسه فوق راس زوجته ، كى يرهبها .. وكيف كان يقيم عليها الحراس والرقباء من الزنوج العمالقة وعلى راسهم عملاق مخيف يدعى « كوستا » كان يدين لسيده بفضل انقاذ حياته فى إحدى المناسبات ، وكانت مرجريت تخشى ذلك العبد المفزع بصفة خاصة !



يحاول خنقها !

وانتقل هول من ذلك إلى وصف ما حدث ليلة الجريمة : كيف وقف الزوج يلوح أمام ناظرى زوجته بحزم الأوراق المالية التى تلزمهـا للسـفر إلى باريس وإجـراء الجراحـة التى تخلصها من آلامها .. وكيف أبى أن يعطيها المبلغ المذكور الا إذا رضخت لرغبته الشاذة ! .. ثم كيف هددها فى تلك الليلة ذاتها بالقتل ، بل وقبض على رقبتها فعلا فى أحـد أطـوار الشجار ! .. ثم ختم مارشال هول هـذه المقدمة التمهيـدية لدفاعه بالقول : ان المرأة التعسة التى قاست من وحشـيه زوجهـا ما قاست ، وما دفع بها إلى هـاوية اليأس .. لم يخامرها شك حين جرؤت على تحدى رغبته ، فى أنه سينفذ تهديده الـذى طالما جابههـا به ، فيخنقهـا بيديه فى التـو واللحظـة .. !

المتهمة تروى قصتها ..

وعند هذا الحد من المرافعة نوديت مدام فهمى لتسـمع المحـكمة اقوالهـا ، وكانت امراة سـمراء البشرة ، دقيقـة التكوين ، ذات حسن وجاذبية ، ومظهر « ارستقراطى » .. وبدأ هول يسترجع معها — مستعينا بمترجم — مراحل حياتها الشقية مع زوجها ، مرحلة مرحلة .

فمنذ الأسابيع الأولى التى قضتها فى ضيافته فى مصر ، وقبل حتى ان تتزوجه ، ودت أن تتركه وتعود إلى فرنسا ، « فقد بدأت ادرك انه غير مخلص فى حبه لى ! » .. وفى شهر

يناير ، خلال « شهر العسل » ، تناول فهمى القرآن فى يده واقسم عليه انه سوف يقتلها ذات يوم ، وستموت بيده ! .. وبعد ذلك بأسابيع كتبت مرجريت إلى محاميهـا فى فرنسـا تقول إنها تحمل على دراعيها طابع « رقه » زوجها البالغة !

ثم جاء اوان معاينة المسدس ، فقررت المتهمة بشأنه انها لم تطلق رصاصة فى حياتها قبل تلك الليلة المشئومة . وأن زوجها كان قد اعطاها ذلك المسدس يوما كى تستعين به عند اللزوم لحمـاية جواهرها . وقال لها إنه محشو و « معـد للاطلاق » .. فلما حاول ليلة الحادث أن يخنقها ، تناولتـه لتدافع به عن نفسها . لكنها كانت تنوى أن تخيفه به فقط ، لا ان تقتله .. وفيما هى تعبث به بين يديها ، وهى فى تلك الحال من الاضطراب ، لمست اصابعها الزناد دون قصد .. فانطلقت منه الرصاصة الأولى ! وإذ ذاك تنفست الصعداء — إذ حسبت أن ماسورته صارت خالية من الرصاص — فصوبته نحوه مطمئنة ، بقصد تهديده فقط وإثنائه عن عزمه .. وإذا بالرصاص ينطلق بالفعل ، فيردى زوجها عند قدميها صريعا !

وانخرطت مرجريت فى البكاء بحرقة تثـير الرثاء ، وهى تروى تفاصـيل حياتها الرهيبـة مع زوجهـا ، التى انتهت بمحاولته الأخيرة أن يعتدى عليها .. وهنا سالها محاميها :

— لماذا قبلت الحضور مع زوجك إلى لندن ، وأنت على هذه الدرجة من الفزع منه ؟

— اضطررت للمجىء لأسباب عائليـة ، كى أرى ابنتى المقيمة فى مدرسة بالقرب من لندن . ولم اكن قد قطعت الأمل

فى ان يتغير زوجى ، لا سيما وانه فى كل مرة هددته فيها بهجره كان يبكى مستغفرا ويعدنى بأن يصلح من حاله !

ثم انتقلت مرجريت إلى « المشهد الأخير » من مأساتها فقالت تصوره وهى تقطع كل عبارة بشهقة منتحبة من نشيجها « .. وتحفز للانقضاض على ، وهو يقول لى متوعدا « ساقتلك ! » .. فرفعت ذراعى بالمسدس ، ودون أن أنظر إلى أمام ، ضغطت الزناد .. ولست أدرى كم مرة انطلق المسدس ، ولا عرفت وقتئذ حقيقة ما حدث .. حتى رايت فهمى ملقى على الأرض امامى ، فركعت على ركبتى بجواره ، وتناولت يده اهتف به كالمجنونة : « حبيبى ، تكلم .. اواه ، بربك كلمنى ! » وفى هذه الأثناء اقبل الحمال على صوت الطلقات .. لكنى كنت فى حال من التأثر والانفعال لم أفقه معها من الأمر شيئا ! »

وسالها هول : « عندما مددت ذراعك نحو زوجك بالمسدس ، ماذا كنت تخشين ؟ »

ـ خشيت ان ينقض على ، فقد كان منظره مفزعا . وكنت قد نجوت مرة من موقف مشابه ، فتملكنى الذعر وهو يعيد ويكرر : « ساقتلك ، ساقتلك ! » .. أوه ، كم كان الأمر فظيعا !

وهنا نهض محامى المدعين بالحق المدنى يستجوب المتهمة:

ـ سيدتى ، الم تكونى ـ قبل زواجكما ـ تطمحين إلى ان تصيرى زوجته ؟

ـ اطمح ؟ كلا ، بل لقد أحببته حبا قويا فاردت ان أعيش معه !

ثم واصل المحامى الخصم استجوابها بشان خبرتها باستعمال السلاح ، قاصدا التدليل من ذلك على ان المتهمة قد أطلقت الرصاصة الأولى من النافذة ، لا لتفرغ الماسورة من الرصاص كما زعمت ، وانما لتتأكد من صلاحية المسدس للاستعمال قبل ان تطلقه على زوجها !

الوصية السرية

وكان مارشال هول قد ادخر لهذه المرحلة من المحاكمة « مستندين » على اكبر نصيب من الخطورة : اولهما برقية ارسلتها المتهمة فى الساعة التاسعة من مساء ٩ يوليو إلى باريس تقول فيها إنها ستعود إلى عاصمة وطنها فى اليوم التالى ! . .والمستند الثانى وصية سرية كتبتها موكلته فى مصر بتاريخ ٢٢ يناير واودعتها لدى محاميها المصرى ، على ان لا تفتح الا فى حالة وفاتها .. وفيها تقول بالحرف الواحد :

« أنا مارى مرجريت البيير ، اقرر ـ وانا مالكة لقواى العقلية تماما ـ أننى فى حالة مصرعى بالعنف ، أو وقوع اى مكروه لى ، اتهم رسميا زوجى « على بك » بانه قد ساهم فى اختفائى من الحياة ! .. ذلك انه ، فى الساعة الثالثة من بعد ظهر أمس (٢١ يناير ١٩٢٣) ، تناول القرآن ولثمه ثم وضع يده عليه ، واقسم بأن ينتقم لنفسه منى ذات يوم ـ

سواء غدا ، او بعد اسبوع ، او شهر ، او ثلاثة اشهر — المهم أن اختفى من الأرض بيده ! .. وقد أقسم زوجى هذا القسم دون ادنى سبب مفهوم ، سواء من غيرة ، او سوء سلوك ، او مشهد عاصف من جانبى .. لذلك فانى ارغب بل واطالب بإنصاف ابنتى واسرتى من عواقب فعلته ، والثأر لى منه ! »

فلما اقسمت المتهمة على صحة هذه الوثيقة ، بناء على طلب الدفاع ، تركت منصة الشهادة آخر الأمر ، بعد استجواب شاق استغرق نحو سبع ساعات متواصلة .. !

الشرق فى أوهام الغربيين !

وفى الجلسة التالية التى عقدت بعد ظهر اليوم الرابع من ايام المحاكمة ، سمعت شهادة كل من شقيقة المتهمة وسائق سيارتها الخاص ، وقد شهد كلاهما طبعا بما يؤيد قسوة القتيل على زوجته ! ..

ثم نهض سير مارشال هول فاستهل الجزء الختامى من مرافعته بقوله : « حضرات المحلفين ، حضرات القضاة .. إذا كانت هذه المراة ، الماثلة امامكم ، قد ارتكبت خطأ واحدا جسيما .. فهو انها تزوجت من رجل شرقى ! .. فلئن كانت المدنية المصرية القديمة من اقدم حضارات العالم واعرقها واعظمها ، فإنك إذا جردت الشرقى من طلاء الحضارة الخارجية ، بقى لك منه الجوهر الشرقى الأصيل .. ! »

ثم افلح هول فى بعث القشعريرة فى اجساد سامعيه ،

حين اخذ فى وصف الكيفية التى استدرج بها فهمى تلك الحسناء الغربية إلى « جنته الشرقية » — وان بدت كلمة « الجنة » رهيبة غريبة على الأسماع بعد الأقوال والأدلة التى سمعتها المحكمة فى هذا الصدد ! — ثم استطرد المحامى الكبير : « ولا تنسوا ذلك العملاق الأسود الضخم الذى يدين لسيده بحياته ، والذى كان يخف إليه كل يوم ليتلقى منه اوامره ! .. ترى لماذا كانت هذه المراة خائفة مذعورة ؟ أن اللعنة التى تلقى ظلها على هذه القضية لهى ذلك « الجو » الذى يتعذر علينا أن نفهمه .. الشعور « الشرقى » بامتلاك المراة .. شعور التركى وسط حريمه .. وإنه لجو غامض لا قبل لنا باحتماله !

« ثم تصوروا اثر تلك العاصفة العاتية التى هبت ليلة الحادث ، على اعصاب امراة سقيمة النفس ، انقضت عليها اشهر ستة وهى تعيش على تلك الصورة الموجعة : مهانة ، مستباحة ، مهيضة الأنوثة ، مسلوبة الكرامة والحرية والحقوق جميعا .. ! »

موقف دراماتيكى !

وإذ بلغ « هول » فى مرافعته مرحلة تصوير كيفية اطلاق الرصاص ، قام بأعجب عرض تمثيلى اداه فى حياته كمحام .. فقد اخذ يقلد تحفز « الذئب » للانقضاض على فريسته : « وفيما هو يتحفز للمرة الأخيرة ، يتحفز كوحش ، يتحفز كشرقى ، ثم ينكص على عقبيه لآخر مرة كى يقفز قفزة جديدة إلى الأمام .. إذا اليأس يدفعها هى إلى أن تتناول المسدس

فتصوبه نحوه .. ولفرط ذعرها ينطلق الرصاص منه دون ان تقصد ! » .

وفيما هو يتكلم صوب المحامى المسدس نحو المحلفين .. وحين وصف كيف سقط القتيل على الأرض تريث لحظات ، ثم اسقط السلاح الثقيل من يده .. فأحدث ارتطامه بارض القاعة صوتا كالذى لابد أحدثه سقوطه على الأرض فى فندق سافوى! وان الكلمات لتعجز عن تصوير الأثر القوى الذى أحدثه هذا العرض التمثيلى والأداء « الدراماتيكى » البارع من جـانب مارشال هول ، فى نفوس شهود الجلسة والمحلفين .. وإن يكن هو قد كرر القول بعد ذلك فى كل مناسبة ، بأن سـقوط المسدس من يده إنما حدث عفوا ولم يكن مقصوداً .. !

ثم جاءت الخاتمة البليغة للمرافعة ، التى أشار فيهـا المترافع لا إلى مأساة عطيل — ولو أنها ما كانت لتكون خارجة عن الموضـوع — بل إلى قصـة عصرية واسـعة الرواج والانتشار : « انكم تذكرون جميعا ولاشك تلك القصة الخلابة التى كتبهـا روبرت هيتشنز ، واطلق عليهـا (بيلا دونا) ، وتذكرون المنظر الختامى فيها ، الذى تخرج فيه المـراة من ابواب الحديقة إلى الليل الحالك فى الصحراء .. فيا حضرات المحلفين ، انا اريدكم ان تفتحوا الأبواب التى تستطيع هـذه المراة ان تخرج منها ، لا إلى ليل الصحراء الحالك البهيم .. وإنما إلى حيث تعود لأصـدقائها ، الذين يحبونهـا برغـم نقائصها ، وسوف يسرون باستقبالها .. بل تعود إلى طفلتها التى تنتظرهـا بذراعين مفتوحتين ! .. انكـم سـتفتحون

الأبواب ، وتدعون هـذه المـراة تعود إلى نور الشمس .. شمس حضارة الغرب الآلهية العظيمة ! » .

وفيما هو يتكلم رفع هول بصره مشيرا إلى السماء ، حيث كانت شمس سـبتمبر المشرقة تتدفق إلى قـاعة المحكمة ، فتملؤها دفئا واشراقا .. وبهاتين الحركتين البليغتين — حركة اسقاط المسدس وحركة التطلع إلى الشمس — جمع مارشال فى خطاب واحد ابلغ أساليب خطيبى مجلس العموم الخالدين « بيرك » و « بيت » ! .. واخيرا التفت مارشال هول إلى قضاة المحكمة ومحلفيها ، وقال لهم الكلمة المأثورة عن احـد اسلافه العظام : « لست اطلب « منكم » البراءة ، ولـكنى اطلب « لكم » ان تأتى البراءة على ايديكم ! »

ثم عقب ممثل الاتهام على مرافعة الدفاع مكررا المطالبـة براس المتهمة ! .. وفى النهاية لخص القاضى ظروف القضية ومطالب الدفاع والاتهام بايجاز ، موضحا للمحلفين ان عليهم اصدار قرارهم فى القضية بما لا يخرج عن احتمالات ثلاثة : ادانة المتهمة باعتبارها مرتكبة جريمة القتل العمد ، أو ادانتها من اجل جريمة القتل غير العمد .. أو اعتبارها «غير مذنبة» ، اى تبرئتها .. !

المداولة .. والحكم !

وخلت هيئة المحلفين للمداولة اكثر من ساعة ، انشغل خلالها مارشـال هول بالتحدث إلى ممثل الاتهام فى اهتمـام ، وهو يعبث فى يديه بمسدس مدام فهمى .. ثم عاد المحلفون

إلى اماكنهم فوقف احدهم يعلن قرارهم بتبرئة المتهمة ! .. وإذ ذاك ضجت قاعة الجلسة بالهتافات الصاخبة بحياة العدالة، بينما غلب على المتهمة الانفعال فدفنت وجهها بين يديها .. وقدر محاميها مشاعرها فتسلل من القاعة فى هدوء دون أن يتحدث إليها بكلمة ! لقد كان هو بدوره مضنى من الارهاق ، متصبب الجسم بالعرق إلى حد اضطره إلى ابدال ثيابه جميعا قبل ان يبرح المحكمة .. وبعد الظهر توجه إلى كوخه الريفى بضاحية « بروك » كى ياخذ قسطا من الراحة ، وهناك تلقى فى المساء برقية من موكلته الممتنة تقول له فيها : « من اعماق قلبى اعرب لك عن عرفانى الخالص بجميلك — مرجريت البيير » .. ثم لم تكد تأوى إلى مخدعها فى فندق « برنس هوتيل » حتى كتبت إلى محاميها فى الليلة ذاتها خطابا قصيرا هذا نصه : « سيدى الأستاذ .. فى غمرة السعادة القصوى التى احسها ، تشوب فرحتى غصة واحدة ، هى انى لم استطع أن أشد على يدك واقول لك : شكرا .. فقد كان انفعالى من العنف بحيث ارجو ان تغفر لى اننى اغمضت عينى وتركتهم ياخذونى إلى خارج القاعة ! — الشاكرة الممتنة « مرجريت فهمى » .. وقد اجاب هول على رسالتها برسالة شكر غاية فى الرقة ، تمنى لها فيها ان تعوضها الأيام عما قاست فى عامها الأخير ..

لكن مرجريت لم تلبث أن قابلت مارشال هول بعد ذلك بأيام وشكرته بشخصها .. وقبل ان تغادر انجلترا عائدة إلى وطنها كتبت إليه رسالة اخرى قالت فيها : « لست اريد ان ابرح لندن بغير ان اعرب لك عن مبلغ زهوى باننى قد عرفتك

.. ولن انسى صنيعك ! » .. ومنذ ذلك التاريخ لم تكن مرجريت تهبط لندن حتى تخف إلى زيارة محاميها العظيم ، وفى إحدى المرات تناولت الشاى معه فى « تمبل جاردن » .. كما استمرت تراسله فى كل مناسبة ..

وفى اليوم التالى لانتهاء المحاكمة — يوم الاحد ١٦ سبتمبر سنة ١٩٢٣ — احتفل مارشال هول بعيد مزدوج : العيد السادس والستين لمولده .. وعيد اضافته نصرا جديدا إلى قائمة انتصاراته القضائية الرائعة ! .. ولم تقتصر رسائل الشكر والاعجاب التى تلقاها على ما وصله من موكلته ، بل لقد انهالت عليه آلاف البرقيات ورسائل التهنئة من كافة انحاء العالم ، من أشخاص غرباء يحيون فيه عبقريته وتفانيه فى اداء واجبه فى القضية التى كانت « ميئوسا منها » !

مصر تحتج !

ولكن الاعجاب لم يكن الشعور الوحيد الذى اثارته مرافعة مارشال هول ودفاعه الحار عن موكلته .. فهذه مصر تغلى بالاستياء للهجة التى استعملها المحامى الكبير فى الكلام عن المصريين والشرقيين بصفة عامة ، كما نقلتها الصحف المصرية يومئذ فى برقياتها .. وهذا نقيب المحامين المصريين يرسل برقية احتجاج مطولة إلى النائب العام البريطانى ، يشكو إليه فيها سير مارشال هول « الذى سمح لنفسه بالتعميم فى الحديث عن مصر والشرق كله .. فى حين لا يخفى على محام عظيم مثله ان من الظلم والتجنى الحكم على شعب

بأسره من أجل مسلك فرد واحد .. لذلك تحتج نقابة المحامين المصريين بكل قوتها على المبدأ الظالم المحزن الذى التـــزمه سير مارشال هول فى دفاعه .. » — وقد اجاب النائب العام الإنجليزى من فوره ، نافيا التهمة عن المحامى الكبير : « وانى لعلى يقين من أن سير إدوارد مارشال هول لا يمكن أن يعمد إلى جرح شعور أى شعب أجنبى ، فان له من خلقه وخبرته عاصما من تجاوز الحدود المتعارف عليها لصيانة حقوق موكلته .. ولهـــذا ارجح انكم قـــد كنتم ضـــحية لتلخيص صـــحفى ملتبس .. »

يتراجع ويعتذر ..

غير أن مارشال هول لم يكد يعلم بالاحتجاج المصرى حتى سارع إلى الكتابة إلى النائب العام الإنجليزى ، مؤكدا أنه لم يقصد بتلك النعوت — التى استقاها من مصادر « مصرية » — الا شخص المجنى عليه ، دون المصريين عموما كشعب .. ثم اضاف قوله : « والشىء الوحيد الذى قد يساء فهمه فيما قلت ، هو اشارتى إلى الخطـــأ الذى ارتكبتـــه تلك المـــراة الغربية بزواجها من رجل شرقى يعتبر حقوقه على زوجتـــه حقوق « تملك » لا تعاون متبادل .. فاذا كنت قـــد اندفعت بتاثير حرارة الدفاع وحماسة الموقف ، فانزلق لســـانى بأية عبارة يمكن ان تشتم منها مهاجمة المصريين كشـــعب ، فانى اول من يستنكر هذا المعنى ، ويأسف لوروده على لسانه !»

وبذلك اعتبر « سوء التفاهم » منتهيا عند هذا الحد ..



اعترافات .. لا تنقصها الصراحة !

فى العدد العاشر من « كتابى » (فى إصداره الأول ، وكان تاريخ ذلك العدد أول ديسمبر ١٩٥٢) قدمت لك الفصـــل الســـابق ، المأخـــوذ من كتـــاب صـــدر يومئـــذ متضـــمنا أشـــهر القضـــايا الجنـــائية التى ترافع فيها المحامى الإنجليزى الأشهر « سير مارشال هول » ، وكان ذلك الفصل يسرد تفصـــيلات محاكمـــة الفانية الباريسية «مرجريت الببير» ـ التى عرفت باسم « مرجريت فهمى » على أثر زواجها من الشاب المصرى الثرى المرحوم على فهمى كامل ــ وقد كان انقاذها يومئذ من حبل المشنقة من « معجزات » مارشال هول ، التى زادته شهرة وعلو صيت فى ميدان المحاماة الجنائية .

وفيما بعـــد استطاع « كتابى » أن يحصـــل لك على كتـــاب نادر كان قد أصـــدره الـــكاتب الفـــرنسى نادر كان قد أصـــدره فى عام ١٩٣٤ الـــكاتب الفرنسى « ميشيل جورج ميشيل » بعنوان : « الحيـــاة اللامعـــة والمفجعة للاميرة (فهمى بك) الباريسية ! » .. وقـــد تضمن الاعترافات الـــكاملة لتلك الفـــانية الباريســـية « الجريئة » كمـــا روتها بلسانها لمؤلف الكتاب .. وهى اعترافات « فاجرة » لا تنقصها الصراحة ، ازاحت فيها « مرجريت » ــ أو « ماجى » كمـــا كان يطلق عليهـــا عشاقها ــ الستار عن أسرار ماضيها الحافل بالمغامرات الغرامية الطائشة ، منذ نعومة اظفارها إلى أن التقت بمؤلف الكتاب وهى فى نحو سن الأربعين .. بل إنهـــا ذكرت « اسماء » عشاقها وقصتها مع كل منهم ، واحدا بعد واحد ، وقـــد كان منهم ــ كمـــا سترى فى هـــذا الفصل والفصـــل الذى يليه ــ ولى العهـــد بريطانيا فى ذلك الحين « البـــرنس أوف ويلز » ، الذى تولى العرش بعد ذلك باسم « ادوارد الثامن » ثم تنـــازل عنه ليتزوج من المراة التى احبها « مسز سمبسون » !

لقاء .. فى (البندقية)

كنا فى الناقلة البخارية الصغيرة التى تنقل الركاب من ضاحية (الليدو) إلى مدينة (البندقية) .

وكان الوقت ظهر يوم من أيام شـــهر اغسطس .. وقد بدت امامنا جزر (ســـان سيرفولو) ــ جـــزيرة المجانين ــ و (سان كليمنتى) ــ جزيرة المجنونات ــ وجزيرة الرحمة .

وكانت (البندقية) تنتظرنا هنـــاك .. ووجـــدنا على القنطرة جمعا من أهالى المدينة فى انتظار الناقلة ، بينهم بعض الأجانب ــ فى ملابس الاستحمام ــ وبعض أهـــل المدينـــة الأصليين ، ومنهم نسـاء فى زيهن القومى الأسود ، وقد لفت كل منهن كتفيها فى « شـــال » .. وعلى مقربة منهن ، جلست

على احد المقاعد سيدة نحيفة ترتدى (تايير) . وأخذ صديقى « البندقى » — الذى كان يرافقنى — ينظر اليها باعجاب ، ثم قال لى : « إنها فرنسية بلا شك ! انظر إلى يديها ، وتأمل مظهرها المتسم بالتحفظ . . انها لا تقيم فى فندق (الاكسلسيور) الذى ينزل فيه الأمراء والمغرورون ، وإنما تقيم فى فندق الحمامات . . لابد انها سيدة ممتازة من سيدات الطبقة الوسطى » .

ودار بيننا الحديث ، وكانت هى موضوع هذا الحديث :

— لقد شوهدت أمس فى حفلة الرقص التى اقيمت عند « كافيللى » ، وكانت تضع على راسها قبعة تشبه «طرطور» المهرجين !

— يبدو انها سائحة ممتازة ! . . لا شك انها تنتسب إلى الطبقة الراقية .

— انها تتحلى بالجواهر فى النهار . . بل وتتحلى بكثير من الجواهر !

— وفى البندقية !

وكانت المصادفة المحضة قد دفعت بالسيدة حتى صارت على مقربة منا ، فأخذنا نفحصها من قمة راسها إلى اخمص قدميها : كان صدرها يعلو وينخفض، وكانت رقيقة الشفتين، صغيرة الأنف ، واسعة العينين ، وقد امسكت فى احدى يديها (منشة) تطرد بها الذباب والناموس . وفجاة شعرت بهذه (المنشة) تضغط على بطنى ! وكاد صديقى يقع مغشيا عليه عندما سمعها تقول لى :

— لقد سمنت كثيرا منذ رايتك آخر مرة فى (دوفيل) ، قبل الحرب !

ولما تبين لها اننى لم اعرفها بعد ، استطردت تقول : « الم تعرفنى ؟ . . انا مدام فهمى . . « ماجى ميللر » ! هل لك فى أن تتناول معى كأسا . . . هنا فى بار دانييللى ! »

وتقدمتنى « ماجى » ، ثم عبرت البهو الواسع الفاخر ، حتى إذا وصلت إلى البار سألت « البارمان » : « هل يولانج هنا ؟ » .

فأجاب : « نعم يا سيدتى الأميرة ! »

— إذن أرجو ان تتقدم له كوبا من شراب « الأناناس » فى كاس من زجاج !

فأجاب « البارمان » فى أدب : « سأقدمه له فى كاس من زجاج فينيسيا المشهور يا سيدتى الأميرة ! » .

وما لبثت ان اكتشفت أن « يولانج » الذى سيقدم له شراب « الأناناس » فى كاس من زجاج فينيسيا الفاخر هو . . « كلب » ماجى ميللر !

وسأل « البارمان » ماجى ميللر : « وماذا اقدم لسيدتى الأميرة ؟ » .

فأجابته فى الحال : « ربع زجاجة من ماء (فيتيل) المعدنى . . فى ركنى المعتاد ! »

وكان هذا الركن المعتاد يتكون من مقعد قديم مكسو بالجلد الإنجليزى ، تضيئه ثريا كبيرة ، رغم أن ضوء الشمس فى الظهيرة كان كافيا ! . . وقالت « ماجى » وهى تتاملنى :

« لقد حدثت أمور كثيرة منذ تقابلنا لآخر مرة فى (نورماندى) فى عام ١٩١٣ . »

فقلت : « اجل ! .. لقد نشبت الحرب العظمى ! »

فأجابت : « نعم .. كما وقع حادثى ! لقد أرادت الأقدار ذلك ، وكأنه شىء مقرر منذ ولدت .. هل تريد ان تسمع التفاصيل ؟ »

واخذت ماجى ميللر تتكلم ..

وإذا كنت اليوم امسك القلم لأروى قصة «ماجى ميللر» . او « البرنسيس فهمى » ، فلست اقصد بذلك ان أروى قضية جنائية هزت لندن وباريس والقاهرة ، وإنما أريد أن أبين كيف تنتقل خطوات القدر من مكان إلى آخر ..

وانى لأترك الكلام لماجى ميللر ، فهى التى تتحدث إلى القارىء ، وهى التى تروى قصتها .. وان كان القلم قلمى أنا !

الدماء تلازم حياتها .. منذ البداية !

قالت لى ماجى ميللر فى مطلع قصتها : « ليس بوسعى فى الواقع ان اخصك بأكثر من ربع ساعة فقط ، إذ ان «تولنتينو» سيحضر بعد ذلك ليصحبنى للغداء ، فقد وعد بأن يقدم لى طبق السمك المطهو مع الحشائش البحرية ، ولكن تولنتينو يعيش دائما على هامش الحياة ، وهو لا يحضر الا متأخرا عن موعده .. انه رسام يحتفظ بأجمل مجموعات الفن القوطى ، وكثيرا ما يبيعها للسائحين .. ولكن مالنا ولهذه التفاصيل ؟ »

وانطلقت بعد ذلك تتحدث ، وكأنها تلميذة تستعد لالقاء درس حفظته .. وها هى روايتها :

« لقد ولدت فى باريس ، فى ١٢ ديسمبر من عام ١٨٩٢ — وهو تاريخ استبشر به ! — وكان والدى ، واسمه « البير » ، يعمل كاتبا عند احد المحامين . اما والدتى فكانت تشتغل بحياكة الملابس ، وكانت جميلة الشكل . ولقد كان لى شقيقان قتلا فى الحرب ، كما كانت لى شقيقة وشقيق ثالث أصغر منى . وهذا الأخير هو أس ما أصابنى من نكبات ! فقد كنت العب معه بالكرة فى الطريق — امام المنزل — فى يوم من الأيام ، وإذا الكرة تنطلق إلى عرض الطريق ، فجرى اخى ليلتقطها .. وإذ ذاك صدمته عربة من عربات السكك الحديدية فهشمت راسه !

« ومع أنه كان لا يزال فى الرابعة من عمره ، الا ان الأسرة كلها اعتبرتنى مسئولة عن مقتله ! .. وصار مجرد ظهورى بينهم يثير اعصابهم ويرهقها ، ففضلوا فى نهاية الأمر ارسالى إلى مدرسة الدير حيث أودعت بالقسم الداخلى » .

ولما وصلت « ماجى ميللر » إلى هذا الجزء من قصة حياتها ، التفتت إلى « البارمان » فطلبت كأسا أخرى ، ما إن احتستها حتى عادت تستأنف قصتها قائلة : « ولما كنت ساذجة ، فقد انتهى بى تكرار اتهامى بأننى المسئولة عن مصرع اخى ، إلى ان صدقت ذلك فى نهاية الأمر ! .. ومرت بى شهور عديدة حاولت خلالها ان اكفر عن الجريمة العالقة بعنقى ، فتفانيت فى العبادة ، واستغرقت فى التقوى .. على

اننى ما لبثت أن تعرضت لتطور كبير ، عندما ذهبت لزيارة سيدة من قريباتى تدعى « مدام لانجلوا » . وكانت تقيم فى باريس ، وتنعم بما تنعم به اية باريسية من حياة مرحة .. وهكذا بدات بالنسبة لى حياة اللهو والترف الباريسى .. بدات هذه الحياة بالنسبة لى وانا لا ازال فى الخامسة عشرة من عمرى !

العشيق الأول .. والزلة الأولى !

« وهناك ، عند « مدام لأنجلوا » هذه ، قابلت أول عشاقى ! .. كان شابا إنجليزيا صغير السن ، يشغل والده وظيفة قنصل فى الهند . وكان اسمه « اندريه مونت كلارك » .. وقد بلغ من سحر لطفه وفتنته ان اسلمته نفسى !

« ولكن مهلا ! .. لا تظلمنى ، فقد كنت فتاة شريفة ! .. لقد دعانى لزيارة منزل امه الفرنسية ، وكنت صديقة لأخته ، فلبيت الدعوة . وهناك وعدنى الشاب بالزواج بمجرد ان تصل موافقة والده . ولكن الهند كانت بعيدة ، وكان يجب ان ننتظر مدة طويلة حتى يصل الينا هذا الرد . وفى فترة الانتظار هذه ، اخذنا نتذوق جميع المتع .. كما تفعل اية خطيبة مع خطيبها فى فترة الخطبة !

« ولكن رد والده ما لبث أن جاء .. بالرفض ! »

وسكتت « ماجى » قليلا ، فقلت لها : « وماذا حدث عقب ذلك ؟ »

فابتسمت وقالت : « لم يحدث شىء .. بل عدت إلى أسرتى ! .. لم اعد مرفوعه الراس طبعا ! .. وظللت الازم الاسرة عاما كاملا »

« اندريه » الثانى .. العشيق رقم (٢) !

« وفى ذات يوم ، او ذات مساء ، قابلت فى احد المحال التجارية صديقة أخرى لصديقى البريطانى . وسرنا معا نتجاذب أطراف الحديث ، وإذا بها تعرض على أن تعرفنى برجل قالت فى وصفه « إنه يمتلك سيارة ! » .. وكان امتلاك سيارة فى ذلك الوقت — سنة ١٩٠٧ — دليلا على العظمة وسعة الثراء ..

« وتعرفت إلى « اندريه ميللر » ، صاحب السيارة . كان ابن تاجر للخمور مشهور فى (بوردو) ، كما كان يمتلك جيادا تجرى فى حلبات السباق ، بينما كنت فتاة بسيطة ، ارتدى الزى الخاص بطالبات القسم الداخلى ، وأرسل شعرى مضفورا فى جديلتين طويلتين تكادان تبلغان ركبتى ! .. وما لبث « اندريه » أن دعانى إلى ركوب سيارته ، وكانت من طراز « رينو » فراحت تهتز بنا اهتزازا عنيفا ! .. وكان الرجل جميلا ، اسمر اللون ، ممشوق القوام ، ذا حظوة لدى جميع من كان يلتقى بهن من النساء !

« ومع انه كان فى الأربعين من عمره ، الا انه سرعان ما تبين أننى — وإن لم اتجاوز السادسة عشرة — كنت على دراية تمكننى من الدفاع عن نفسى ! .. فقد كانت التجربة

التى خضتها مع الشاب البريطانى كافية لان الم بامور الرجال ونزواتهم !

« وقد دعانى « اندريه » مرة لزيارته بمنزله الريفى فى (اركاشون) — حيث كان يصيد الثعالب — فلبيت دعوته شاكرة ، ولكنى ذهبت إليه بصحبة اسرتى كلها ! .. ولم يجد بدا فى النهاية من أن يطلب يدى .. ولم تكن به حاجة إلى استئذان أبيه — مثل « اندريه » الأول — فما لبثنا ان تزوجنا ! .. واصبحت « مدام ميللر » !

خصام .. وصلح .. ثم طلاق !

« وبهذا الزواج ، بدأت المرحلة الاولى من حياتى كنجمة متألقة فى المجتمع .. وهى مرحلة استغرقت سبع سنوات ، قضيتها فى ركوب الخيل ، وصيد الثعالب فى (اركاشون) ، والسفر إلى مراكش ، والحياة فى باريس .. ثم استقر بنا المطاف فى البندقية .. وهنا ، فى صالون « بار دانييللى » الذى يطلقون عليه صالون « جورج صاند » ، انقطع الحبل لاول مرة .. فقد كان زوجى « ميللر » شديد الغيرة ، وكانت هذه الغيرة سبب الكثير من مشاحناتنا ، من ذلك انه اراد ذات ليلة ان يدخل مخدعى ، وكان من عادتى أن اغلق بابى إذا ما اعتزمت النوم .. وعبثا طرق زوجى الباب ، فقد ابيت ان افتحه ، فما كان منه الا ان كسر الباب واقتحم الغرفة ! .. وما كاد يدخل حتى انهال على بالكلمات . ولم يسعنى بدورى الا ان انشب فيه اظافرى ! ورأى فى الحجرة بابا جانبيا مفتوحا ، فصرخ قائلا :

— لقد هرب عشيقك من هنا !

قلت : « لا ! .. بل اننى اضع وراء هذا الباب حقيبة قبعاتى ! »

فقال متسائلا : « ولماذا تركته مفتوحا ؟ »

فقلت : « الم تكن تعترض منذ لحظة على اننى أوصد بابى ؟ »

« وانتهت هذه المشاجرة بالصلح .. ثم رحلنا إلى مراكش حيث قضينا بعض الوقت . على أن صلحنا لم يستمر طويلا ، إذ لم البث أن انفصلت عن زوجى فى (دوفيل) ، فى سنة ١٩١٣ .. كنت هناك برفقة شقيقتى وباقى افراد اسرتى . وكان زوجى قد اعتاد ان يدعو زميلا له منذ أيام الدراسة ، ليقيم معنا بين آن وآخر — ولعله كان يفعل ذلك نكاية فى ! — على اننى ما لبثت أن تبينت ان ذلك الصديق كان يحرضه ضدى باستمرار ، إذ سمعته ذات يوم يقول له : « انك تعامل هنا كاسوأ ما يعامل الخدم ! » .

« ومهما يكن مدى ما فى قوله من صدق ، فما كان من حقه ان يقوله . لذلك لم اتردد فى ان افتح الباب الذى كان يفصل بينى وبينهما ، لأقول للصديق الطفيلى :

— معذرة يا سيدى ! ولكن ليس من حقك ان تتدخل فى شئوننا العائلية الخاصة ، ولذلك فانه يسرنى أن ترحل عن هذا المنزل !

ولكن زوجى انضم إلى جانب صديقه وقال : « لقد دعوت « جاك » إلى هنا ليقضى اجازته إلى جانبى .. وإذا رحل ، فسأرحل أنا ايضا ! »

فقلت له فى الحال : « حسنا جدا يا صديقى ! .. يمكنك ان ترحل انت أيضا .. مع السلامة ! »

« ورحل الاثنان ، وقد تأبط كل منهما ذراع الآخر ! .. وظننت أن الأمر لن يتعدى جولة فى الريف . ولكننى كنت شيطانة صغيرة ، فناديت رئيس الخدم ، والمكلفين بالعناية بجياد السباق ، وأصدرت اليهم الأوامر الصريحة باغلاق ابواب الحظائر فى وجه اى إنسان ! ــ وكان هذا سخفا منى بطبيعة الحال ، ولكن سنى إذ ذاك كانت لا تتعدى الثامنة عشرة ! ــ فلما عاد زوجى ، ومعه صديقه « جاك » متعلقا بذراعه ، وجد الحصون والمتاريس فى طريقه ، فلم يتمكن من الوصول إلى جياده ! وكانت فضيحة كبرى اهتزت لها (دوفيل) كلها !

« ولم يبق أمام زوجى إلا طلب الطلاق ، فلما مثلنا امام القاضى ، صاح يخاطبنى : « إذا لم تقبلى ما اعرض عليك ، فساعرف كيف احطم حياتك ! » .. وعرض على مبلغا ، ولكنى كنت اطلب إيرادا ثابتا . وفى النهاية قبلت مائتى الف من الفرنكات . ولم يكن المبلغ كبيرا فى ذلك الوقت ، ولكنى كنت متوسطة الحال ، وعلى شىء كثير من الخجل !

« وفى تلك الفترة ، قابلت « نيكولى دى مونتجوا » .. الا تذكرها ؟ .. لقد كانت المع نجوم مسرح « الفولى برجير »

ــ واصبحت فى عام ١٩١٩ أميرة ، بزواجها من الأمير الروسى « جاليتزين » ! ــ ولكن ها هو « تولنتينو » قد اقبل .. »

ففى تلك اللحظة اقبل علينا شخص كان شكله اقرب ما يكون إلى أشكال المهرجين الايطاليين . وانحنى أمام « ماجى ميللر » على الطريقة الالمانية ثم قبل يدها ! وانصرفنا معا .

غرام الباشوات فى مصر .. منذ ربع قرن !

وتوطدت العلاقات بين « ماجى ميللر » وممثلة « الفولى برجير » المذكورة ، التى سرها أن تجد لها صديقة بين أفراد الطبقة الرفيعة ، فأخذت تتردد بصحبة « ماجى » على مختلف الأوساط والبيئات .

وكانت « ماجى ميللر » تدرك ان المائتى الف فرنك ليست بثروة ، وانها لن تلبث أن تتبخر بسرعة ، ولكنها رغم ذلك لم تتمكن من أن تطلق حياة الخيل والسباق والطبقة الرفيعة التى كانت قد اعتادتها !

وقبيل نهاية الحرب العظمى بمدة وجيزة ، اصيبت « ماجى » بمرض خطير ، فاوصاها الاطباء بضرورة السفر إلى منطقة لا تغيب عنها الشمس . وعلى الرغم من أن الغواصات كانت تملأ البحر الأبيض المتوسط وقتئذ ، فان « ماجى » سافرت إلى (مصر) عن طريق (مالطة) ، وصحبتها فى سفرها خادم خاصة للاشراف على صحتها والعناية بها .

وصارت « ماجى » تصف مصر ــ عندما كانت تتحدث عنها بعد ذلك ــ بأنها « أرض مصائبها » !

نعم .. كانت مصر أرض مصائبها !

ولكن البداية فى مصر كانت طيبة بالنسبة لماجى ! .. فقد وقع فى غرامها « اقطاعى » كان يدعى « سلطان باشا » — تقول ماجى انه رزق فيما بعد بابن و « وريث » أحب بدوره حين صار شابا ممثلة فرنسية من أشهر كواكب المسرح والسينما !

ولكن ماجى لم تحفل بغرام سلطان باشا ، لأنها كانت قد جاءت إلى مصر تنشد الهدوء والراحة .. وكان يرسل اليها فى فندقها كل يوم رسالة او زهورا مع خادمه الأسود ، ويحرص فى وقت العشاء على ان يحجز لنفسه مائدة إلى جانب مائدتها .. كما كان يجمع على مائدته عددا من سكرتيريه وأفراد « بطانته » وفريقا من المتملقين المتطفلين ! .. ولم يدع الباشا سبيلا إلا انتهجه للتأثير على ماجى : فكان يبالغ — على مسمع منها — فى وصف محاسنها وسحرها ، فيؤمن المحيطون به على كل كلمة يقولها ، ويبتسمون للحسناء الجالسة إلى مائدتها بجوارهم ، « كأن شفاههم قد دهنت بالعسل ، والذهب يجرى فى أيديهم ! » — على حد تعبير « ماجى » ! .. فاذا أعجبت بقطعة موسيقية مما تعزف « الأوركسترا » ، أسرع سلطان باشا فأشار إلى رئيس الفرقة ليعيد عزف القطعة ، ثم اشار بيده للحسناء الفرنسية إشارة توحى بغبطته بأن يقدم لها هذه القطعة التى أعجبت بها !

وتحاول « ماجى » عبثا أن تغير مائدتها لتجلس بعيدا عن هذا المحب الولهان ، ولكن الفندق كله يتآمر ضدها ..

فما إن تنتقل إلى مائدة جديدة ، حتى تجد « الباشا » إلى جانبها ومعه شلته ! .. فماذا تفعل بعد ذلك ؟ .. اتطلب ان يحمل الطعام إلى غرفتها ؟ .. ولكنها كانت لا تكاد تجد طريقا تسلكه إلى حجرتها ، من فرط ما تراكم فى الردهة من باقات الزهور ! .. فاذا سألت الخدم عمن أرسل تلك الزهور ، لم تتلق سوى جواب واحد : « لسنا ندرى يا سيدتى ! » .. فتقول لهم : « الم احذركم من قبل ؟ » .. وقبل أن تفرغ من عبارتها ، يصل خادم أسود اللون ، تتقدمه وصيفة ويتبعه احد خدم الفندق ، والثلاثة يحملون باقات جديدة من الزهور !

تنقذ « شريف باشا » من الموت !

والتقت « ماجى » فى القاهرة بصديق كهل ، وثيق المعرفة بباريس ، هو الجنرال التركى « شريف باشا » .. وكان وزيرا تركيا سابقا ، أصدر شباب « تركيا الفتاة » حكما بإعدامه مرتين ، فلاذ بمصر .. وكان متزوجا من اميرة مصرية وثيقة القرابة بالبيت المالك !

وكان شريف قد اشتهر فى باريس بأناقته ، وشاربيه الكبيرين ، وبمغامراته ، وسياراته الفاخرة العديدة . ومن ثم سرت « ماجى » بلقائها به ، وتقبلت صحبته بابتهاج ، وجلست تتناول الطعام إلى جانبه وقد أدارت ظهرها للعاشق الآخر الذى كان يلاحقها : سلطان باشا ! .. وسرعان ما فوجئت بشريف يغادر مقعده ليتجه نحو سلطان .. وارتفعت اصواتهما فى حدة ، وتدفقت الشتائم حتى طغت

على نغمات الموسيقى ! .. وما لبث سلطان باشا ان غادر المكان وهو يصيح فى الآخر مهددا : « سوف تصل إليك اخبارى سريعا ! »

فتمتم شريف باشا يجيبه وهو يعود إلى مقعده : « تقصد مبارزة ؟! .. اننى موافق منذ الآن ، إذ انها لن تكون الأولى ، وارجو أن لا تكون الأخيرة .. بالنسبة لى على الأقل ! »

وامسك شريف باشا بيد « ماجى » فقبلها وهو يقول لها :

— ان هذا الحادث على العموم لن يمنعنا من زيارة « السوق » !

وكانت السوق فى ذلك الوقت — على حد وصف ماجى — مجموعة من حارات ضيقة ، وازقة يزدحم فيها الناس ، وتملأها العربات والذباب ، وتجرى فيها الحمير براكبيها ، يسابقها اصحابها المكاريون الذين يجرون بجوارها وهم يصيحون فى المارة : « بالك ! بالك ! »

وفيما كانت « ماجى » تجوس مع شريف باشا خلال السوق ، اقترب منه رجل وهمس فى اذنه ، « احترس ! » ، فلما سألته « ماجى » عما هنالك ، قال : « لا تنزعجى .. إنه يحذرنى من موظف فى دائرتى طردته اليوم من عمله ! »

وأقبل فى تلك اللحظة شاب وضع يده فى جيبه ثم اخرجها تحمل سلاحا صوبه نحو شريف باشا ، فأسرعت « ماجى »

— بحركة غريزية — ووقفت بين الشاب وصديقها .. وإذ وجد الأول ان الفرصة قد ضاعت منه ، بادر إلى الفرار !

ولما عادت « ماجى » فى ذلك المساء إلى حجرتها بالفندق الكبير ، وجدت صورة كبيرة لشريف باشا وقد كتب عليها هذا الإهداء : « رمز صداقتى الخالصة ، ووفائى الذى لا يتزعزع! »

وهكذا ازدادت أواصر الصداقة بين الاثنين توطدا .. وما لبثت ماجى ان رافقت شريف باشا فى رحلة إلى الوجه القبلى .

غرام .. مع البرنس أوف ويلز !

ولكن لكل شىء نهاية ! .. فقد كان لا بد لماجى من العودة إلى باريس ، لتستأنف حياة اللهو والعبث خلال سنوات الحرب . وهناك أصبحت تقضى الكثير من سهراتها مع « اشيل فولد » — ابن الرجل الذى شغل منصب وزير المالية فى عهد نابليون الثالث — ومع « دوق وستمنستر » .. وفى عام ١٩١٦ — وفى مصيف (دوفيل) — تعرفت ماجى بضابط بريطانى كبير ، قدمها إلى « المركيز دى بريتيل » ، فقدمها هذا — بدوره — إلى الرجل الذى سيتوج شخصيتها !

كان المركيز دى بريتيل ينتسب إلى أسرة عريقة ، اعتادت ان تستضيف ملوك بريطانيا وأولياء عهودهم ، كلما حلوا بفرنسا فى زيارات غير رسمية .. وقد قدر لولى عهد بريطانيا الأسبق ان يقع يوما عن ظهر جواده ، وهو فى ضيافة المركيز ، وكان هذا الأمير هو عين الملك الذى تولى حكم بريطانيا بعد

ذلك لفترة قصيرة باسم « ادوارد الثامن » ، ثم نزل عن عرشه ليتزوج من المرأة التى احبها : « مسز سمبسون »

ولكن « فرانسوا دى بريتيل » ساعد صديقه الامير على السقوط فى شىء آخر ، كان اخف وقعا على نفسه من السقوط عن ظهر الجواد ! .. فقد اوقعه فى غرام ماجى ميللر !

كانت ماجى فى ذلك الوقت فى ابهى آيات جمالها ، وفى عنفوان شبابها — إذ كانت سنها لا تزيد على اثنين وعشرين عاما — وكانت تختال فى اجمل الثياب ، وتتحلى باغلى الجواهر ! .. اما « البرنس أوف ويلز » فكان يرتدى الملابس المدنية عندما قدم اليها ، وقد مد اليها يده فى شىء من الخجل والحياء ، فانحنت احتراما لمقامه الرفيع ، وقد اشرق وجهها كله بالبشر والسعادة .

وابتسم لها الأمير . وما لبث ان دعاها إلى كاس من الشراب فى « بار » الكازينو الذى كانا فيه .. ولكنها سرعان ما اكتشفت أن ولى عهد بريطانيا لم يكن يشرب سوى .. الماء القراح ! .. وفى كياسة ولباقة ، ردت ماجى كاس الشمبانيا ، دون ان تمسها .. وقال لها الأمير اخيرا فى لطف وادب : « هل ترافقيننى فى نزهة قصيرة ، فى سيارتى ؟ »

وتضرج وجه ماجى ، واتت بحركة تنم عن مقدار الشرف الذى حظيت به إذ وجه لها سمو الأمير هذه الدعوة ! .. ثم ما لبثت ان حركت يديها للتعبير عن سعادتها بهذه « النزهة »

وكان الأمير يقطن على مسافة مائة كيلو متر من ذلك المكان !

وفى اليوم التالى وصلت سيارة خاصة من أفخم السيارات التى كانت معروفة إذ ذاك ، لتنتقل « ماجى » إلى (نورمنديا) . حيث تناولت الغداء مع الأمير فى فندق مشهور .. وبعد ان تناول حديثهما موضوعات مختلفة ، اخذ ولى العهد الشاب يحدثها عن آماله ومشروعاته ، إذ كان من المحتمل ان يغادر باريس — بعد عودته من نورمنديا — إلى لندن ، او إلى جبهة القتال !

وفى إحدى مقابلاتهما الأخيرة ، سجل الأمير عنوان «ماجى» فى مفكرته ، ووعدها بان يكتب اليها ، ثم قبلها مودعا .

يتناول طعامه .. بيد واحدة !

قالت ماجى تستأنف قصتها :

« وكان الأمير يكتب إلى بالفعل ، من آن إلى آخر ، ويدعونى فى خطاباته بمرجريت ، وأحيانا يقول : « يا طفلتى العزيزة ! » — رغم انه كان فى مثل سنى ! — وكان يرفق بخطابه دائما إحدى صوره التى تمثله سواء فى الميدان ، او جالسا إلى المائدة ، أو مرتديا الملابس الرسمية لولى العهد . وارسل مرة يقول إنه قادم إلى باريس ، وانه سينزل فى فندق « ميريس » . وما إن وصل حتى اتصل بى ، ثم حضر إلى منزلى واصطحبنى لتناول العشاء . واخذنا نتردد فى الأيام التالية على المسارح ، ونشهد الحفلات الموسيقية . وكان يصحبنا ياوره « ليدز » .. وكان — فى أحيان أخرى — يفد على منزلى ، ويتناول الشاى مع اصدقائى . وفى إحدى

المرات احضر معه حاكيا (فونوغراف) ، واخـذ يديره ، ثم استدعى « سوزان دانتيس » للرقص معه ، ولكنه كان دائما شديد التحفظ .. كان أميرا بمعنى الكلمة !

« وذات يوم حضر إلى وهو بادى اليأس والحزن ، ولمـا سألته عما به قص على انه نسى فى إحدى سيارات التاكسى علبة سجائره المصنوعة من البلاتين ، وكان والده الملك جورج الخامس قد اهداها إليه فى عيد ميلاده الحادى والعشرين . ولم يفلح البحث ولا الوعد بالمكافاة فى العثـور على العلبـة الثمينة !

« ولما سافر إلى جبهة القتال ، كنت ارسـل إليه الكتب المختلفة وقطع الشكولاته . وكان يرسل إلى من ناحيته بعض تذكارات صـغيرة من الميدان ، كازرار من ملابس الجنـود الألمـان ، أو قطع من اسلحتهم التى يستعملونها فى القتال ، أو خوذاتهم !

« وكان الامير يتكلم الفرنسية بطلاقة ، كاحد ابنائها .. وكان رزينا ، لا يشرب الخمر ، ولا يدخن كثيرا . ولـكنى لم اتمكن من مساعدته على الاقلاع عن عادة لطيفـة كانت من لوازمه : إذ كان كلما جلس إلى مائدة ليتناول طعامه لا يستعمل إلا يدا واحدة .. اما اليد الأخرى فكان يضعها تحت فخذه ! »

« الزواج » الثانى !

وانتهت الحرب ، فانتهت معهـا اشياء كثيرة ، وعادت الحيـاة إلى سيرها الهـادىء ! .. وفى احـد الأيام ، قدم

إلى « ماجى » رجل جميل الشكل اسمه « شارل لوران » ، كان أبوه أحد مؤسسى محلات « اللوفر » المشهورة فى باريس. وتمكنت « ماجى » من ان تستولى على قلب شـارل لوران : كما نال هو اعجابها بمظهره الجدى ، وذكائه وثقافته .. فلم يلبثا ان تزوجـا فى ابريل من عام ١٩١٩ ، واصـبحت ماجى تحمل اسم « مرجريت شارل لوران » .

وسافر الزوجان لقضاء شـهر العسل فى البنـدقية ، فاستأجر « شارل » قصرا يطل على « القنال » ولكنه لم يكن يسمح لزوجته بالاشتراك فى الحفلات والمراقص والمسارح . كما كان يلازمها فى كل خطوة !

وذات مساء ، حاولت أن تغريه على أن يصحبها إلى حفلة كبرى كان مقررا أن تقام فى فندق (الاكسلسيور) ، ولكنـه راح يسفه الفكرة ، قائلا إن « كل الحفلات متماثلة ، ولا تختلف عما يقام فى باريس ! » .. وعادت تمنيه بما فى الذهاب إلى الحفلة من تغيير يبدد سأم الحياة المتواترة الرتيبة التى كانا يعيشانها .. بيد انه أجاب باقتضاب : « لنعد إلى الفندق ! » .. وانصاعت مستسلمة ، ولكنها كانت تطوى الجوانح على ثورة جهدت فى كبتها . وما لبثت ان قالت له أثناء الطـريق : « الا نعـرج على بار دانييللى لنشرب كأسـا ! » .. فقال : « ولكن فى امكاننا ان نشرب ما نريد فى بار الفندق ! » .. فلما الحفت ، قال : « انك تعرفين اننى اكره الجـو الذى يسـود هذه البارات ، لا سيما حين ارى كل هؤلاء الذين يوجهون إليك التحية وقبعاتهم فوق رءوسهم ، وأيديهم فى جيوبهم .. وانت تخجلين من تقديمهم إلى ! »

فاجابته : « انهم ليسوا اهلا لصحبتك يا عزيزى ! .. بل انى لا اكاد اعرف اسماء بعضهم ! »

ــ انك بهذا القول انما تؤيدين كلامى ! فلنعد إذن !

ــ حسنا ، فلنعد !

وسارت الحياة ــ بعد عودتهما إلى باريس ــ على هذا النمط الذى كان يختلف عما الفت مرجريت ! فقد كانت تميـل إلى التردد على ميادين السباق ، وركوب الخيل ، وارتيـاد الملاهى ، وسماع الموسيقى ، والجلوس فى البـارات ! .. وإذ شعر زوجها بعدم ارتياحها إلى حياتها الجديدة ، قال لها ذات يوم : « اسمعى يا ماجى ! اننى لا يمكن ان أوافق على ان تستأنفى الحياة التى كنت تعيشينها قبل الحرب ، ولن اقر هذا الميل منك أو انساق معك إلى مثل هذه الحياة .. فاذا كان الحب يجمع بيننا حقا ، فلتوافقى على مرافقتى »

فسألته فى دهشة : « إلى اين ؟ »

ــ إلى اليابان !

وصاحت وهى تكاد تسقط مغشيا عليها : « اليابان ! » .. فهز رأسه ليؤكد لها ما سمعت ، ثم قال فى هدوء : « لقد فكرت فى هذا المشروع منذ مدة ، وسأسافر فى الشهر القادم ، وسوف تسافرين معى ! »

ولكنها قالت : « بل انى افضل الطلاق على السـفر ! »

وسافر شارل لوران وحده إلى اليابان .. وتم الطلاق !

يجرى جراحة فى انفه ، من اجل حسناء !

وفى اليوم التـالى للطـلاق تلقت ماجى باقة كبيـرة من الزهور ، ارفقت بها بطاقة صغيرة تحمل اسم «استوريكا» ، وكان رجلا من أثرياء (شيلى) جمع ثروته الطائلة من تجـارة سماد بلاده المشهور ، وتألق نجمـه فى الأوساط الراقيـة فى (دوفيل) و (بياريتز) . وكان المليونير المذكور قد عرف بأنفه الطويل ، ثم حدث مرة ان قالت له إحـدى اللاعبات ، وهى ترى ارباحه تتضاعف على مائـدة القمـار : « أتربح أنت ــ صاحب هذا الانف الطويل ــ كل هذه الأموال ؟ » .. فما كان منه إلا ان لجأ إلى احد كبار الجراحين الأخصائيين فى عمليات التجميل ، وطلب منه إجراء جراحة لتعديل شـكل انفه ! .. ولا شك انه من حسن حظه أن الحسناء لم تنتقد طول لسانه او طول يده .. مثلا !

وكان « استوريكا » شديد الرغبة فى ان يكون باريسـيا بكل معانى هذه الكلمة ، ولم يكن يدخر مالا فى هذا السبيل ، ومن ثم وقع بسهولة فى غرام اجمل باريسية كانت تتحدث عنها دوائر المجتمع فى ذلك الحين ، فذهب إلى ماجى غداة طلاقها ، وبادرها قائلا : « لقد حرصت على ان اكون مستقيما ، فلم احاول الاتصال بك قبل طلاقك من زوجك .. والآن ، وقـد اصبحت حرة ، فان المسألة بيننا مسألة حياة او موت ! »

فابتسمت مرجـريت وقـالت له : « حسـنا ! وما هى طلباتك ؟ » .

فأجابها : « ان لى فى شارع هنرى مارتن مسكنا خاصا تحت امرك ، وقد وضعت على بابه الحروف الأولى من اسمك .. فما رايك ؟ » . فهتفت مرجريت مأخوذة : « وهل كنت واثقا من نفسك إلى هذا الحد الكبير يا صديقى ؟ »

.. ولم يحفل بالإجابة عن سؤالها ، بل استطرد قائلا : « ولما كنت أعرف مقدار حبك للجياد ، وانك تميلين دائما للرقم ٧ ، فقد اخترت لك سبعة جياد اصيلة ، سجلت كلها فوزا فى ميادين السباق ، ووضعت على كل منها ايضا الحروف الأولى من أسمك ! »

وإذ بدا عليها الذهول ، ابتسم الرجل وقال لها : « لقد كان الوقت متسعا امامى .. كنت انتظرك بفارغ الصبر ، لأننى احبك ! »

يهوى السمراوات البدينات ، ويتخذ خليلة نحيلة شقراء !

وما كان فى وسع امراة أن تقاوم كل هذه المغريات ، لا سيما وقد مهد « استوريكا » بذلك لمرجريت اسلوب الحياة التى تهواها وتميل اليها ، فهناك اليخت ، ولعب القمار ، وارتياد البارات ، وميادين السباق ، والمراقص والمطاعم المشهورة .. الخ

واستطردت مرجريت تروى قصتها : « وكان الفيكونت « ج . دى ف . » قد انفق على فى شهر واحد أكثر من ثمانية آلاف فرنك ، ولكنه انفقها عبثا ، إذ فضلت عليه استوريكا وتبعته ! .. ولكن هل تبعته وانا واعية ، مدركة لما افعل ؟ .. او اننى تبعته مدفوعة بحبى للمغامرات ؟ .. لقد

أدركت منذ أيامى الأولى مع هذا الرجل اننى احيا حياة الكلاب .. فقد صارحنى بأنه لم يكن يميل إلا للمرأة السمراء الممتلئة الجسم ، فى حين اننى كنت نحيفة شقراء ، بل لقد صارحنى بأنه قد يفرض على من وقت لآخر صحبة نساء من النوع الذى كان يفضله ، مع احتفاظه بالمظاهر التى توحى للناس بأننى خليلته !

« ومع كل ذلك ، فان المشاجرة الأولى التى حدثت بيننا لم تكن راجعة إلى امراة ، وانما كان سببها سمكة ! .. وقد حدثت فى أحدى ضواحى باريس . كنا فى مطعم « دوفان » ، وكان من تقاليد المطعم ان يصيد المرء بنفسه السمك الذى يريد ان يتناوله ، من بركة صغيرة فى المطعم .. فاصطدت فى ذلك اليوم أربع سمكات ، لكننا لم نأكل غير اثنتين منها . فلما قدمت الينا قائمة الحساب ، وجدت انهم احتسبوا ثمن السمكات الأربع التى أصطدتها ، ولم يكن ثمن الواحدة منها يقل عن ٩٠ فرنكا — وهو سعر كان يعتبر باهظا فى عام ١٩٢١ (قبل تخفيض ثمن الفرنك) — فالتفت إلى من كانوا قريبين منا — من رواد المطعم — وقلت مداعبة :

— على اى حال .. لقد كان من حق بيبيه (وهو الاسم الذى كنت اداعب به أستوريكا) أن يدفع ثمن سمكتين فقط لا أربع سمكات !

فصاح بى أستوريكا فجاة : « اخرسى ! .. لا تهتمى إلا بشئونك فقط ، فأنا حر فى دفع ما اريد » . .وكانت هذه اول مرة يخاطبنى فيها بلهجة فظة أمام الناس ، فقلت له بكل

هدوء « يحسن بك يا صديقى ان تكون مهذبا ، ولو امام الناس ! » .. فصاح : « اتتحدثين عن الأدب والتهذيب ؟ .. إذا كنت ادفع ثمن السمك ، فكذلك ادفع لك انت الاخرى ثمنك ! .. إننى ادفع لك ٣٠ الف فرنك فى الشهر .. وعلاوة على ذلك .. »

درس .. بالسوط !

« وقبل ان يتمادى فى حديثه ، امسكت بالسوط الصغير الذى استعمله عندما اركب الجواد ، وانهلت به على وجهه ، فسقط منظاره على الأرض ، وظهر خط احمر طويل على خده ! .. فهب واقفا على قدميه وقد احتقن وجهه ، وصاح قائلا : « إلى بسيارتى ! »

فقلت وانا امسح سوطى بيدى ، كما لو كان سيفا يعاد إلى غمده : « تذكر انك ستقلنى إلى حيث اريد ، لأننى قد صرفت سيارتى ! »

فصاح قائلا : « لا .. لن افعل ! » .. فقلت وانا اقلد لهجته المضحكة فى هذا الموقف : « بل ستفعل ! »

« وكان أصدقاؤنا جميعا قد وقفوا يتفرجون على هذا المنظر العجيب ، دون ان يجرؤ أحدهم على التدخل .. وفى تلك الاثناء كانت سيارته قد استدعيت أمام باب المطعم ، فصعد « استوريكا » اليها وحده ، ثم اقفل الباب وراءه فى حدة وغضب .. وفى اللحظة التى همت السيارة فيها بأن تتحرك ، قلت للسائق : « رامون .. انزل من السيارة ! »

« واطاع السائق امرى فى الحال ، فصعدت إلى مكانه ثم قدت السيارة ، و « استوريكا » فى داخلها يكاد ينفجر غيظا ! .. وبعد ان سرت إلى الأمام مسافة قصيرة ، عدت به إلى باب المطعم حيث كان الناس قد تجمعوا يسألون السائق عما حدث .. فلما راونى اعود ، صفقوا اعجابا وسخرية .. ولكنى لم اقف ، بل اخذت ادور به ثم اعود إلى باب المطعم ، ثلاث مرات .. والناس فى كل مرة يضجون بالضحك والسخرية !

« وفى اليوم التالى خرجنا معا فى نزهة على ظهور الجياد ، وكأن شيئا لم يحدث اطلاقا . ثم شربنا الخمر على نفس المائدة وكان يحيط بنا نفس الأصدقاء !

« هكذا كانت الحياة فى باريس .. فى عام ١٩٢١ » !

إلى مصر .. مع العيون السود !

« واعقبت هذا الحادث عدة مشاجرات من نوعه .. وكثيرا ما كان « استوريكا » يحبس نفسه فى حجرته مصرا على الانتحار ، مما كان يسبب لى ثورات عصبية .. حتى انتهى الأمر بانفصالنا ، فسافرت إلى مصر لأستشفى — كما حدث فى المرة الأولى — إذ كانت مصر تجتذبنى دائما ، كما يجتذب الشقاء ضحاياه !

« وكان فندق (سميراميس) . احد فنادق القاهرة الكبرى ، يماثل اى فندق كبير آخر فى اى عاصمة من عواصم العالم .. مع فارق واحد ، هو انه كان يحفل ويكتظ بعدد كبير من الضباط البريطانيين ، كما كان يتميز بأن المصريين

الذين كانوا يترددون عليه ، كانوا يحرصون على ارتداء الملابس الرسمية ، وعلى وضع الطربوش الأحمر على رءوسهم ! »

وما إن ظهرت « ماجى » فى الفندق ، حتى شرع شاب مصرى وسيم بادى الثراء — تحيط به حاشية من المتطفلين — فى اداء الدور الذى سبقه إليه سلطان باشا فى فندق شبرد فى الزيارة السالفة .. إذ راح يلاحقها بالنظرات ، والابتسامات، والتحيات ! .. وكان « العاشق » الجديد فى هذه المرة شابا، اسود العينين ، سريع الحركة ، تبدو عليه مظاهر السيطرة والنشاط .. وكانت « ماجى » قد تعرفت عليه فى زيارتها السابقة ، إذ قدمه اليها المالى المعروف « المسيو موصيرى »، على أنه يدعى « الامير » فهمى كامل ! .. ورقصا معا فى إحدى ليالى تلك الزيارة الأولى ، ولما أمسك « الأمير » بماجى بين يديه ، بدا عليه شىء من التأثر .. ومع ما ابداه من تلطف ورقة ، إلا ان ذراعه اطبقت على جيدها فى شدة ، وكانه لا يريد أن يفلتها !

وتبعت الرقصة الأولى يومئذ رقصة ثانية ، فثالثة — رغم ان ماجى كانت فى حاجة ماسة للراحة ! — وقد قالت ماجى بعد ذلك لصديقها المالى موصيرى : « يبدو أن صديقك رجل يحب السيطرة يا صاحبى ! »

فقال موصيرى : « نعم .. ولكن يبدو مع هذا انه لايضايقك ! »

— يضايقنى ؟! لا .. انه لا يضايقنى ! بل على العكس .. انه صغير ، وجميل الشكل !

وقالت امراة اخرى كانت تجلس إلى نفس المائدة : « إنه امير .. ويمتلك عدة ملايين من الجنيهات ، لا يعرف أحد رقمها الصحيح ، وان قيل إنها تكاد تبلغ الأربعة او الخمسة ! »

وتظاهرت ماجى بأن الامر لا يهمها . فلما قيل لها : « جدير ان تاخذى الحذر » ، تساءلت : « ومم احترس ؟ » . ولم يشا احد ان يبوح لها باكثر من : « أبحثى بنفسك عن دواعى الحذر ! »

رجل ... « بنج بونج » !

وبدات ماجى تتحرى ، فقيل لها ان صديقها الجديد كان رجلا « بنج بونج ! » .. وما لبثت ان عرفت ان المقصود بذلك انه اعتاد ان يتظاهر بالكرم الحاتمى مع جميع النساء ، فيقدم للمراة التى يتعرف اليها لأول مرة جواهر كريمة وحليا ثمينة ، ولكنه كان لا يلبث بعد ذلك أن يسترد هذه الجواهر والحلى منها ، بطريقة مبتكرة : بأن يسلط عليها خدمه من العبيد السود فيسلبونها اياها !

.. كما قيل لماجى إنه كثيرا ما كان يصحب بعض النساء إلى الصحراء بحجة القيام برحلات جميلة فى ضوء القمر ، او فى غير ضوء القمر .. فاذا انتهت الرحلة الجملية عاد الامير إلى القاهرة وحده ، تاركا المراة على الرمال ، بعد ان يجردها من جواهرها وثيابها ، بمساعدة خدمه !

وذعرت ماجى عندما سمعت هذه القصص ، وبدأت تأخذ حذرها من الشاب ، برغم الهدايا الثمينة التى كان قد بدأ يرسلها اليها ، وبرغم السحر الذى كان يكمن فى عينيه السوداوين ! .. بل وبرغم ان « الأمير » ذهب فى تودده اليها إلى درجة انه نظم حفلة تكريم لها على ظهر يخته ، ووضع على بطاقات الدعوة حرفى « م . م . » اى ماجى ميللر ، ولكن ماجى لم تلب الدعوة ! .. ثم غادرت مصر فى تلك المرة دون ان تودع « الأمير » ، الأمر الذى جعله يتميز غيظا .. فما جرؤت امرأة من قبل على صده بهذا الشكل !

مناورات .. ولقاء فى باريس !

وبينما كانت ماجى تترجل عن جوادها فى (كاتيلان) بباريس — ذات صباح — إذا بها تفاجأ بلقاء «على فهمى بك» بصحبة سكرتيره الأول الصحفى « م.أ. » ، الذى كان يعمل محررا بجريدة الأهرام ! .. وبدأ على فهمى بالتحية ، فردت ماجى تحيته بسرعة ، وابتعدت عنه فى صحبة الفارس الذى كان يرافقها ، وهو البارون « ج . » ، الذى كان قد بدأ يغرم بها إلى درجة الجنون ، حتى انه طلق زوجته من أجلها ، واستأجر حظائر لخيله بالقرب من حظائر خيلها ، واخذ ينتظرها فى كل صباح ليصحبها فى ركوبها إلى الغابة للنزهة ، بالرغم من ان المليونير « استوريكا » كان قد عاد إليها ، واخذ يؤكد لها توبته ، ويعدل من طباعه وعقليته ليرضيها !

وحدث بعد ظهر احد الأيام ان كانت ماجى جالسة فى حجرتها تقرأ كتابا ، حين انبعث رنين جرس التليفون ، وإذا

بالمتحدثة امرأة من اجمل نساء باريس أسمها « مادلين مارتليه » . وكانت على قسط كبير من الحسن ، كما أنها كانت غضة الشباب ، ذات شعر أشقر وجسم بديع . ودعت مادلين « ماجى » إلى الشاى ، فاعتذرت بانهماكها فى قراءة إحدى الروايات . وإذ ذاك قالت مادلين : « إذن تعالى لتشاهدى رواية حية .. فسوف اقدم لك شابا من اجمل الشبان ! »

— شكرا لك .. فقد شهدت روايات حية كثيرة ، كما اننى صادفت كثيرين من الشبان ذوى الجمال !

ولكن « مادلين » الحفت ، وقد حشدت فى الحديث كل ظرفها ولباقتها ، حتى لم تجد « ماجى » بدا من الاستجابة لها . وما إن وصلت ، حتى فوجئت بأن الشاب الجميل لم يكن سوى على فهمى .. وكان معه سكرتيره الذى لا يفارقه .. الصحفى المصرى !

ولم يكن فى باريس — بالطبع — ما يستدعى الحذر من « الأمير » المصرى .. فما كانت هناك صحراء ، ولا خدم سود ! .. وفى اليوم التالى بدأ تقديم الهدايا ، والزهور .. كما استؤنف رقص التانجو !

غير ان « ماجى » لم تلبث ان رحلت إلى (دوفيل) بصحبة « استوريكا » ، ونزل الاثنان فى فندق « نورمندى » ، فاذا على فهمى يصل فى اليوم التالى ، وينزل فى فندق « رويال » . وفى نفس ذلك المساء التقى الاثنان فى الكازينو ، فحيت

« ماجى » المصرى الفاتن ، واسرعت لتلحق باستوريكا فى صالة اللعب !

وأخيرا .. تستسلم لسحر المصرى !

ولندع ماجى تستانف رواية ما حدث بعد ذلك بلسانها :
« وعندما دخلت إلى صالة اللعب فى كازينو (دوفيل) ،اتجهت فى الحال نحو المائدة التى كان يجلس اليها « استوريكا » ، فلما اقتربت منه وجدته يمسك ورق اللعب باحدى يديه ، فى حين انه كان يعبث باليد الأخرى فى ساقى جارة حسناء كانت قد التصقت به ، ورفعت ساقيها فاسندتهما إلى ركبتيه ، وهى تعتقد أنها فى مأمن من الأنظار ! .. وكظمت غيظى ، واقتربت منه وانا اتظاهر باننى لم اكن ارى شيئا مما يحدث ، فلما اطمأن قال لى فى هدوء : « عسى ان تكونى قد ربحت يا شوسوت ! » .. فقلت له بنفس هدوئه : « سوف ترى إذا كنت قد ربحت .. أم خسرت ! »

« وغادرت الكازينو فى الحال فقصدت إلى فندق « نورمندى » ، وقلت لوصيفتى الخاصة : « أعدى الحقائب فى الحال يا « ايميه » ! .. فسننتقل فورا إلى فندق « رويال » . ولم يكن الطريق طويلا بين هذا الفندق والآخر ، فقد كانت المسافة التى تفصل بينهما لا تزيد على مائتى متر . ووجدت فى الفندق الآخر حجرة خالية ..

« وفى صباح اليوم التالى ، عند استيقاظى من النوم ، قدمت لى علبة من البودرة طعمت بالاحجار الكريمة ، كانت

معروضة فى محل « اربل » بمبلغ ٣٥ الف فرنك . وكانت هذه اول هدايا على فهمى ، فى مقرى الجديد ..

ولم ينقض يومان ، حتى كنت قد انزلقت !

« وبدأت بعد ذلك الرحلة السابقة لشهر العسل ! ... لقد نزلنا فى فندق « ماجستيك » فى (باريس) ، و « باليه » فى (بيارتيز) ، وجميع فنادق « ماركيت » الممتازة فى اسبانيا ..

لطيف ولكن ... حذار !

« وكان « على » ساحرا بلطفه .. ولكن جميع أصدقائنا كانوا يقولون لى : « حقا أنه لطيف فى أوروبا .. ولكنك لا تعرفين الشرقيين جيدا ، وهذا الرجل بوجه خاص . إن مبداه الذى يعتنقه هو : « لن تخدعنى امراة ! » .. وكانوا يضيفون قائلين : « إن شئت أن تعرفى ما يفعله ، فاسألى « دالالبانى » !

ــ ولكن ماذا فعل لدالالبانى ؟ .. لعله انجب منها طفلا ؟

ــ لا ! لم يرزق منها بطفل .. ولكنه صحبها إلى محل « بوشيرون » تاجر المجوهرات المشهور ، وجعلها تتخير خاتما ثمينا ذا حجر من الزمرد ، وعدها بأن يرسل اليها فى اليوم التالى ، ولكنه لم يلبث ان استبدل بالحجر الثمين ــ قبل ان يرسله ــ حجرا زائفا .. فى حجمه وشكله تماما !

ــ اوه ! ولكنه لا يمكن أن يفعل ذلك معى !

ــ لعلك تقولين فى نفسك انه غنى ، فما حاجته إلى ان يفعل ذلك ؟ .. والواقع ان ما يفعله ليس إلا نوعا من

« السادية » ، اى التلذذ بتعذيب الآخرين واذلالهم ، وهو لا يريد ان يقع اسيرا فى يد امراة . وقد سبق ان سمعت كذلك انه استرد من جميع النساء الحلى والجواهر الثمينة التى قدمها اليهن !

ـ أوه ! لا ! لا يمكن أن يفعل معى مثل هذا .. إنه يريد ان يتزوجنى ، وقد طلب منى ذلك بالفعل !

ـ هراء ! .. وحتى إذا كان يريد الزواج منك فمعنى هذا انه يريد الانتقام منك !

وتعلق ماجى على هذا الحديث فتقول : « ولكنى كنت دائما أنسب هذه الأحاديث إلى الغيرة التى تشتعل دائما فى قلوب النساء ! .. ومع ذلك فقد رفضت السفر مع « على » عندما آن له ان يعود إلى مصر ، فى شهر اكتوبر .

يستدعيها .. ليراها قبل أن يموت !

وتستطرد مرجريت فى قصتها فتقول : « ولكنى فى الشهر التالى تلقيت من « على » خطابا يدل على مقدار جنونه بحبى ! .. فقد ذكر لى فى هذا الخطاب انه على وشك الموت، ولا بد له من ان يودعنى قبل موته ، كى يؤكد لى انه باق على حبى ، وانه يموت وهو يحبنى حبا طاهرا كذلك الذى يكنه لامه ! .. وانه لولا عاطفته القوية الحارة لما وجد فى نفسه الجراة على ان يكتب إلى ، طالبا منى الحضور إلى مصر ، لادخل على قلبه شيئا من الراحة والسلوى ، ولو لمدة دقائق فقط ، قبل ان يلفظ انفاسه ! .. ثم اختتم « على » خطابه بهذه العبارة المؤثرة : « ولكن هل تحضرين ؟ هل تحضرين

حقا ؟ .. ليتك تعلمين بالاحلام المزعجة التى تنتابنى ! ... ربما تمت المعجزة بعد حضورك ، فشفيت من مرضى ! ... اننى واثق من هذا .. اننى متاكد منه . ولو وصلت إلى منك رسالة برقية تنبئنى بموعد حضورك فاننى سأستمد منها قوة لأنها ستملأ نفسى سعادة .. لا شك اننى ساعيش إلى يوم وصولك .. وسوف تتم المعجزة بعد حضورك ! »

وهنا تنهدت مرجريت ، ثم واصلت رواية قصتها :

« وبعد ! فماذا كانت تريد منى ان اصنع ، لا سيما واننى كنت أعرف مقدار ما لى من سحر على هذا المخلوق الغامض، الجميل ، الفاتن ، الذى ينزع إلى السيطرة ، رغم رقته العظيمة واحساسه المرهف ؟! .. كان أشبه بالنمر الجميل المستكين الذى ينام عند قدمى .. فإذا اراد ان يداعبنى لم يجد غير اظافره ينشبها فى جسمى !

« ومن ثم اسرعت البى الدعوة !

« ووصلت إلى ميناء الإسكندرية ، كان اول شخص رأيته واقفا على رصيفها هو .. على فهمى !

« كان واقفا يبتسم بقامته المديدة الصلبة ، وإلى جانبه باقات من الزهر تغطى الأرض ! .. ولم يكن مصابا بأى مرض ، ولا بزكام بسيط ! .. ولذلك فقد بادر إلى الاعتذار بمجرد نزولى . واضاف انه لم يكتب لى كل ما كتب إلا ليحثنى على الحضور ، وقد فعل ذلك مدفوعا بحبه لى ! .. ثم اخبرنى بأن اسرته وافقت على زواجه منى !

« وكانت هذه اول مفاجاة لى !

« وانحنى أفراد الحاشية جميعا ، وهم وقوف على بعد

خطوات منا . وكان رصيف الميناء مغطى بالزهور ، من سلم الباخرة إلى العربة التى ركبناها !

« وكان « على » مفعما بالسعادة فى ذلك اليوم ، أما أنا فكنت فى شبه ذهول ، مشوب بالسعادة ، وشىء من الخوف ! .. ولما قدم إلى شقيقاته ، هدأت مخاوفى ، لا سيما وقد أخذت كل منهن تبدى اعجابها بى .. وسمعتهن يقلن لى : « كم أنت جميلة ، وظريفة ! .. اننا سعيدات بانضمامك إلى اسرتنا ! .. ولا شك فى ان هدايته إلى سواء السبيل ستكون على يديك ! »

« ووضع « على » منزله كله واملاكه تحت قدمى . وكان يلبى أصغر رغبة من رغباتى فى الحال . وكانت الزهور الجميلة تستبدل فى كل ساعة ، والهدايا تقدم إلى كل صباح ! .. وفى مقابل ذلك كله لم يطلب منى سوى شىء واحد ، وقد طلبه اطاعة لقوانين البلاد ، وحتى لا يحرم من ميراث والديه: كان طلبه هو ان اعتنق الدين الإسلامى ، مع انه كان يعلم اننى قد نشأت وتعلمت فى مدارس الراهبات ! .. وقال لى ، يعزز طلبه : « ان المسألة لا تعدو ان تكون اجراء شكليا » ! .. ثم استطرد يقول : « ويمكنك الاستمرار فى التردد على الكنيسة للصلاة كل يوم احد ، كما كانت عادتك فى الماضى . بل فى وسعك ان تترددى فى اى وقت آخر إذا شئت .. اكثر من الماضى ! »

وفى الفصل التالى ، اقدم لك الفصل الثانى والأخير من هذا الكتاب الشائق عن حياة المرأة التى كانت حديث عواصم العالم الكبرى فى يوم من الأيام !

اعترافات الغانية .. « القاتلة »

مرة أخرى ــ وأخيرة ــ نعوذ معا إلى اعترافات الغانية الفرنسية « مرجريت فهمى » ، كما أملتها على الكاتب الفرنسى « ميشيل جورج ميشيل » . ولقد روت لنا مرجريت فى الجزء الأول من هذا الكتاب النادر ــ وهو الجزء الذى نشر فى الفصل السابق ــ كيف بدأت حياتها العابثة ، متنقلة بين العشاق ، وكيف أنها اخفقت فى الزواج مرتين ، لأن تصرفاتها المبتذلة كانت تجعل كلا من الزوجين يرتاب فى مسلكها ووفائها للزوجية ، فيشدد عليها الرقابة ، ويحاول أن يكبح جماح استهتارها ! .. ولقد كانت « مرجريت » ــ أو « ماجى » كما كان يطلق عليها عشاقها ــ جريئة فى اعترافاتها عن هذه الفترة من حياتها .. جريئة إلى الحد الذى يكشف فجورها سافرا . ولكنها لم تكد تبدأ حديثها عن تعرفها بالشباب المصرى الثرى ، المرحوم على فهمى كامل ، وزواجها منه ، حتى انقلبت متحفظة فى كل ما يتعلق بمسلكها ، متحاملة فى كل ما يتعلق بمسلك زوجها ، تحاول جاهدة أن تصمه بأبشع الوصمات .

وهو شىء لا يستغرب من غانية باريسية ، ومن قاتلة كان انقاذ عنقها من حبل المشنقة معجزة من معجزات « مارشال هول » .. وقد سبق أن قدمت لك فى الفصل الأسبق تفصيلا محاكمتها كما وردت فى سيرة هذا المحامى الإنجليزى الأشهر ، الذى خلد اسمه فى تاريخ القضاء الجنائى .

من « ماجى ميللر » إلى .. « منيرة هانم » !

كان لا بد لماجى ميللر ، كى تعتنق الدين الإسلامى ، من أن تخرج على الدين المسيحى . وقابلت أحد القساوسة الكاثوليك ــ ويدعى الأب ماريشال ــ لهذا الغرض ، فحاول أن يثنيها عن عزمها، إلا أنها ردت عليهقائلة : «ليس فى وسعى أن أهرب من هذه الخطوة يا أبى .. ومع ذلك لا يمكن أن أنسى دينى الأصلى الذى نشأت فى أحضانه . وقد سعيت اليك لتساعدنى على أن اجتاز تلك المحنة » ...

ــ ولكن يا ابنتى ...

ــ ثق اننى مضطرة إلى **ذلك اضطرارا !**

وتم اعتناق ماجى للاسلام فى المحكمة الشرعية .. على أن الأب ماريشال قابلها وهى فى طريقها إلى المحكمة ــ قبل أن تخطو الخطوة الأخيرة ــ وقال لها محاولا نصحها : « يا ابنتى .. فكرى لآخر مرة فى دينك ! » .. فأجابته قائلة : «أرجوك

يا ابى .. انك تؤلمنى ! وخاصة انك تعلم اننى نشأت فى مدارس الراهبات ! .. اننى أحب خطيبى ، ويجب ان احترم مصالحه ، إذ انه سوف يحرم من ميراثه إذا تزوج من مسيحية . على انى ارجو ان تسمح لى بان اقدم خمسين جنيها مساهمة منى فى اعمالك الخيرية ! »

وأدرك الأب ماريشال أن لا فائدة ترجى من مواصلة السعى ، فأعطاها كتابا من كتب الصلاة ، ثم ابتعد عنها ، بينما واصلت هى طريقها فدلفت إلى قاعة المحكمة ، وقد غطت وجهها بنقاب ، ثم تقدمت من القضاة الشيوخ وأحنت راسها قبل أن تنطق بالشهادتين : « أشهد أن لا اله الا الله .. وان محمدا رسول الله » وقد نطقت ماجى بالشهادتين بعد ان كتبتهما على ورقة بحروف فرنسية وحفظتهما عن ظهر قلب ! واعلن عقب ذلك ان اسمها قد أصبح « منيرة هانم » .. وهو اسم والدة على !

وبعد أن تمت هذه الإجراءات انسحبت ماجى ومعها شقيقات على ، اللاتى اخذنها إلى .. « الحريم » !

٢٠ مليون فرنك .. قيمة أثاث منزل الزوجية !

ومنذ ذلك اليوم ، امتنع على عن التردد على الحفلات الصاخبة ، واقتصر على مشاهدة حفلات الأوبرا ، والجلوس فى إحدى المقصورات « المحجبة » ، التى يصعب على النظارة رؤية الجالسين والجالسات فيها !

و « حددت » إقامة « منيرة هانم » فى الحرملك الذى كان يحرسه « باش اغا » ، عليه أن يلازمها كلما خرجت . اما

« الامير » فكان فى وسعه أن يذهب اينما شاء . وفى اى وقت، وان يجلس فى اى مكان مع اصدقائه المقربين ، وكذلك امتنع الخروج معا ، والتردد على الفنادق ، والرقص معا . واقتصر تناول الشاى على اشتراك شقيقات على والباش اغا . وفى بعض الأحيان ، كان أهل المنزل يستقبلون بعض الزوار من الاسرات السورية او الأرمنية او القبطية . الا ان كل ذلك لم يمنع من استمرار تقديم الهدايا الثمينة إلى الزوجة المرتقبة !

وتقول ماجى فى مذكراتها : « وهكذا لم يكن هناك اى اتصال بين المراة المصرية وبين الخارج ، كما كان على الزوجة ان توطد صداقتها بالباش اغا وإلا ساءت علاقة الزوجين بسببه ! » .

وكان لابد من ان يعقدالزواج فى منزل محايد ، ولذلك فقد اقيم فى مقر الدائرة . وقد تولى العقد ثلاثة من الشيوخ ، قدمت إلى كل منهم ساعة ذهبية قبل بدء الاحتفال . وتقدمت اليهم ماجى بمفردها ، وقد اسدلت على وجهها نقابا كثيفا . وهى تروى ما حدث فى تلك اللحظات بقولها : « لا .. لم اكن هازلة ! فقد سئلت إذا كنت قد تسلمت صداقى — وهو ثمانية آلاف جنيه كانت قيمتها تبلغ وقتئذ نحو مليون فرنك ! — فقلت : « نعم .. تسلمته ! » .. وتذكرت فى تلك اللحظة اننى سأفقد معاشى من شارل لوران زوجى الثانى ، وقيمته ٣٦ الف فرنك . نعم ، لقد اجبت بالايجاب ، ولكن الواقع كان يخالف ذلك . إذ كنت قد حصلت — فقط ! — على أقرار من خطيبى ، بانه سيدفع لى قيمة صداقى فى اوائل العام المقبل ، اى فى سنة ١٩٢٣ ، عندما يحصل على إيراد القطن ! » .

ثم تليت نصوص العقد .. بالعربية اولا ، وبعد ذلك بالفرنسية . وكان على قد منحنى فى بداية الأمر حق الطلاق ، ولكنى لاحظت أنه اغفل ذلك فى العقد الرسمى الذى تلى على. وهكذا اصبحت سجينة مدى الحياة . إلا ان هذا كله لم يكن يهمنى فى ذلك الوقت . ثم او ليس ذلك دليلا على حبه العظيم لى ، إذ يريد ان يحتفظ بى مدى الحياة ؟ ! ومع ذلك ، فهل كان من الممكن ان اناقشه الحساب ، وأنا وسط اسرته ، وبعد ان غير ديانتى ؟ !

وفى ليلة ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٢٢ ، تم الزفاف ، فى قصر الرخام الوردى المطل على النيل .. وهو قصر اقيم على طراز عصر النهضة ، وكان يعتبر من اجمل قصور القاهرة . اما الأثاث فلم يكن هناك ما هو أبدع منه : كانت حجرة النوم التى خصصت لنا هى الحجرة التى كان يقتنيها ملك الصرب ، وادوات غرفة المائدة كلها من الفضة الخالصة ، وقد تكلفت ٤٥٠ الف فرنك ، والمفروشات مصنوعة فى (فينسيا) .. الخ. وكان الأثاث كله يقدر — على الأقل — بمبلغ عشرين مليونا من الفرنكات . ولا يمكن أن تكون فتاة تنتمى إلى الطبقة الوسطى التى أنتمى إليها قد وصلت إلى هذا الذى وصلت إليه !

صفعتان .. قبل رحلة شهر العسل !

على أن المنظر سرعان ما تغير كله .. ومنذ ليلة الزواج الأولى ! .. فان «على» الذى كان يقطر رقة وعذوبة وعطفا ، فى ليالى فنادق رويال وماجستيك واسبانيا ، انقلب فجاة ! .. ولم تعد ماجى — أو بالأحرى « منيرة هانم » — بالنسبة له

إلا « شيئا » من الأشياء التى يملكها . وكان لا بد من ان يجعلها تشعر بذلك .. فهو يمسك بذراعها ، ويلقى بها على الفراش، فتصيح به :

— على .. على .. ماذا اصابك ؟ .. هل هو الاحتفال الذى اثار أعصابك ؟ لا تكن وحشا قاسيا !

ولكنه يرد عليها قائلا : « وحشا قاسيا ! .. هل بلغت بك الجرأة حد انتقاد تصرفاتى الخاصة ؟! » .

وتحاول ماجى ان تقاوم .. ولكن ، من اين لها القوة على ذلك ؟ ! .. ويقبض عليها بيدين حديديتين ، ثم يتركها وعلى فمه ابتسامة المنتصر ، المعتز بقوته !

وفى صباح اليوم التالى تغادر العروس مخدعها إلى حجرة الاستقبال ، فيقع نظرها على زوجها ، وقد احاط به جميع سكرتيريه وخدمه . وتظن ان زوجها يريد ان يستقبلها بهذه المظاهرة ، حتى يشعرها بانها سيدة المنزل ، فتتقدم إليه باسمة الثغر .. ولكنه يهجم عليها فجاة ، ويصفعها بظهر يده على وجهها من الناحيتين ، امام جميع موظفيه وخدمه ، وهو يصيح فيها : « هذا يعلمك اننى السيد هنا .. فارجعى إلى حجرتك حالا ! » .. وينظر إلى معاونيه قائلا : « لتوضع حجرتها تحت الحراسة ، ولتمنع من استعمال التليفون ، أو الاقتراب من النافذة ! » .

وهكذا عادت ماجى إلى حجرتها ، ذليلة ، مهيضة ، فاسدلت الستائر الحريرية على النوافذ ، وقضت يومين فى

البكاء والنحيب . وفى اليوم الثالث ، دخلت عليها شقيقتا على .
وربتت احداهما ظهر ماجى بيدها ، وهى تقول : « انه لا يزال
صغير السن .. والذى يشفع له أنه يحبك ! » .

وما لبث على ان دلف إلى الحجرة ، فأخذها بين ذراعيه،
ثم حملها بنفسه إلى اليخت الذى كان راسيا بجانب القصر ،
وقد اعد لرحلة شهر العسل التى كان مقررا أن يقضياها فى
الاقصر . وشعرت ماجى بشىء من الاطمئنان بعد حضور
شقيقتى زوجها ، كما أن اليخت كان فاخرا ، يعمل عليه ٢٥
بحارا . وكان على فهمى هو المصرى الوحيد الذى يملك مثل
هذا اليخت الفاخر ، المتأهب دائما للاقلاع إلى اية جهة يحددها
صاحبه !

وقبل ان يقلع اليخت بوقت قصير ، قدم على لزوجته
دبوسا ماسيا فاخرا ، كان عبارة عن ماسة كبيرة تمثل
الشمس ، ومن حولها ماسات صغيرة تتناثر منها الاشعة .
وتقول ماجى فى هذا الصدد : « .. وكانوا قد حدثونى من قبل
عن هذه الحلية الرائعة ، وقالوا لى إنه أهداها إلى ثلاث نساء
ثم استرجعها منهن بأساليبه الخاصة . وها هو ذا الآن يهديها
إلى انا .. هدية من زوج إلى زوجته الشرعية ! » .

« استكشاف العجائب » .. على ضفاف النيل !

وسافرنا إلى الأقصر .. واستغرقت الرحلة من القاهرة
إلى وادى الفراعنة احد عشر يوما . ومنذ مساء اليوم الأول ،
اخذ زوجى يسلى نفسه بلعبة خطرة تكررت كثيرا طوال
الطريق . كنت قد استلقيت فى مؤخرة اليخت وشرعت فى

القراءة ، حين سمعت فجأة صوت فرقعة بجانبى . ورفعت
بصرى ، فاذا على امامى .. وجها لوجه ، وهو ممسك
بمسدسه ، وقد صوبه نحوى . وانطلقت رصاصة ثانية ،
فاصطكت أسنانى رعبا .. ولكنه لم يحفل ، بل استمر يطلق
الرصاص وهو يقول : « تحركى كما تريدين ، فانا أعرف جيدا
اين ينطلق رصاصى ! »

« وحدث ان القى اليخت مرساه امام إحدى القرى ، بعد
ذلك بساعات ، فتجمع اهل القرية بآلاتهم الموسيقية ، واخذوا
يرقصون ويغنون . وقد كان منظرا رائعا ، سلب لبى واطرب
نفسى . الا ان على ما لبث ان نزل إلى القرية برفقة سكرتيره،
وذلك بحجة « استكشاف عجائب القرية ! » . وقد علمت فيما
بعد المقصود بهذه العجائب !

« وبقيت تلك الليلة وحيدة على ظهر اليخت ، كما بقيت
ليالى اخرى كثيرة ، فى حين كان على ينزل إلى القرى التى كنا
نمر بها ، يصحبه سكرتيره عنانى وباقى افراد بطانته .
« لاستكشاف العجائب » !

« وحدث فى اليوم الثامن — بعد أن مررنا بأسيوط — ان
قاربا تابعا لشركة « كوك » مر بجانب اليخت ومسه مسا
خفيفا ، فهب على ببيجامته السوداء ، واخذ ينفخ فى صفارة
ذهبية تحليها الأحجار الكريمة ، مصدرا أوامره لاعداد قاربه
البخارى الصغير . وسرعان ما استقله ، وشرع فى مطاردة
قارب « كوك » حتى أدركه ، فصعد إليه ومعه بعض رجاله .
وعاد بعد قليل وهو يسوق أمامه رجلا طاعنا فى السن — لا يقل

عمره عن سبعين سنة ـ كان هو المسئول عن قارب «كوك».
ثم اتجه الجميع إلى الشاطىء ، وهناك أمر على الرجل بأن يجثو على ركبتيه ، ثم اخذ ينهال عليه بسوطه ! .. وما لبثوا أن تركوا الرجل وعادوا جميعا إلى اليخت . وحين وصل على ، لم أتمكن من منع نفسى من الصياح فى وجهه ، معبرة عن اشمئزازى من هذا العمل الوحشى الفظيع ! .. ورأيت عينيه وقد احمرتا ، ثم رفع سوطه وهوى به على ، وهو يصيح : « لقد استولى الرعب على ذلك الرجل حتى انه ... وسيحدث لك مثل ما حدث له ! » .. ثم انهالت الضربات على ظهرى وذراعى أمام رجاله وخدمه . وبعد ذلك القى بى فى قمرتى ، وحرم على اغلاقها أو الخروج منها أو استدعاء رجاله !

« وكنت ـ لحسن الحظ ـ قد احتفظت بوصيفتى الفرنسية الخاصة ، فقمت بكتابة كلمة إلى محامى قلت له فيها : « سيدى الأستاذ .. أننى حبيسة سجينة ، فأرجو انقاذى ! » .. ثم أعطيت الرسالة اليها وقلت لها : « أرجو أن تخفى هذه الرسالة فى صدرك ، وعندما نصل إلى الأقصر سلميها لأحد الأجانب ليتولى ارسالها إلى المحامى ! » .

.. فى وادى الملوك !

« ولما وصلت الباخرة إلى الأقصر ، نزل على إلى قمرتى ، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة خبيثة . وكنت على وشك الجنون ، فقال : « هيا يا عزيزتى .. ان ما حدث ليس إلا مشاجرة « حبية » ! .. واننى لآسف إذا كنت قد سببت لك بعض الألم . وقد أمرت باقامة حفلة كبيرة تكريما لك ، فأرجو

أن تتجملى ، لأننى قد دعوت الجنرال مكسويل ولورد كارنارفون الذى دعانا إلى حفل افتتاح مقبرة توت عنخ آمون ! » .

« ولم أكن بلهاء ! .. فان هذه الحفلة لم تكن لى ، وإنما كان كل ما اشتهاه ، هو أن تقف زوجته الجميلة إلى جانبه فى حضور هؤلاء القوم ! .. وقلت فى نفسى : « انك يا عزيزى فى حاجة إلى .. وسوف أنالك ! » .

« سوف أنالك .. سوف أنالك ! » .. كان كل منا يردد هذه الكلمة فى أعماق نفسه .. بل إن اللعبة قد أصبحت عادية !

« وفى مساء ذلك اليوم ، كنت أقف بجانبه ، كاملة الزينة ، فاتنة الجمال . وتكرر المنظر فى الأيام التالية ، ونحن نتناول العشاء فى فندق « ونتر بالاس » ، وفى وادى الملوك ! .. وأحسست بأن « الأمير » فخور بى ، فبدأت استعيد شجاعتى ..

« وكان زوجى هو الذى يدفع نفقات الاحتفال . وليس فى وسع إنسان أن يتصور مدى ما فى تناول العشاء فى وادى الملوك من روعة وبهاء .. فقد نزل بحارة اليخت مرتدين ملابسهم الرسمية البنفسجية اللون ، وطرابيشهم الحمراء . وقدمت الخراف المشوية الكاملة فى صوان كبيرة من الفضة الخالصة كان « على » قد اشتراها بأكثر من ٤٠٠ الف فرنك . ووقف الزنوج من حولنا وهم يحملون المشاعل ، فضلا عن مولد كهربائى خاص استحضر خصيصا لهذه المناسبة . وغنى الثنائى الإيطالى بيكالوجا غناء بديعا جدا . وعلى مقربة منا ، كنت ترى الجمال والحمير والعربات ، وهى تكون دائرة حولنا ..

« وشهدت افتتاح مقبرة توت عنخ آمون ، كما زرت قبور الملوك الآخرين . وقد علمت أن مكاريا — مؤجر الحمير — اسمه على هو الآخر ، هو الذى عثر على باب مقبرة توت عنخ آمون ، فارشد إليه مصورا اجنبيا بسيطا ، انعم عليه فيما بعد بلقب لورد ، وصار اسمه لورد كارتر ! .. اما المكارى فقد كان كل ما خرج به هو مبلغ ثمانية جنيهات لاغير !

« وفى خلال هذه الحفلات ، كنت اغنى المقطوعات الشهيرة التى احفظها . وكان على ينظر إلى بحب ووله .. وربما كان هذا للمرة الأخيرة ، فان المرء لا يدرى شيئا عن مستقبله مع هذا الرجل !

يصورها فى تابوت فرعونى !

« وعندما وصلنا إلى اسوان ، طلب منى على ان انام فى تابوت كبير يرجع إلى عهد الفراعنة ، رغم ما فى هذا العمل من فال سيىء . فلما استلقيت فى التابوت ، التقط لى عدة صور وانا فى هذا الوضع ، بعد ان طلب منى ان اغلق عينى وامتنع عن كل حركة !

« وعدنا بعد ذلك إلى القاهرة . ولم يحدث ما يستحق الذكر خلال رحلة العودة اللهم إلا بضع مشاجرات كان زوجى يحبسنى على اثرها فى قمرتى . وكانت هذه المشاجرات تتكرر كلما لمته على لياليه التى كان يقضيها فى القرى الواقعة على ضفاف النيل . وكان على ياكل فى مثل هذه الليالى « الفول المدمس » فى الازقة والحوارى ، فى حين أن سكرتيره العزيز عنانى كان ياكل الدجاج ! .. وكان عنانى هذا قبيح

الشكل ، اصفر اللون ذا شعر اسود كثيف ، تملأ البثور بشرته ومع ذلك ، فقد كانت ثورة على بالغة ، فى ليلة لم يعد فيها عنانى إلى اليخت . وكان جواسيس على قد اخبروه بانه اتصل بأحد الأشخاص فى تلك الليلة !! ووقف على ينتظر سكرتيره على ظهر اليخت حتى الساعة السادسة صباحا . ولما عاد عنانى ، نشبت بينهما مشاجرة عنيفة من النوع الذى كان يحدث بينى وبين على . وانتهت المشاجرة بطرد عنانى من خدمة سيده . وعقب ذلك مباشرة ، ارتمى زوجى فى احضانى وهو يصيح فى يأس واسى : « هيا بنا إلى باريس .. إلى باريس ! » .

الفانية الفرنسية تعض اصبع زوجها !

اخيرا ، وجدت نفسى فى باريس .. بلدى الذى كنت قد يئست من العودة إليه ، بعد ان ارتبطت بمصر بقيود كانت كفيلة بان تشدنى إليها مدى الحياة .. وحيث كنت اعيش بلا صديق ، ولا نقود ، ولا ايراد ، ولا صداق ! .. دون نقود ؟ .. واين النقود التى نص عقد الزواج على ان يدفعها زوجى إلى كصداق ؟ ! .. لقد قال لى على عندما طالبته بذلك المبلغ : « انك لست فى حاجة إلى المال ما دمت معى ، وما دمت اقدم لك كل ما تشتهين . أما عن صداقك ، فاننى احفظه لك . ولا شك انك تطمئنين إلى وجوده عندى اكثر من بقائه لديك ! »

« ثم انه كان قد طرد وصيفتى الفرنسية ، عندما علم انها هى التى أرسلت خطابى إلى محامى من الأقصر . وبذلك تركنى

وحيدة مع هؤلاء الخــدم الســود الذين كانــوا لا يفهموننى ولا افهمهم !

« وكان إذا ضربنى لا اجرؤ على لمسه .. انا التى ضربت استوريكا المسكين بالسوط ! .. وقــد حدث فى يــوم ما أن عضضت فهمى فى اصبعه ، فلم يكتف ــ مقــابل ذلك ــ بأن يتركنى ملقاة على الأرض وانا اكاد افارق الحياة ، بل حبسنى فى حجرتى ١٨ يوما ، وتركنى بلا طعام لمدة يومين !

« ولذلك كانت باريس بالنســبة لى هى الفردوس .. هى الحرية .. هى الانتقام ! » .

صفعة فى باريس .. يعقبها الرحيل إلى لندن !

ولكن ، لم يكن الأمر بالسهولة التى تصورتها . فقــد منعنى من الاتصــال تليفونيــا بأحد ، كمــا وضع رقابة على المحادثات الخارجية التى كنت اتلقاها . ولم يكن فى وسعى أن اتناول وجباتى فى مطعم الفندق ، إذ فرض على تناول الطعام فى حجرتى الخاصة . أما هو ، فكان يتناول طعامه فى المطعم الفخم ، يحيط به أصدقاؤه . وكان يحدث فى بعض الأحيان أن يدعونى إلى الغداء أو العشاء على مائدته الحافلة الكبيرة ، فكنت اجد نفسى اشــبه بالاسيرة ، إذ كان أصدقاؤه يحيطون بى من كل ناحية ــ ومن بينهم عنانى الذى كان قــد عاد إلى خدمة زوجى ! ــ وكان على ، فى مثل هذه الأوقات ، ان اغض بصرى وأن لا أوجه نظراتى إلى احد !

« وفى ذات ليلة ، كنا فى مطعم « سيرو » المشهور ، حيث تكرم باصطحابى بعد طول الحــاح منى . وحدث أن مر أمام

مائدتنا صديق قديم لى ، فلما رآنى تقدم محييا ، فلم يكن من على الا أن هب واقفا وصفعنى على وجهى امام الجميع ! .. وابدى الجالسون معنا على المائدة دهشتهم لمثل هذا التصرف ، فقلت لهم بكل هدوء : « أوه .. ان هذا شىء بسيط ! » .

« وغادرت مكانى على الفــور ، فوقف أحد ســكرتيريه مستعدا لمرافقتى إلى الفندق ، حتى لا اعود . وفى اليوم التالى ، اعلن على اننا سنسافر إلى لندن . فلماذا لندن بالذات ؟ .. السبب اننا كنا يومئذ فى ٣٠ يونيو .. وكان من اسباب العظمة والوجاهة ان يتوافد الأغنيــاء على لندن ، فى هــذا الوقت من العام !

« وسافرنا إلى لندن : انا وهو ، وشقيقته وزوجهــا ، واثنان من الســكرتيرين ، وسائقو الســيارات ، وخــدمه الخصوصيون ، وخادمتى الخاصة . فلماذا رافقته إلى لندن ؟ .. ولماذا لم اصر على البقاء فى باريس ، موطنى وموطن اهلى واصدقائى ؟ .. السبب فى الواقع يرجع إلى انه لم يكن معى قرش واحد ، او قطعة حلى واحدة . فقــد كان زوجى يحتفظ عنده بكل شىء . بدعــوى أن أموالى وثروتى ملكه ، كمــا أن أمواله وثروته ملكى ، وأن خزانته كانت اكثر امنا من حقيبتى الصغيرة ..

« وفى لندن ، نزلنا فى فندق «سافوى» . واستمرت الحياة فى العاصمة الإنجليزية على نسق الحياة فى باريس : حفلات ، ومشاجرات . وهناك ، فى لندن ، وقع الحادث الأكبر ! »

الحادث الأول .. فى لندن !

ولأترك هنا الكلمة لصحيفة محايدة حتى تقص على القراء ما وقع فى الأيام الأولى من زيارته للندن . وهاك ما ذكرته بالحرف الواحد :

« فى ذات ليلة خرجت مرجريت مع على وعنانى من احدى دور اللهو ، وكان أحد النشالين يتبعهم ، فتظاهر بأنه يفسح لهم الطريق اثناء مرورهم ، ثم ارتمى على حقيبة اليد التى كانت تمسك بها مرجريت ، وتعلق بها . وكانت الحقيبة محلاة ببعض الأحجار الكريمة . ولما كان الطريق خاليا من المارة ، فقد استولى الذعر على « على فهمى » ، رغم قسوته، إذ اعتقد ان الرجل ينوى الاعتداء على حياتهم ، والاستيلاء على ما معهم ، ومن ثم قال له :

ـــ خذ ما تشاء .. فقط دعنا وشأننا !

« إلا أن عنانى لم يقبل ذلك الحل ، فما لبث أن أوقعه على الأرض بحركة مفاجئة سريعة . واشتبك الاثنان فى معركة حامية . على أن البوليس سرعان ما اقبل فقبض على اللص ، وانقذ حقيبة يد السيدة .

وعاد الجميع إلى الفندق ، وقد تملكهم الفرح والابتهاج ، فاحتفلوا بنجاتهم من يد اللص . واخذ على ومرجريت يرسلان النكات ويداعبان عنانى بسبب أنفه الذى تورم بعد المعركة . ثم اخذ الجميع فى الرقص . وحدث فى أثناء الرقص ان سقط منديل مرجريت ، فالتقطه شاب من الراقصين وقدمه إليها .

وكان على قد استعاد شجاعته ورباطة جاشه ، بعد حادث المساء ، فرفع يده وصفع الشاب على وجهه ، بدلا من ان يشكره . ويبدو أن عوامل الغيرة تحركت فى صدره ، إذ ظن ان الشاب يحاول مغازلة زوجته .

وانتقدت مرجريت مسلك زوجها ، فاتجه إليها وصاح فيها :

ـــ اظنك تحسبين اننى من المغفلين ! .. وكأننى لم ادرك انك انت التى رميت منديلك على الأرض ليقدمه إليك الشاب !

على أن مرجريت تمكنت فى النهاية من اقناع زوجها ببراءتها ، فهدأت أعصابه . ثم ذهب الاثنان إلى مكان لم يكن يليق بهما ارتياده ! » .

يطلب منها شيئا معينا .. فترفض !

وحدث فى تلك الليلة ـــ بعد عودتهما إلى الفندق ـــ أن تقدم على من مرجريت طالبا منها شيئا معينا ، فرفضت وهى تصيح فيه :

ـــ دعنى وشأنى ! .. انا لست عنانى ! .. لا ! لا ! لا يمكن أن اقبل هذا الوضع مطلقا !

فلقد كان على «عاشقا عنيفا» ، اتهمه اعداؤه بالسادية . وإذا كان فى هذه الكلمة بعض المبالغة ، فلنقل إنه كان عاشقا قاسيا ! وقد قالت مرجريت فى هذا الصدد : « كم من مرة ، ونحن فى حجرتنا ، أنهال زوجى على ضربا ، ثم احتضننى وقبلنى فى النهاية ، والدموع تنساب على وجهى . كان يجد فى ذلك لذة كبيرة . وفى احيان اخرى ، كان يغازلنى ويداعبنى

لفترة طويلة ، حتى إذا ما اهاج مشاعرى ، تركنى وانصرف !
. . كذلك كان يحدث — ونحن نتنزه فى باخرة او سيرا على
الأقدام — ان يشير إلى بيده اشارة خاصة ، فكان على ان
اتبعه فى مثل هذه الحال على الفور . كنت افهم معنى هذه
الاشارة جيدا ! وكان على ان اتبعه إلى اى مكان ، سواء اكان
كهفا أو ممرا مظلما او مخزنا للحبوب ! بل إن الأمر وقع فى
مطبخ منزلنا ، ذات مرة ، فى الوقت الذى كانت حجرتنا الملكية
الفاخرة تنتظرنا ! . . ولكن على كان يريد بى شيئا آخر فى تلك
الليلة . وقد اعترضت ، وحاولت ان اقاوم . . إلا انه امسكنى
بذراعيه الحديديتين ، ونال ما كان يريده منى ، رغم صيحاتى
العالية . وقد اغمى على من فرط الالم ، إلا ان ذلك لم يجعله
يتوقف ! » .

وفى اليوم التالى ، استدعت مرجريت طبيبها — الدكتور
جوردون — الذى اوصاها بضرورة إجراء جراحة ، بعد ان
لاحظ وجود عدة جروح فى مكان حساس من جسمها ، وخشى
ان تتطور وتترك آثارا سيئة .

وعاد الطبيب إلى عيادته ، ثم ارسل إليها اثنين من
الجراحين لتستشيرهما . إلا ان على هز كتفيه ورفض ان
يقابلهما او ان يدفع لهما اجرهما ! . . وقد ايد الجراحان راى
جوردون ، ووافقا على ضرورة إجراء جراحة عاجلة لها ،
فقررت ماجى ان من الأفضل إجراء الجراحة فى باريس ،وكتبت
تحجز حجرة فى مستشفى بشارع بتشينى ، كما ان وصيفتها
الخاصة قامت بارسال حقائبها إلى المحطة استعدادا للرحيل .

وما كاد على يشعر بذلك ، حتى عاد إلى سياسة اللين .
وقال يحدث مرجريت فى ذلك المساء :
— يا عزيزتى المسكينة ! لو كنت أعلم أن هذا العبث
الصبيانى سيؤدى إلى نتائج كهذه ، ما اقدمت عليه ! . . اننى
اود ان أصلح خطئى ، ولذلك فقد حجزت مقصورة فى أحد
المسارح لمشاهدة « الأرملة الطروب » . . فاذا كان فى وسعك
النزول ، فسوف نشاهد المسرحية ثم نتناول العشاء معا !

تهديد بالقتل . . أم دعابة ؟ !

وتروى مرجريت ما حدث بعد ذلك ، فتقول : « لما كنت
قد حرمت من المسرح مدة طويلة ، فاننى وافقت على الذهاب،
رغم ما كنت أشعر به من آلام ، ورغم ما كان يتطلبه ذلك من
مجهود . . بل وتضحية ! ولما عدنا إلى الفندق ، دعانى على
إلى تناول العشاء فى المطعم الكبير . وكنت ارتدى فى ذلك
المساء ثوبا غاليا تحليه اللآلىء الصغيرة . وكان هذا الثوب قد
تكلف ثمانية آلاف فرنك ! . . فما كدنا ندخل ، حتىاتجهت الينا
انظار الجميع . وتاه على زهوا وفخرا ! . . ثم ما لبث أن
قال لى :
— هيا لنرقص !
فقلت له : « لا تفكر فى شىء من هذا . . فاننى لا اكاد
أقوى على الجلوس فوق مقعدى » . . فأجابنى قائلا :
— كيف امكنك إذن مشاهدة التمثيل ؟ . . دعينى أقول
لك ما ياتى : انك إذا غادرت لندن، بل إذا غادرت هذا الفندق،
فانك لن تغادريه وأنت حية !

« وكان يتحدث ، وهو يقول هذا ، بكل هدوء ، وقــد تجلى العزم الأكيد واضحا فى عينيه . وفى تلك اللحظة ، اقبل رئيس الجوقة الموسيقية إلى مائدتنا ، وقال :

ــ سيدتى الأميرة .. اى لحن تفضــلين ســماعه حتى يمكننا ان ندخل البهجة إلى نفسيكما ؟

فقلت له وأنا ارتعش :

ــ أوه ! لا .. لا داعى لكل هذا .. فان زوجى قال لى الآن انه ينوى أن يقتلنى !

فاجاب الرجل فى أدب :

ــ لا شك أن سمو الأمير لا يقصد بهذا غير الدعابة !

« وهنا قال على بصوت متزن : « لا ! » .. فأخذت فى البكاء ثم هرولت إلى غرفتى يتبعنى عنانى . وسرعان ما اقفل على واخذ يطرق الباب ، فلم أرد عليه . واخــذ يهددنى بأنه سوف يحدث فضيحة كبيرة فى الفندق ، إذا لم افتح له .. فلم اعر تهديده اهتماما ، بل جلست إلى مكتبى ، ووقعت شــيكا لأمر الدكتور جوردون بقيمة اتعابه ، ثم ارفقت به الــكلمة التالية « أن زوجى لا يريد ان يتحمل تبعة الجراحة ، وأمام نيته هذه تجدنى جد آسفة ... الخ . » ! » .

جريمة قتل .. وسط العاصفة !

وفى تلك اللحظة ، انفجرت فوق لندن عاصفة شديدة . واخذت السماء ترعد وتبرق ، والطــرقات على بابى تزداد شدة وعنفا . ولم اجد فى النهاية مندوحة من فتحه ، فانطلق على داخلا كالوحش الكاسر . واخذ يتلفت حواليه ، ثم سألنى

قائلا : « اين الحقائب ؟ » .. فقلت له فى هدوء : « لقد قاسيت كثيرا يا صديقى .. وهانذا الآن افر من المعركة ! فانت رجل لا قلب له ولا روح ! » .

« وهنا انهال على بجميع الوان الشتائم ، واخذ يذكرنى بتهديده ، فقلت له : « سوف أرحل مهمــا يكلفنى الأمر ! .. وأؤكد لك اننى افضــل المــوت على الحيــاة فى مثل هــذه الظروف ! » .. فأخرج من جيبه مسدسا من طراز «ماوزر» ، كان يحتفظ به ، والقى به على الفراش وهو يقول :

ــ إذا كان الأمر كذلك ، فلك ان تختارى بين استعمال هذا المسدس وبين القاء نفسك من هذا الطابق الرابع ! على انى اذكرك بان أرصفة لندن صلبة الأحجار !

« واتجه نحو النافذة التى تطل على الشارع ففتحها . ولكن ، فجأة ، وبغير مقدمات ، أمسكنى بين ذراعيه وقال لى: « فلنعقد الصلح يا مرجريت .. كمــا كنا نفعل دائمــا بعــد الشــجار ! » .. ثم رفعنى والقى بى على الفراش ، وأنــا بملابسى ، فصحت فيه : أنت مجنــون ! أن جسمى ملفــوف بالضمادات التى وضــعها الطبيب ! » .. فقال فى قســوة : « هذا لا يهم ! » .

« ولمعت عيناه بوميض الرغبــة المجنونة ، فقفزت من الفراش ــ وكانت العاصفة ما تزال تزار وتصخب ــ فجرى خــلفى وامسك بطــرف ثوبى ، ثم اخــذ يجــذبنى إليــه . ووقعت يدى على المسدس ، فامسكت به ، وصوبته نحــو النافذة المفتوحة ، ثم أطلقت منه رصــاصة لأبعث الرعب فى

قلبه . واستطعت ان اتخلص منه ، إلا أنه حاول أن يمسكنى مرة أخرى ، ففتحت الباب وانطلقت اعدو فى الردهة . ولكنه تمكن من اللحاق بى ، فأمسكنى من راسى واخذ يدقه على الحائط ، وقد جحظت عيناه من الغضب . ومرة اخرى استطعت ان اتخلص منه ، بعد ان خلفت قطعا صغيرة من لحمى بين اظافره . واسرعت نحو المصعد ، واخذت اضغط جرسه ضغطا متواصلا ، وانا كالمجنونة ، لعل أحدا يصعد لانقاذى . ولكن .. بدلا من ان ارى المصعد فى طريقه إلى ، رأيته هو يقترب منى .. حتى لم يعد بينى وبينه اكثر من متر واحد . وإذ ذاك رفعت المسدس فى وجهه ، وصحت به مولولة :

ـ لا تقترب منى .. دعنى وشأنى !

« وكان جسمى كله يرتعد .. ومع ذلك، فانه هجم على . وهنا انطلقت الرصاصة الاولى ، ثم تبعتها الاخريات ! .. وسقط يتضرج فى دمه ، فانحنيت عليه ، ثم جثوت على ركبتى وقلت له :

ـ على ! على ! لم يصبك شىء .. لم يصبك شىء يا عزيزى ! .. تكلم ! تكلم !

« وفى تلك اللحظة ، اقبل المصعد ، فخرج عامله فى الحال والتقط المسدس اولا ، ثم عاد بى إلى حجرتى . وكان اول ما فعلته ، اننى اتصلت تليفونيا بعنانى فى حجرته ، وقاله له :

ـ احضر حالا ! لقد اطلقت النار على سيدك !

« ونزل فى الحال وهو فى بيجامته . وكان يبدو عليه المرض اكثر مما يبدو على ! .. وما لبث الطبيب ان حضر، يتبعه

مدير الفندق . وعمل الطبيب على نقل على إلى المستشفى . أما مدير الفندق فقد تقدم منى قائلا :

ـ سيدتى الأميرة ! هل لك أن تتبعينا ؟!

« وكنت لا ازال بملابس السهرة ، فساعدونى على تغييرها . ثم قادنى مدير الفندق وشرطيان إلى مقر البوليس فى (بوستريت) . وكانت الساعة قد بلغت الخامسة صباحا ، فجلست على مقعد حتى الثامنة . واشفق على رجال البوليس، فقدموا إلى بعض القهوة . وسرعان ما اقبل الدكتور جوردون، قادما من المستشفى الذى نقل إليه زوجى . وقال لى :

ـ لقد تحرجت الأمور كثيرا !

ـ ماذا حدث ؟

ـ لقد مات !!

فى السجن .. تندمل الجراح !

لم يصل المحقق الذى كلف بالتحقيق مع ماجى إلا فى الساعة العاشرة . وكان التحقيق الابتدائى بسيطا ، ولم يعد سؤال المتهمة عن شخصيتها ، وعما إذا كانت تعترف بأنها قتلت الأمير على فهمى . وكان الدكتور جوردون قد أرسل إلى مرجريت أحد رجال القانون ، ليحضر التحقيق الابتدائى معها ، فتمسك بأن المتهمة غير مذنبة !

وبعد ذلك أرسلت مرجريت إلى مستشفى « هولواى » فى شمال لندن ، حيث يوجد سجن للنساء ، يبدو من الخارج

كأنه حصن منيع . وطبق عليها القانون بكل دقة ، فنزعت جميع الدبابيس التى كانت تربط شعرها ، واستبدلت بملابسها ملابس السجن ، ووزنت ! .. وقضت نيلتها الأولى فى « العنبر » ، مع سائر المسجونات ، ولكنها أودعت بعد ذلك حجرة خاصة ذات قضبان حديدية ، ولازمتها ممرضة خاصة لم تكن تفارقها لحظة واحدة .

وقد قالت مرجريت عن تلك الأيام : « كنت خضراء اللون، وكأنى مصابة بالصفراء ! ولما كانت المحاكم كلها فى اجازة — إذ كنا فى ١١ يوليو — فقد قضيت ١٥ يوما فى ذلك المستشفى. وكان طعامى يتكون من زيت كبد الحوت المتجمد ! .. ولكن ، كانت للحادث التعس الذى وقع نتيجة حسنة بالنسبة لصحتى، إذ اندملت كل الجروح التى كنت مصابة بها ، دون حاجة إلى إجراء اية جراحة ! ولم يكن من الممكن أن يحدث هذا ، لو أنى كنت أعيش حياتى العادية ، متنقلة بين المسارح والمطاعم والفنادق .

« ولما اقتربت من الشفاء ، زارنى « وكيل الدفاع » — وهو وحده الذى له حق الاتصال بالمتهمين ، والوساطة بينهم وبين محاميهم ، طبقا للقانون الإنجليزى — وسألنى :

— مدام فهمى .. كم تريدين ان تدفعى لمحاميك ؟ .. إن فى لندن خمسة من كبار المحامين المرموقين ، واولهم هو « مارشال هول » ، وسيطلب منك اتعابا مرتفعة جدا . أما الثانى ... ولكن ، قبل ان استمر فى ذكر الباقين اسمحى لى بان اسألك : هل فى وسعك أن تدفعى عشرة آلاف جنيه اتعابا ؟ !

فقلت له : « أن عشرة آلاف جنيه مبلغ ضخم .. اننى ادفع خمسة آلاف فقط ! » .. فأجاب : « حسنا .. سوف أخبرك بالمحامى الذى يقبل مهمة الدفاع مقابل تلك الأتعاب ! » .

« ثم بدأ التحقيق الرسمى ، وتولاه قاضى وستمنستر . وفى خلال ذلك التحقيق ، علمت اشياء كثيرة كانت خافية على. فقد جاء على لسان القاضى أن ايراد على فهمى يبلغ ٥٠ الف جنيه فى العام ، وانه كان يخصص جزءا كبيرا من هذا الايراد للاعمال الخيرية ، وانه أسس مستشفى أثناء الحرب العالمية الأولى ، كما انه كان يخصص مبلغ ثلاثة آلاف جنيه كل عام لبعثة من طلبة الجامعة المصرية تتلقى العلم فى أوربا . كذلك قال قاضى التحقيق إن الملك فؤاد منح على لقب الامارة، وان كانت المعلومات التى تقدم بها خدم الفنادق والمطاعم التى كان يرتادها قد دلت على أنه من الشباب العابث ! » .

ولم ينس المحقق تسجيل ما اتهمت به مرجريت زوجها من قسوة . واضاف أنه علم من نتائج تحريات البوليس ، أن كلا من الزوجين — أى مرجريت وعلى — كان يضع مسدسه تحت رأسه إذا ما ذهب إلى فراشه ، وانهما كانا يستيقظان احيانا أثناء الليل ، فيسارع كل منهما إلى التقاط مسدسه !

« غير مذنبة » !!

وبدأت المحاكمة بعد ذلك . وتقول ماجى انها حرصت على أن تحضر من باريس ثوبا من الموسلين الأسود ، وقبعة بنقاب من التل ، وأنها عنيت بزينتها ، ولو أنه لم يسمح لها

باستعمال احمر الشفاه ! .. وقد كان حرمانها من المساحيق مفيدا على اية حال — كما تقول — إذ كانت بين المحلفين سيدتان من الرجعيات المحافظات ! .. اما عن المجوهرات ، فقد اكتفت بعقد من اللؤلؤ ذى صف واحد !

وقد احالتنى مرجريت — فيما يتعلق باجراءات المحاكمة — إلى ما سجله صحفى فرنسى يدعى جاك مرسياك ، كان من اكبر الصحفيين فى ذلك الوقت ، وما بعث به إلى صحيفته « لو جورنال » من انباء تلك المحاكمة .

بدأ الصحفى مقاله عن اليوم الأول للمحاكمة بوصف الطريق الذى يؤدى إلى محكمة « اولد بيلى » ، والجو الذى كان يسودها . كما وصف القاضى سير ريجبى سويفت ، والمحلفين الذين افتتحت الجلسة باستدعائهم .. وكان عددهم اثنى عشر محلفا : عشرة رجال ، وسيدتان . وقال الصحفى :

« يوجد فى ركن القاعة سلم يقود إلى حجرات السجن . وقد ظهر اولا على هذا السلم ، حارس له شارب غليظ ، ثم ظهرت حارسة ترتدى الملابس الزرقاء وإلى جانبها مدام فهمى بك . وكان وجهها فى لون العاج ، وكانها غائبة عن الوجود .

« ولم تكن هناك إجراءات خاصة بالأسئلة التمهيدية عن الاسم والبيانات الأخرى .. فقد نفذ القاضى إلى موضوع القضية مباشرة ، فقال للمتهمة : « مارى مرجريت فهمى .. انت متهمة بجريمة قتل .. فهل أنت مذنبة أم غير مذنبة ؟ ! » .

وقد القى سؤاله باللغة الانلجيزية. ورغم ان المتهمة لم تكن تعرف هذه اللغة الا انها فهمت كلمة « مذنب » ، فاجابت بالفرنسية وبصوت مرتفع « غير مذنبة ! » » .

« وبدا شىء من الدهشة على وجه القاضى ، فأمر بأن يترجم لها السؤال ، فكررت المتهمة : « غير مذنبة ! » »

« ثم وقف المدعى العام ، مستر برسيفال كلارك ، وسرد وقائع القضية كأنه يسرد تاريخا ، دون ان يتحيز لفريق على آخر ! وقد انهى مرافعته بهذه العبارة : « لقد اعترفت مدام فهمى بك بانها قتلت زوجها . وطبقا للقانون البريطانى ، يفترض ان كل جريمة قتل قد سبقها تفكير وتدبير ، ما لم يثبت عكس ذلك ! »

سعيد عنانى .. شاهد صعب المراس !

والآن .. إلى الشهود !

« كان الشاهد الأول هو سعيد عنانى ، سكرتير على فهمى المخلص . وكان اثبات ركن تدبير الجريمة يتوقف على شهادته. وقد كان رايه — الذى لم يتغير منذ التحقيق — هو انه بينما كان القتيل افضل رجل فى العالم، فان مدام فهمى كانت تستثيره دائما . وكان كلما سئل عن بعض وقائع تخدم الدفاع عن المتهمة ، قال انه لا يذكر !

« ولكن القانون لا يرحم .. فانه يلقى بالشاهد ، بعد ان يتم سؤاله بواسطة الفريق الذى استشهد به ، إلى الفريق الآخر، فريسة سهلة ، فينهال هذا الفريق عليه بكل انواع الأسئلة دون رحمة أو شفقة . وكان سير مارشال هول — محامى المتهمة — استاذا فى هذه المدرسة .. مدرسة تجريح شهود الخصم !

ولما كان سعيد عنانى قد أدلى بعدة شهادات ، أمام البوليس ، وأمام قاضى التحقيق ، فانه كان من السهل على الدفاع أن يكتشف بعض التناقض فى أقواله أمام هذه الجهات ! .. ومن ثم أخذ مارشال يلقى على الشاهد السؤال تلو السؤال ، وكأنه ملاكم جبار ينهال على خصمه الضعيف باللكمات ! .. ولم يكن يترك له وقتا للتفكير ، حتى لقد عجز المختزلون عن تتبعه فى النهاية !

إلا أن عنانى كان خصما عنيدا ، له قدرة عجيبة على المراوغة والتملص ! ومن ثم كان يتحاشى الضربات المباشرة القوية التى يوجهها إليه خصمه ، محتميا وراء جهله ببعض المصطلحات الانجليزية ، كما انه كان يدعى أحيانا أنه لا يفهم إلى أين يريد أن يصل به موجه الأسئلة ، وماذا يقصد من ورائها !

« وكان سير مارشال هول قد كون نظريته فى الدفاع عن مرجريت فهمى ، وأسسها على أنها امرأة دفعت إلى ارتكاب الجريمة ، دفاعا عن نفسها ، إذ اعتقدت أن حياتها فى خطر ، بعد أن شهدت عدة حوادث معينة تؤيد هذه العقيدة التى اعتنقتها . وكان عنانى شاهدا على بعض تلك الحوادث المعينة !

شهادة خبير الأسلحة والأطباء

لندن : فى ١١ سبتمبر

« استمعت المحكمة إلى بعض الشهود كان من أهمهم خبير

بالأسلحة الذى استدعى للادلاء بأقواله عن الطريقة التى ينطلق بها المسدس المستعمل فى الجريمة ، ولتأييد ما ذكرته المتهمة من أنها بمجرد أن ضغطت الزناد انطلقت الرصاصات تباعا ، وهى لا تدرى ، ولا تقصد ، ولا تعرف كيف توقفها ! .. وقد أفاض مارشال هول فى مناقشة الخبير فى هذا الموضوع ، حتى أوضح للمحكمة تماما النظرية التى أعدها للدفاع عن المتهمة .

« ثم انتقلت المحكمة إلى سماع شهادة الأطباء ، الذين قرروا أن الجروح التى كانت تتألم منها ، نشأت عن ميول زوجها الشاذة ، وقد زاد من تأثيرها أنه كان شابا ممتلئا حيوية ، قوى العضلات ! وقال الأطباء أنها كانت تقاسى آلاما شديدة عندما وصلت إلى لندن ، إلى حد أن نصحها أحدهم باجراء جراحة ، بعد أن فشل الدواء الذى وصفه لها فى تحقيق الشفاء ! .. كما قالوا إن هذه النصيحة كانت السبب فى الخلاف الذى نشب بين الزوجين فى ذلك المساء » .

مصر .. فى رأى محام انجليزى !

وبعد ذلك ، ألقى سير مارشال هول مرافعته ، فبدأ بتحليل شخصية المتهمة ، قائلا إنها سيدة من الطبقة الراقية ، ومن المحتمل أن تكون قد هبت على حياتها عواصف كثيرة ، ولكن ما لا يمكن انكاره هو أنها ذات سحر وجاذبية . وقد قابلت فهمى بك ، وبعد تردد طويل وافقت على الزواج منه ، وسافرت إلى مصر .

« .. ولقد بدت لها الحياة وردية بهذه الزيجة : إذ لم يكن هناك شىء يمكن ان يحرمها زوجها منه ، بل إنه اخذ يعرض عليها قصوره ، وسياراته ، ويخته ، وخدمه وحشمه . وفضلا عن ذلك فانه كان يبدى لها كل إعجاب . ونحن نعرف كم تنجذب المراة — فى بعض الاحيان — نحو من يصغرها سنا من الرجال ! .. وهكذا قبلت الزواج من على . ولقد ارتكبت بذلك خطأ فاحشا ، إذ انه كان رجلا يجد لذته فى تعذيب النساء ! »

وانتقل المحامى بعد ذلك إلى سرد قصة الزواج ، وصوره على انه جعل من مرجريت جارية لزوجها ، وقال أن « على » لم يدفع لزوجته اكثر من ربع الصداق الذى وعدها به ، وانه تحول إلى وحش كاسر بعد الزواج ، إذ كثيرا ما كان يسلى نفسه باطلاق الرصاص فوق راس زوجته ارهابا لها ، وكى يحولها إلى اداة طيعة بين يديه !

ولم يكتف سير مارشال هول بذلك ، إذ كانت له وسائل خاصة فى التأثير على المحلفين . فقد روى مثلا قصة ذلك الخطاب ، الغفل من الأمضاء ، الذى تلقته مرجريت قبل الحادث بأيام ، والذى حذرها فيه مرسله المجهول من العودة إلى مصر أو إلى أى بلد عربى آخر . واخذ يصور للمحلفين عواقب تلك الرحلة قائلا : « أن الرحلة إلى مصر قد يتخللها حادث من الحوادث .. قد يتخللها السم يقدم لها فى شكل زهرة جميلة . فالسم سلاح مجهول لا يسمع له صوت ولا يراه أحد. وقد يحدث ان تشعر مدام فهمى بالمرض بعد ان تشرب قدحا من القهوة » .. إلى آخر تلك الخيالات التى كان لها تأثير خاص فى المحلفين .

وفضلا عن ذلك فقد قدم إلى المحكمة مستندا خطيرا هو عبارة عن وصية سرية كتبتها المتهمة فى مصر بتاريخ ٢٢ يناير، واودعتها لدى محاميها هناك . وفى هذه الوصية ، قررت المتهمة ان زوجها اقسم بالقرآن على انها لن تموت إلا بيده هو، وانها لذلك ترغب فى إنصاف اسرتها من عواقب فعلته ، إذا تمت ، والثار لها منه !

ووصل المحامى البارع فى مرافعته إلى ليلة وقوع الحادث فأخذ يصور المأساة تصويرا مسرحيا : « وفيما هو يتحفز للمرة الأخيرة .. يتحفز كوحش ، ثم ينكص على عقبيه لآخر مرة ، كى يقفز قفزة جديدة إلى الأمام .. إذا اليأس يدفعها إلى ان تتناول المسدس فتصوبه نحوه .. ولفرط ذعرها انطلق الرصاص منه دون ان تقصد ! » (١) .

وللقارىء أن يتصور مدى تأثير مثل هذه الكلمات فى نفوس المحلفين. أما القاضى، فكان يستمع بوجه يشبه الرخام فى برودته ، ولم يبد عليه أنه موافق على كلمة واحدة مما قال المحامى . بل لقد حذر المحلفين ، إذ قال لهم — قبل أن يرفع الجلسة :

— تحدثوا عن ظروف القضية فيما بينكم ، ولكن لا تتخذوا قرارا حاسما فى هذا المساء .. فان هناك اشياء كثيرة ستستمعون إليها فى هذه القضية ، قبل ان تنجلى امامكم الحقائق !

---

(١) نشرت تفصيلات مرافعة مارشال هول فى الفصل الاسبق .

« كنت احبه .. كنت احبه ! »

لندن : فى ١٢ سبتمبر

ست ساعات كاملة تعرضت فيها مرجريت فهمى اليوم لوابل من الأسئلة . وكان لزاما عليها ــ وهى تجيب عن هذه الأسئلة ــ ان تعرض الوانا من الشقاء الإنسانى ، ربما كانت اية امراة اخرى ــ مهما تبلغ درجة تعاستها ــ تتردد فى عرضها على الناس ، احتفاظا بالبقية الباقية من كرامتها !

وكانت الانظار كلها متجهة إلى « الفرنسية الحسناء » .. كما وصفتها الصحف البريطانية . وفى ذلك اليوم ، قرر القاضى انه يجب عدم التعرض لتاريخ حياة المتهمة ، فى الفترة السابقة على علاقتها بعلى فهمى .

وسردت المتهمة علاقتها بالقتيل قبل زواجها منه ، واعترفت بانها قضت معه ثلاثة ايام فى (دوفيل) ، وثمانية ايام فى (بياريتز) ! وهنا سالها محاميها :

ــ هل كنت تحبينه ؟
ــ نعم .. كثيرا !
ــ وهل كنت تعتقدين انه يحبك ؟
ــ نعم .. كنت اعتقد ذلك !

وروت المتهمة ــ بصوت مؤثر ــ قصة حياتها مع على ، وما حدث لها فى مصر ، وعلى ظهر اليخت ، وفى قصر زوجها . وعندما تحدثت عن اعتناقها الدين الإسلامى قالت : « لقد

اعتبرت ذلك تضحية كبرى من ناحيتى . وقد اصرت اسرته على ان اغير دينى ، وقالوا لى اننى لو فعلت ذلك فسوف أقدم لعلى دليلا جديدا على حبى ووفائى ! .. ولذلك وافقت .. ووافقت على كل شىء آخر .. فقد كنت أحبه .. كنت أحبه !»

وهكذا كانت جملة « كنت احبه » تتردد على لسانها فى كل مناسبة ، وهى تروى قصتها وتنتقل من مرحلة إلى مرحلة : لماذا تحملت زوجها وهو يضربها ؟ .. « كنت احبه ! » .. لماذا تحملته وهو يرهبها باطلاق الرصاص فوق راسها ؟ .. « كنت احبه ! » .. لماذا تحملت الاهانة والسجن ؟ .. « كنت احبه ! » .. الخ .

واضطرت المتهمة إلى أن تروى أسرار علاقتها الزوجية الخاصة بعلى فهمى . ولم يرحمها احد ، إذ انهالت عليها الأسئلة ، دون شفقة أو حياء ، حتى لقد شعر الجميع بالحرج لأنها دفعت إلى رواية الكثير مما لم يكن يليق سماعه !

محلفة تبكى فى الجلسة !

لندن : فى ١٣ سبتمبر

كان أهم ما فى هذه الجلسة ، عندما استأنفت مرجريت رواية قصة حياتها ، هو ما أحدثته من تأثير فى نفوس المحلفين والقاضى، وهى تصف ظروف الليلة التى ارتكبت فيها الجريمة. فقد بكى كثير من النظارة فى قاعة الجلسة ، كما بكى بعض المحلفين ومن بينهم سيدة عجوز كانت تترنح من شدة التأثر وهى تنتحب ، بينما قالت مرجريت :

« .. وتقدم منى وابرز لى بعض أوراق مالية وهو يقول:

ــ انها لك ، لو تمكنت من كسبها !

« الا اننى اعتذرت له بالألم ، وبنصائح الأطباء ، فاصر ، ثم بدا فى إهانتى . وامسكت بسماعة التليفون لأستدعى احد اصدقائه لكى يتوسط بيننا ، ولكنه انتزع منى التليفون ، وامسك بذراعى فاخذ يثنيها . وتخلصت منه ثم صفعته ، فبصق فى وجهى . واستطعت ان اتجه إلى الباب ، إلا انه جرى خلفى ، وكان الحقد والغضب يغليان فى عينيه . وصاح فى وجهى : « سانتقم منك ! » .. فامسكت بالمسدس الذى وجدته قريبا منى ، بينما قال هو : « آه ! سوف اقول انا ايضا انك قد هددتنى بالمسدس ! » .. وخرجت اجرى ، ولكنه ادركنى فى الردهة ، فامسك عنقى بيده اليسرى ، بينما امسك راسى بيده اليمنى ، وقال لى : « سوف اقتلك الآن ! » .. وضغطت يده اليسرى على عنقى ، فاستمددت من ذعرى قوة مكنتنى من التخلص منه . وتقهقرت ، كما تقهقر هو قليلا ، وهو يكرر : « سوف اقتلك .. سوف اقتلك ! » .. ثم انحنى لينقض على ، فرفعت يدى بالمسدس .. ولم اعد اشعر بشىء او ارى شيئا .. وفجاة ، سمعت صوت فرقعة ، ثم رايته هناك على الأرض .. عند قدمى .. وانحنيت جاثية على ركبتى ، وقلت له :

ــ لا شىء .. لا شىء يا عزيزى !

« وكان يتكلم ، فظننت انه يكلمنى ! ثم حضر الناس ، فاخذت اسالهم .. وكنت لا افهم شيئا .. كنت محطمة ! » .

راس المتهمة يتأرجح !

لندن : فى ١٤ سبتمبر

بلغ اليوم عدد الجلسات التى عقدت لنظر هذه القضية عشر جلسات ! .. عشر جلسات يتنازع فيها الاتهام والدفاع راس هذه المراة الجميلة .

واستانف مارشال هول مرافعته ، حتى إذا انتهى منها ، التفت إلى المحلفين والقاضى ، وقال لهم الكلمة المأثورة عن احد اسلافه العظام : « لست أطلب « منكم » البراءة ، ولكنى اطلب « لكم » ان تاتى البراءة على ايديكم ! » .

ولما انتهى مارشال هول ، جاء دور الاتهام فى استجواب المتهمة . وهو نظام يحاول به الاتهام ايقاع المتهم فى شباك الاعتراف ، بمختلف الأسئلة . ومن ذلك ان مرجريت سئلت لماذا لم يتمزق ثوب السهرة الذى كانت ترتديه اثناء ارتكاب الجريمة ، إذا كان زوجها قد هاجمها بالطريقة التى وصفتها ، فاجابت بأن ثوب السهرة كان يكشف عن صدرها ونحرها ، وان زوجها امسكها ــ كما ذكرت للمحكمة من قبل ــ من عنقها فقط ، فلم يلمس الثوب !

وفى هذه الجلسة ، اغمى على المتهمة ، لشدة ما احتملت من آلام نفسية بسبب الاستجواب ، ولشدة ياسها وخوفها من صدور الحكم باعدامها شنقا . ولم تفلح المحاولات التى بذلت لاعادتها إلى رشدها ، فاضطرت حارستان إلى حملها إلى خارج القاعة .

براءة .. رغم كل شىء !

لندن : فى ١٥ سبتمبر

برئت ســاحة مـــدام فهمى . فبعد ان لخص القاضى للمحلفين ظروف القضية تلخيصا دقيقا بسيطا ، وذكرهم بانهم اقسموا بأن يحكموا طبقا لما سمعوه من شهادات ، وبأن ليس هناك مكان للشفقة ، خلا المحلفون إلى المداولة ، ثم عادوا مرة ثانية — بعـــد وقت طويل — ليعلن رئيســـهم ان المتهمة غير مذنبة !

وصفق جميع الحاضرين ، مع أن التصفيق ليس مألوفا فى المحاكم الانجليزية . ويبدو ان هذا المسلك اغاظ القاضى ، إذ امر باخراج الجميع من القاعة .

(وهنا ينتهى وصف الصـــحفى الفرنسى للمحاكمة .. وانصافا للحق ، نثبت هنا ان الاشاعات قويت — عقب الحكم مباشرة — بأن عناصر غريبة عن القضاء تدخلت فى القضـــية تدخلا مشينا .. بل ذهبت بعض هذه الشائعات إلى ان ولى عهد إنجلترا إذ ذاك — وهو الذى تولى العرش بعد ذلك باسم ادوارد الثامن ، ثم نزل عنه ليتزوج من مسز سمبسون — قد تدخل تدخلا سافرا ، وسعى دائبا حتى انتزع حـــكم البراءة لمرجريت التى كان قد عرفهـــا قبيل الحـــرب العالمية الأولى ، وتوثقت بينهما صلات الود والصداقة خلال تلك الحرب ، على ما أوردناه فى القسم الأول من اعترافات مرجريت !) .

اول حكم بالبراءة فى قضية قتل !!

وكان اطلاق سراح ماجى ميللر ، عقب الحكم ببراءتها ، أشبه بخروج ممثلة من المسرح بعد نجاحها العظيم فى تمثيـــل دور هام ! .. فقد قدمت لها باقـــات الزهـــور ، ورافقتهـــا الكثيرون إلى فندقها ، وهاجمها جيش من مندوبى الصـــحف ومحرريها . ولقد صرحت لهم ماجى بقولها : « انى جد متأثرة بهذا الحكم ، وانى لأشكر العدالة البريطانية عليه ! »

وقبل ان تعـــود ماجى إلى باريس ، اقامت مأدبة غداء للصحفيين فى « برنسس هوتيل » . وقد خطب الجميع فى هذه الحفلة ، وطلبوا منها كتابة مذكراتها ونشرها ، وتقدم بعض أصحاب المسارح يعرضون عليها ادوارا فى رواياتهم التمثيلية!

وقالت لى ماجى : « سوف احتفظ لهذا الغداء بأحســـن الذكرى . وقد ذهبت بعد الغداء لأزور سير مارشـــال هول واشكره . وهنأتنى زوجته بحكم البراءة ، وعبرت عن فرحها بانتصار زوجها العظيم ، إذ كانت تلك هى المرة الأولى فى تاريخ بريطانيا ، التى يحكم فيها بالبراءة فى قضية قتل ! » .


LE PROCES
STAVISKY
par
GEO LONDON
أشهر قضايا الرشوة واستغلال النفوذ
والانحلال الخلقى
قضية ستافسكى
للمحقق الفرنسى جيولندن

هذه القضية

اهتز العالم فى سنة ١٩٣٥ لنبأ خطير . ولم يكن ذلك النبأ من أنباء الحرب — فالسلام يومئذ ناشر ألويته على ربوع العالم المتحضر — ولكنه كان نبأ من أنباء الفساد ، لا يقل أثره عن وقائع الحروب فى شىء . فالذين مسهم الأمر كانوا من كبار الوزراء والأقطاب وأركان الدولة فى فرنسا — وهى فى ذلك الوقت فى مكان الصدارة من دول العالم الديمقراطى الذى توجه النصر فى معاهدة فرساى ! .. والثقة بالدولة والأقطاب هى الدعامة الأولى فى حياة الشعوب وفى استتباب السلام .. فلا أمن للناس إلا إذا وثقوا بمن يتولون أمورهم من الحاكمين ، ومن يدبرون معاشهم من رجال المال والأعمال ، ومن يحكمون بينهم من أهل القضاء والإدارة .. فإذا أصبح الناس ذات يوم فقيل لهم إن الذين تثقون بهم من الوزراء والحكام لصوص ! .. وإن الذين تعتمدون عليهم فى تدبير معاشكم واستثمار أموالكم لصوص .. والذين تلجأون إليهم لاقامة العدل وحماية الحقوق هم الذين يغيرون على تلك الحقوق ويلتوى فى أيديهم ميزان العدل ، فذلك ولا ريب هو الفزع الأكبر عند سواد الشعب الذى لا يتذوق الحياة إلا فى ظلال الأمن والاستقرار .. ولا أمن ولا استقرار إذا تزعزعت تلك الثقة ، واهتزت أركانها ، ومال أساسها !

وقد عرفت هذه القضية باسم قضية ستافسكى ، فقد كان هذا الرجل هو قطب الرحى من ظاهرة الفساد التى تكشفت بتلك الفضيحة فاذا هى منتشرة الذيول فى مرافق فرنسا يومئذ .. وإذا الرشوة المالية — وغير المالية ! — عملة متفاهم على رواجها فى أرفع الأوساط .. ! وقد احدث ظهور هذه الفضيحة يومئذ فى فرنسا — بل فى أوربا بأسرها — هزة عنيفة أسقطت الوزارة الفرنسية وأدت إلى شبه ثورة صاخبة فى باريس ، وجرت فى ذيلها فضائح عديدة أسقطت كثيرين من الكبراء من علياء مجدهم !

وقد تصدى لتاريخ هذه القضية الفذة مؤرخ من اشهر المؤرخين القضائيين المعاصرين فى فرنسا ، وهو « جيو لندن »

واسم ستافسكى قد اضحى منذ نظر هذه القضية علما على فساد الحكم واستغلال النفوذ والرشوة ، فى العالم أجمع .. كما أصبح اسم « كويسلنج » منذ الحرب العالمية الثانية علما على كل خائن يبيع وطنه للأعداء ويخضعه لأطماعهم ويبيح أرضه لجيوشهم !

وحين بدأ عهد التطهير فى مصر ، فى ١٩٥٢ ، بعد أن تراكمت ادران الفساد فى السنوات الأخيرة ، حتى كان كل قطب من أقطاب العهد البائد « ستافسكى » مكبرا عشرات المرات !.. رأى كتابى — فى عدد نوفمبر ١٩٥٢ — أن يعيد إلى الحياة من زوايا النسيان سيرة الفاسد الأول ستافسكى ، لكى يرى القارىء مبلغ خطورة

السكوت على الفساد والغفلة عن القضاء عليه ، حتى يغدو مثل « الغرغرينة » سما يخشى منه على حياة الدولة والمجتمع !

والآن ، عود إلى سنوات السلام قبل الحرب الأخيرة لنشهد مراحل القضية وملابساتها ..

من هو ستافسكى ؟

هو « الكسندر سيرج ستافسكى » ، وهو يهودى روسى الأصل ، ولد فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٨٦ فى بلدة صغيرة بالقرب من مدينة « كييف » ، حيث كان ابوه طبيب اسنان متوسط الشهرة والكسب .. وفى سنة ١٩٠٠ هاجر الطبيب بولده البالغ من العمر اربعة عشر عاما إلى فرنسا ، وقد كان قصارى امله ان ينشأ ابنه طبيب اسنان مثله .. غير أن الفتى كان طموحا شغوفا بالظهور محبا للمال ، يلتمسه من اهون السبل .. فما كاد يبلغ مبلغ الشباب حتى اخذ ينصب شباكه حول الفتيات والسيدات ذوات الثراء والمال ، وارتكب عددا من جرائم النصب والسلب والسرقة ، حتى قبض عليه فى إحداها سنة ١٩١٢ فحبس ستة عشر يوما ثم اخلى سبيله لعدم كفاية الأدلة ! .. ثم صدر اول حكم عليه فى سنة ١٩١٥، حيث قضى فى سجنه ستة أشهر بتهمة النصب والاحتيال ..

وخلال تلك الأعوام تقدم الشاب فى مجال الإجرام ، فبعد ان كان يعيش من مال النساء اللواتى يخدعهن ويسلبهن ما تصل إليه يداه من حلى ونقود ، اتسعت أطماعه فصار يحكم

تدبير جرائم الاحتيال بغرض ابتزاز الأموال .. كما اعتاد أن يستأجر الحانات « والكباريهات » ليديرها ويكسب منهما المال الوفير . وكانت له حاسة تتقن تنسم رائحة النقود اينما وجدت ، وذكاء يحسن تدبير الخطط لنقل هذه النقود إلى حوزته !

المال أقوى من الحب !

وفى سنة ١٩١٧ اقيمت عليه الدعوى العمومية مرة اخرى مع شريكه المصرف « امورو » .. لكنه واصل بعد الافراج عنه مغامراته بهمة لا تعرف الكلل وجراة لا تعرف الخوف .. حتى إذا كانت سنة ١٩٢١ رأيناه يبدد مجوهرات عشيقته « مدام جان بلوخ » التى كانت تكبره بأعوام كثيرة ، وكانت قد اودعت المجوهرات أمانة بين يديه !

ثم بدا يتلاعب فى أعمال جملة شركات ، بالاشتراك مع المدعو « هميل فارب » ، فتقاطرت الشكاوى ضده .. بيد انه استطاع بحيله الماكرة ان يفلت من العقاب ! .. وفى احدى المرات اختلس اربعة ملايين من الفرنكات ، فحكم عليه بالسجن . .لكنه لم يكد يخرج من سجنه حتى اخذ يرتاد المجتمعات الباريسية الراقية ، وأفلح بفضل اناقته وفصاحته وقوة شخصيته فى مصادقة كبار الرجال وذوى النفوذ ، فوقف بحكم صلاته هذه على اسرار بعض الكبراء ، من الرجال والنساء ، فاتخذ من هذه الأسرار راس مال له يستغله احسن استغلال ! .. ثم انشأ حانة للفجور اطلق عليها « كاديه روسيل » شجع الكبراء على ارتيادها سرا . وكان يقرضهم

المال عند الحاجة فيرسلون إليه الشيكات لسداد ديونهم فى حينها ، وعندئذ يضيف هو إلى الرقم المكتوب صفرا أو صفرين إلى اليمين ، ويقبض بذلك حقه من البنوك مضاعفا اضعافا .. فاذا انكشف هذا التزوير لأصحاب الديون خافوا ان يفضحوه لئلا يهتك اسرارهم فتعرف عنهم زوجاتهم أو غيرهن ما يحرصون هم على اخفائه ! ..

وفى احدى المرات بالغ فى تزوير شيك بهذه الحيلة فرفع الرقم المكتوب عليه من ٦٠٠ إلى ٤٦٠٠٠ فرنك ! وحين اكتشف التلاعب وحوكم من اجل ذلك اختفى الشيك فجأة من ملف القضية فزال جسم الجريمة !

تكالب اجرامى على جمع المال

وفى سنة ١٩٢٥ اشترك ستافسكى فى سرقة أسهم على ظهر الباخرة « فالديفيا » . وفى نفس السنة ارتكب جريمة خيانة امانة قدم من اجلها إلى المحاكمة ، لكنها لم تثبت عليه . وفى العام التالى اتهم بتدليس جديد ، ثم حفظت القضية لعدم كفاية الأدلة أيضا ! .. وهكذا اوغل فى الاجرام ، وهو كل يوم يزداد جراة وفجورا ، حتى بلغت قيمة الشيكات التى زورها فى سنة واحدة اربعة ملايين من الفرنكات ! وحين تعقبه المجنى عليهم من رجال المال واستطاعوا تقديمه إلى المحاكمة، اجلت قضيته تسع عشرة مرة ، واستمرت معلقة سنوات .. حتى انتهى اجله فى هذه الاثناء قبل ان ينتهى نظر القضية ، فشطبت نهائيا بطبيعة الحال !

يعيث فسادا .. فى حمى وزارة الداخلية !

وتزايد ثراء ستافسكى ، بفضل جرائمه العديدة ، فبدأ منذ سنة ١٩٢٧ يظهر فى أرقى المجتمعات بالعاصمة الفرنسية، ويصادق اكبر الشخصيات ، فى مختلف المناصب والهيئات ! .. واستأجر لمكتبه جناحا فاخرا فى فندق كلاريدج بحى الشانزليزيه ، كما استأجر لمسكنه بيتا أنيقا باسم زوجته القديم الذى كانت تتسمى به قبل الزواج حين كانت تعمل عارضة أزياء (مانكان) .. وصار يظهر فى جميع الأماكن التى يرتادها الكبراء والأغنياء فينفق فيها عن سعة ، ويتصل بكواكب المسرح ورجال السياسة والأعمال واصحاب الصحف الكبرى ، ويعقد الصداقات مع الوزراء والشيوخ والنواب وكبار الموظفين .. !

والعجيب انه فى الوقت الذى كان فيه البوليس يسعى لضبطه متلبسا بأحدى جرائمه العديدة كى يزج به فى السجن، كان ستافسكى يحمل فى محفظته توصية صادرة من أحد كبار موظفى وزارة الداخلية إلى جميع مفتشى الأمن العام كى يمدوا اليه يد العون كلما طلب عونا ! ..

وكلما ذاع شيء من حوادث نصبه واحتياله خشى الموظفون ان يسترسلوا فى التحقيق معه لأنهم يعرفون صلته بالوزراء والكبراء ! بل كان اعوانه واصدقاؤه يلقون فى روع المحققين انه يشتغل لحساب فرنسا فى المانيا والمجر ، وانه جاسوس سياسى يؤدى خدمات للحكومة الفرنسية !

وكان ستافيسكى يطلب المال من اى سبيل ، وكان ذهنه

يتفتق كل حين عن عدد لا يحصى من المشروعات التجارية التى تقوم على الخداع والاحتيال . وفى احدى الفترات أنشأ عددا من حوانيت الجواهر فى « بيارتز » و « كان » و « لوتوكيه » ، فكان يبدل الجواهر الصحيحة التى تودع لديه بجواهر زائفة .. ويشترى من اللصوص حليا مسروقة بثمن بخس ثم يبيعها بربح كبير !

القضية الكبرى

وفى سنة ١٩٢٨ تمادى ستافسكى فى احتياله ، فتورط فى عمليات النصب الواسعة النطاق التى ادت فى النهاية إلى افتضاحه وقادته إلى حتفه !

وقد كان ، يوم بدأ تلك العمليات ، خارجا لتوه من الحبس الاحتياطى على ذمة التحقيق فى إحدى التهم المنسوبة إليه ، وكان خالى الوفاض من المال ، فهداه شيطانه إلى ان ينصب شباكه حول « بنك بلدية اورليان للتسليف على الرهونات » .. والمتبع فى هذه البنوك ، عندما يتقدم شخص اليها كى يقترض نقودا مقابل رهن جواهره ، أن تعرض هذه الجواهر أولا على مثمن البنك كى يقدر قيمتها ، تمهيدا لتحديد المبلغ الذى يقرض نظير ارتهانها . وهذا المثمن مسئول عن تقديراته ، فاذا لم يسدد المقترض « السلفة » فى موعدها ، يبيع البنك الجواهر المرهونة ، فاذا لم تغط قيمة البيع مبلغ السلفة الزم المثمن بدفع قيمة العجز . ولهذا يلاحظ دائما ان المثمنين فى هذه البنوك لا يسمحون الا بسلفيات ضئيلة جدا بالقياس إلى القيمة الحقيقية للجواهر المرهونة ، احتياطا

لاحتمال خطئهم فى التقدير ثم احتياطا لاحتمال حدوث انخفاض غير منتظر فى سوق الجواهر فجاة !

ومن هنا كان على السيد ستافيسكى كى يحصل على سلفيات ذات قيمة مقابل مجوهرات زائفة ضئيلة القيمة ، ان يفعل احد أمرين : اما ان يغش المثمن فى نوع البضاعة ، او ان يجعل منه شريكا له فى الاحتيال !

فماذا فعل ستافيسكى ؟

لقد ارتكب الوزرين ، فاستطاع بالتواطؤ والغش معا ان يغرى المثمن بأن يعتمد فى تقدير قيمة الجواهر التى يرهنها ستافيسكى لديه على شهادة شركة وهمية لتجارة الاحجار الكريمة كان ستافيسكى نفسه قد انشأها فى المدينة من قبل . وتحت ستار الثقة فى اسم الشركة التجارى استطاع صاحبنا ان يرهن احجارا « مزيفة » من الزمرد لا تزيد قيمتها الحقيقية على نصف مليون فرنك ، ويحصل مقابلها على سلفيات بلغت اكثر من خمسة وعشرين مليونا من الفرنكات !

لكن رجلا مقامرا متلافا ، مثل ستافيسكى ، لم يكن ليقتنع بهذه الأرباح « المتواضعة » ، فخطر له مشروع آخر يدر عليه ارباحا اضخم : كان أصحاب المزارع الذين جردتهم معاهدة «تريانو» من املاكهم فى المجر، قد اعلنوا عن استعدادهم للنزول عن حقوقهم ومطالبهم لمن يشتريها منهم فورا بمبلغ قليل من المال .. ومن هنا فكر المحتال الذكى فى ان يشترى تلك الحقوق بثمن بخس ، ثم يبذل مساعيه فى باريس كى تسدد الحكومة الفرنسية تلك الحقوق او تضمنها ، تحت ستار

التنافس مع ابطالها على كسب النفوذ السياسى فى بلاد المجر ! وعندئذ يمكنه هو ان يصدر من السندات ما يوازى قيمة تلك الحقوق التى ضمنتها الحكومة ، فتروج سنداته ويقبل عليها المكتتبون .. وبذلك تواتيه الثروة الضخمة السهلة التى طال اشتياقه اليها !!

ولكن كان لا بد له من مال وفـير يشترى به جميـع تلك الحقوق من اصحابها فى بلاد المجر .. ففكر فى خطة اخـرى جهنمية يحصل بها على المـال المطلوب !

مشروع السندات المزيفة

كان خلال تردده على كازينو « بياريتز » المشهور للقمار ، قد تعرف على محـافظ بلدة « بايون » المجـاورة ، واسـمه « جوزيف جارا » ، فلفت نظره إلى أن السياح الذين يقصدون إلى تلك المنطقة ويخسرون فى المقامرة قد اعتادوا أن يرهنـوا حليهم ومجوهراتهم فى بنوك الرهون التابعة لبلديتى مـدينتى « تولوز » و « بوردو » ، فلماذا لا يكون لبلدة «بايون» نصيب فى هذه التجارة الرابحة ؟

وهكذا ، وبذلاقته المعهودة ، اقتنع ستافيسكى المحـافظ بفكرته . ثم حصـل منه على ترخيص بأن ينشىء ـــ بأمـواله الخاصة ـــ بنكا للرهون يكون تابعا لبلدية بايـون ، على أن يخول له حق اصدار سندات لتمويل عملية اقراض راهنـى المجوهرات ، ومن اليسير عليه أن يروج هذه السندات بفضل نفوذه فى الدوائر المالية والسياسية بباريس ! وقـد وافقت

بلدية بايون على تفصيلات المشروع وسار فعـلا فى طـريق النجاح ..

غير أن ستافيسـكى لم يكن بالرجل الذى يقنع بالربح الحلال ، مهما بلغ .. ومن هنا اتفق مع مدير البنك ـــ وكان صنيعة له يدعى « تيسييه » ـــ على طـريقة سهلة عاجـلة للثراء غير المشروع :

كانت الخطوة الأولى ان يسعى ستافيسكى لـدى وزير العمـل « البير داليمييه » ـــ وكان من البـارزين فى حـزب اليسار ـــ كى يعلن تحبيذه لسندات بلدية بايون ، وبذلك صار من السهل على السماسرة بعد ذلك أن يروجوا تلك السندات مهما ارتفعت قيمتها .. !

وكانت ورقة السند ذاتها مقسمة إلى ثلاثة اجـزاء ، او ثلاث قسائم : قسيمة تبقى لدى مراقب حسـابات البنك ، وقسيمة لدى مدير الخزانة .. والقسيمة الثـالثة هى التى تتداول فى السوق فيشتريها اى صاحب مال يرغب فى تشغيل مالهمقابل فائدة معقولة، لاسيما وهو فى الوقت نفسه لايخاطر بشىء ، وانما يضمن استرداد قيمة السند من البنك ـــ أو من مشتر آخر ـــ فى أى وقت ، ما دامت هـذه القيمة مضـمونة بالمجوهرات المرهونة التى تسـاوى اضعافها فى الواقـع ـــ أو هذا هو المفروض على الاقل ! ـــ وبهذا كان حامل السند بمثابة شخص يقرض البنك مالا كى يساعده على تسـليفه بدوره لأصحاب المجوهرات ، مقابل رهن مجوهراتهم ضـمانا لتسديد المبلغ ..

بئر من الذهب !

لكن الذى كان يحدث ، شيء آخر مخالف للمفروض تماما ! كان يحدث أن مدير الخزانة ـ وهو شريك لستافيسكى يدعى « تيسييه » ـ كان يتسلم دفاتر السندات من مراقب البنك (بعد أن يكون هذا قد وقعها «على بياض» ، قبل كتابة قيمتها عليها ـ كما يحدث فى بعض عمليات البنوك عادة ـ تسهيلا للعمل ، ولتوفر الثقة !) .. وبعد ذلك كان مدير الخزانة يجرى فى تلك الدفاتر « اللازم » ! .. واللازم هو كتابة رقم مبلغ صغير فى الخانة الدالة على قيمة السند فى كل من القسيمتين اللتين تبقيان فى البنك .. ثم كتابة رقم مبلغ آخر « ضخم » فى القسيمة الثالثة ، اى فى نفس السند الذى يطرح للتداول ! .. وهكذا قد يشترى شخص سهما مكتوبا عليه ان قيمته عشرة آلاف فرنك مثلا ، فى حين ان قيمته الحقيقية المسجلة فى البنك ـ والمضمونة بالجواهر ـ قد لا تزيد على المائة فرنك !

وليس على ستافيسكى بعد هذا إلا ان يضع فى جيبه قيمة الفرق بين المبلغين .. وبذلك يحصل على اموال طائلة ، بلغت عند افتضاح الأمر ٢٥٨ مليونا من الفرنكات !!

الخاتمة المحتومة !

غير ان ستافيسكى غالى فى استغلال حيلة هذه السندات المزيفة ، او هذه « البقرة الحلوب » ، بغية جمع المبلغ الذى يلزمه لمشروع المجر ! .. فلم يحل صيف سنة ١٩٣٢ حتى كانت رائحة الفضيحة قد بدأت تفوح ، والريب قد بدأت

تحوم حول سندات بايون .. وشرعت بعض الصحف تندد بمشروعات ستافيسكى وأعماله .. غير انه سارع إلى سد أفواه تلك الصحف بالمال ، فسكتت حينا عن مهاجمته !

لكن شركة تدعى شركة « أوربين » للتأمين كانت قد اشترت مقدارا كبيرا من السندات المذكورة ، فلما حامت الشكوك حولها انتهزت الشركة فرصة حلول يوم استحقاقها فطالبت برد قيمتها ! .. ولم يكن لدى ستافيسكى من المال ما يسد به هذه الثغرة الخطيرة .. فكان ذلك ايذانا بفضحه وكشف احتياله !

وعندئذ بادر مدير الاقليم الذى تقع فيه « بايون » ، إلى فحص الدفاتر الخاصة ببنك الرهون .. فانكشفت أمامه الأعيب التزوير .. وقبض على تيسييه .. ثم صدر بعد اسبوعين امر القبض على ستافيسكى . لكنه هرب ! .. وظل رجال البوليس يبحثون عنه من ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٣٣ إلى ٨ يناير سنة ١٩٣٤ .. حتى وجدوه أخيرا فى «شامونيكس» ! .. فلما رأى نهايته ماثلة امامه اخرج مسدسه واطلق النار على نفسه ! (وفى رواية اخرى انه لم ينتحر ، وانما اغتاله رجال البوليس الذين دهموا مخبأه ! وكانوا قد كلفوا من قبل الحكومة بإخماد أنفاسه ، خشية ان تفضى محاكمته إلى فضح شركائه من الوزراء والكبراء وأصحاب النفوذ !!) .

وأيا كانت الرواية الصحيحة فى شأن مصرعه ، فالثابت انه قد مات تاركا وراءه سلسلة فضائح كبرى لم تلبث ان أفضت إلى استقالة الوزارة ! واحدثت رجة عنيفة فى الرأى

العام ما يزال صداها يلوح للخاطر كلما ذكرت جرائم الثراء غير المشروع واستغلال النفوذ !

واستجابة لضغط الشعب الغاضب لحقوقه ، الذى عبر عن سخطه لافلات ستافيسكى من العقاب بشبه ثورة صاخبة اجتاحت باريس عدة أيام ، اذعنت الحكومة لصوت الحق فأمرت بفتح باب التحقيق فى فضائح ستافيسكى على مصراعيه ... !

وبعد عام ونصف عام من التحقيقات المتواصلة ، قدمت القضية آخر الأمر إلى القضاء ليقول فيها كلمته ! وفيما يلى عرض تفصيلى شائق لأدوار المحاكمة :

بداية المحاكمة

فى اليوم الرابع من نوفمبر سنة ١٩٣٥ ، بعيد الظهر بدقائق ، لم تكن قاعة المحكمة الكبرى تضم الا شخصا واحدا، وحارسا شابا من حراس الجمهورية ، ولكن هذا الحارس لم يكن قائما فى هذا اليوم على حراسة « الجمهورية » ، بل على حراسة خزانة هائلة يبلغ ارتفاعها مترين ، وتضم بين جدرانها الحديدية ملف قضية ستافيسكى الضخم ! .. وكان الحارس الشاب يتطلع إلى انتهاء نوبته بقلق ، وهو يحمد الله على أنه لم تقع محاولات فى الليلة السابقة لاغتصاب الخزانة ، ولو انه اصيب بالفزع منذ يومين حين ضاعت مفاتيح الخزانة من حامليها ، ولكن الله سلم فقد عثروا عليها بعد ساعة من البحث !

واخيرا حانت الساعة الواحدة بعد الظهر ، فابتدأ المحامون فى الدخول إلى القاعة ، ومعهم المدعون بالحق المدنى وجيش من السكرتيرين والأعوان . واخيرا وصل المتهمون الطلقاء والشهود ، وفى مقدمتهم ارملة ستافيسكى — وكانت مرتدية ثوب حداد رائع التفصيل ، مزين بفراء « استراخان » فاخر !

وبعد ذلك دخل المحامى العام والمستشارون ، يتقدمهم الرئيس بارنو . واقتصر العمل فى هذه الجلسة على اجراء تمهيدى يتلخص فى القرار الذى تلاه الرئيس ، « بأنه نظرا لطول المرافعات من الجانبين رات المحكمة الحاق مستشارين احتياطيين بهيئتها ، وإضافة ستة محلفين يختارون بالقرعة » .

وانسحب الرئيس والأعضاء إلى حجرة المداولة حيث جرى اختيار هؤلاء المحلفين بمشهد من المتهمين . حتى إذا تم ذلك دخل المتهمون المحبوسون على ذمة التحقيق والمحاكمة إلى القفص .. فنرى فى الصف الأول منهم : « دى بروس » المدير السابق لبنك التسليف البلدى فى أورليان . و « فارو » المثمن السابق للبنك المذكور ، وكلاهما شيخ نيف على السبعين يبدو عليه الاجهاد ! .. وهذا هو « هانو » ، نديم ستافسكى ، ثم هذا هو « هايوت » المدير السابق لمسرح « الامبراطورية » ، ثم الجنرال السابق «دى فورتو» ، الحائز على وسام الشرف من طبقة كومندوز ! أما فى الصف الثانى فنرى المتهمين بالنصب على بلدية بايون وهم : مدير البنك « تيسييه » ،

و « كوهين » المثمن ، و « دى جوان » عضو مجلس الإدارة .. اما فى الصف الثالث فنرى « جارا » محافظ بايون ونائبها السابق فى البرلمان ، جالسا بين حفنة من شركاء ستافسكى .

وما إن أعيد فتح الجلسة حتى اخذ المدعى العام فى قراءة صحيفة الدعوى التى اســتغرقت من الزمن اكثــر من خمس ساعات ! .. وكانت الخطوة التالية سماع اقوال الشهود ، وقد بلغ عددهم اكثر من ثلاثمائة شاهد ، من جميع طبقـــات المجتمع ! .. بيد ان الرئيس تلقى اكثر من مائة اعتــذار من الشهود ، يعتذر بعضهم عن الحضـــور نهائيا ، كمـــا يطلب البعض الآخر تحديد تاريخ معين لحضوره للادلاء بشهادته ، حتى لا يضيع وقته سدى ! ولهذا السبب رؤى تاجيل الجلسة إلى الغد حيث تبدأ المحكمة فى سماع الشهود ، لا سيما وقد تبين أن الشاهد الأول وهو البارون « روتشيلد » لم يحضر هذه الجلسة الأولى .

ليس للنساء تاثير عليه !

وفى اليوم التالى بدات الجلسة بمـــلاحظات فـكهة من الرئيس « بارنو » ، الذى لاحظ ان « المرحوم » ستافسكى ، ابن طبيب الاسنان الروسى ، قد اســـتطاع بحـــذقه وذكائه الوقاد ان يتلمس الثغرات فى اللوائح الإدارية فينفذ منها إلى اغراضه ، كما كان ثاقب النظر فى الرجال ، وفى النساء ايضا .. بحيث لم يكن للمراة كبير تاثير عليه ! .. بيد انه كان يدرك تمام الادراك ان المراة « آلة » نافعة وحليف قوى ، فاحسن استخدام النساء فى الحصول على انتصاراته التى خرق بهـــا القانون !

واستطرد الرئيس بعد ذلك يشرح بوضوح تام طـــرائق ستافسكى فى النصب ، واساليب احتيـــاله على المجـــالس البلدية .. وقدم لذلك كله بسرد قصة تاريخه الحافلة بالمغامرة والتحايل . وكان الرئيس « بارنو » واضحا جـــدا فى بيانه ، خفيف الروح ، بحيث استولى على مشاعر الحاضرين واحسن تصوير الحوادث حتى احسوا كانهم يعيشون فيها ! ثم اردف ذلك بتوزيع ملخص مكتوب به قائمة باســـماء المتهمين وبيان التهمة الموجهة إلى كل منهم ، حتى تتحدد معالم الموضوع أمام المحلفين ..

المتهم الأول .. فارق الحيـــاة !

ولما كان المجرم الأول وهو ستافسكى قـــد فارق هـــذا العالم ، فان المتهم الأول فى قضية ستافســـكى لم يكن هـــو ستافسكى ، بل « دى بروس » مدير بنك التسليف السابق فى اورليان .. فبدات المحكمة فى استجوابه ، يحف به محامياه . واعترف الرجل بانه كان يتقاضى عمولة مقدارها نصف فرنك عن كل مائة فرنك يوافق على اقراضها لمؤسسة ستافسكى ، ولكنه اصر على ان هذه العمولة كانت عملا تجاريا مشروعا ، ولم يسع رئيس المحكمة إلا ان ينبه المتهم والمحلفين إلى ان تلك العمولة ـــ التى تشبه ما كان يتقاضاه بعض مديرى المصالح فى مصر نظير مشتروات مصالحهم فى العهد السابق ! ـــ من شأنها ان تغرى المدير المسئول بتضخيم العمليات كى يتضخم رقم العمولة ! وقد ارتفع بالفعل رقم العمليات فى سنة واحدة إلى ٢٢ مليون فرنك ! .. كما لاحظ الرئيس ايضا ان مـــدير

البنك « دى بروس » نسى أو تناسى الحصول على موافقة رؤسائه المختصين ، وهى موافقة كانت ضرورية فى ذلك الوقت لكل قرض يتجاوز ثلاثة آلاف فرنك ! وأنه لم يكد مدير المقاطعة يلاحظ ذلك التجاوز حتى تلقى ستافسكى من دى بروس خطابا يلمح فيه إلى ضرورة التفاهم مع « المراجع العليا » !!

ولم يقصر ستافسكى فى البرهنة على حسن اتصاله بتلك المراجع العليا ، والعليا جدا ، فسرعان ما وصلت إلى مدير المقاطعة رسالة رسمية من وزارة التجارة تطلب إليه الغاء الحد الأقصى لسلطة مدير بنك التسليف فى عقد القروض مباشرة !

وكان لإعلان هذه الحقيقة الناطقة بمدى سلطان ستافسكى على وزير التجارة وقع هائل فى قاعة الجلسة تمثل فى همهمة استنكار ! واستطرد الرئيس بعد ذلك مبينا كيف تضخمت مبالغ القروض حتى وصلت إلى عشرين مليونا لقرض واحد ! وقد بلغ من غفلة بنك التسليف بعد ذلك ان مديره دى بروس وافق على رهن مجموعة من الزمرد عددها ١٥٥ فصا ، مقدرا ثمنها الحقيقى بمبلغ ٥٣ مليونا ، مع ان الموجود فى العالم كله من هذه الأحجار الكريمة لا يبلغ ذلك المقدار ! وبالرغم من هذا فقد اقرض البنك ستافسكى نظيرها ٢٥ مليونا من الفرنكات ، مع مراعاة « الاختصار فى الإجراءات »، بحيث لم يطلع الخبير المثمن إلا على ثلاث زمردات من المجموعة كلها !

تهديد بالانتحار !

وهنا وقف الشيخ الفانى « دى بروس » فى القفص واعلن بصوت مضطرب أنه لم يسلم ستافسكى الأذون المزيفة الخاصة بهذا المبلغ إلا لأن ستافسكى دخل عليه فى مكتبه واخرج له مسدسا وهدده بالانتحار حيث هو ، إذا لم يعطه تلك الأذون لانقاذه من الافلاس ! .. فخشى المدير ان يؤدى انتحار ستافسكى إلى ضياع قيمة رهونه لدى البنك ، فيعرضه ذلك لهزة مالية عنيفة ، ومن ثم أجاب عميله إلى طلبه ! .. وهنا خاطب الرئيس المتهم مبتسما :

— انك قد اعطيته أذونات مزيفة على الخزينة فى احدى وعشرين مرة ، ولنفرض أن ذلك كان انقاذا لمالية البنك وحياة ستافسكى ، فهل كان ستافسكى يؤدى امامك فى كل مرة مهزلة التهديد بالانتحار والمسدس فى يده ؟

— لقد اردت تفادى وقوع الكارثة . واى إنسان فى مكانى كان يفعل ما فعلت !

— كلا يا سيدى ، فلولا انك كنت موقنا من أن الزمردات مزيفة ولا قيمة لها ، لما تورطت فى هذه التزويرات الجديدة مهما كان التهديد ، ولما وجدت نفسك مضطرا لصرف أذون مزيفة على الخزينة !

— انت محق فى اننى ربما كنت ابله ..

— كلا ! انك لم تكن ابله ، بل مزورا ، ومزورا مع سبق الاصرار والتدبير المنظم المحكم الذى خولك الحصول بطريق

التحايل على امضاء مراجع الحسابات ، ذلك المراجع الذى لم يكن يراجع شيئا مما تفعل . لقد بعت نفسك ايها الرجل لستافسكى فأجدى عليك ذلك مالا بلغ مقداره ١١٣ الفا من الفرنكات !

ــ بل لم اجن منه الا السجن والخراب . كلا ، لست لصا ، وما اردت الا انقاذ البنك ، ثم كيف كنت اشك فى ستافسكى الذى كان يقول لى إنه يتعشى فى المجتمع مع النواب والوزراء ؟!

ــ افصح عن اسمائهم .

لكن المتهم يزعم انه لا يذكر .. ويصر القاضى .. ويصر المتهم على جوابه السابق .. وينتهى استجوابه عند هذا الحد !

الخبير المثمن ..

ويبدأ بعد ذلك استجواب « فارو » ، الخبير المثمن لدى بنك تسليف بلدية اورليان ، وهو ينتسب إلى أسرة من أعرق الأسر فى تلك المدينة ، ويتمتع ــ إلى ما قبل تلك القضية ــ بسمعة طيبة جدا ! وقد حضر للدفاع عنه نقيب محامى اورليان .

وقرر فارو ان كل الزمردات التى فحصها كانت حقيقية ، ولكنه لم يقم بفحص جميع الزمردات المرهونة ! واضاف انه لا ذنب له إذا كان قد ثبت من التحقيق ان الزمردات التى قام بفحصها كانت تستبدل بعد ذلك بأخرى مماثلة مزيفة توضع

فى خزائن البنك .. وان الزمردات الحقيقية كان ستافسكى يستعيرها من تجار الجواهر إلى اجل !

لكن المدعى العام لا يقتنع بأقوال فارو ، ويرى انه كان متواطئا ولا شك ، وإلا لما تمكن ستافسكى من ابدال الجواهر التى قام فارو بفحصها وتثمينها !

وهكذا انتهت الجلسة الثانية .

استجواب ممثل !

وكان اول المتهمين الذين استجوبتهم المحكمة فى الجلسة التالية هو المتهم الثالث « هاتو » ، وهو رجل بدين له كرش يملأ العين ، وصوت غليظ كأنه يخرجه من بطنه ! وكان هاتو قد احترف التمثيل فى صدر شبابه ، حتى إذا وضعت الحرب الأولى اوزارها جمعته المقادير بستافسكى فجعله له نديما وخدينا ، وكان يسخره فى مغامرات النصب للقيام بأعمال تتفق ومهنته الأولى على خشبة المسرح ، فكان من اهم تلك الأدوار دور سكرتير احد ثراة البرازيل ، وقد زعم انه كلفه برهن مجموعة جواهره عن طريق أحد بيوت المال ، وكان هذا البيت هو مؤسسة ستافسكى فى أورليان !

وكانت اجابات الممثل وحركاته تدل على السذاجة والبوهيمية ، وانه ارتكب ما ارتكب غير مفكر فى العواقب ، وانما هو دور فى رواية اسند إليه فسره أن يقوم به من اجل صديقه ، وحنينا إلى فنه القديم ! وقد أصر ايضا على ان ستافسكى لم يكن يطلعه على اسراره ، وانه كان يعتقد ان

ستافسكى رجل اعمال شريف وغنى ، وان الجواهر التى يتعامل فيها غير مزيفة :

— لقد رايت هذه الجواهر يا سيدى الرئيس ، واقسم انها كانت غاية فى الجمال ، ولا اعتقد ان اى جواهر حقيقية يمكن ان تكون اجمل منها ، فكيف كنت اشك فيها ؟! .. ثم انى لم اكن حاضرا حين فحص الخبير فارو الجواهر ، بل بقيت فى غرفة الانتظار ، إذ ماذا يعنينى من رجل يضع منظار الخبراء على إحدى عينيه ، وانا رجل فشلت طول حياتى فى لبس « مونوكل » بسيط ؟ اقسم اننى كنت فى جميع جلسات التثمين اظل فى خارج الغرفة ..

— لقد كنت إذن ممثلا لا يبرح الكواليس ؟ ولكن خبرنا ما مقدار ربحك من مساعدة ستافسكى فى هذه العمليات ؟

— كان مرتبى ضئيلا ، فلم اكن إلا موظفا عنده ، وكنت لا اعرف شيئا عن اسرار العمل ، فلماذا يجزل لى العطاء ؟

وهكذا انتهت أقوال هاتو ، وجاء دور الشريك الأساسى فى جميع عمليات الاحتيال التى قام بها ستافسكى ، ويدعى :

« هايوت ! »

وهو رجل ذكى ، حاضر البديهة ، سريع النكته ، ابتدره الرئيس قائلا :

— إنك صديق ستافسكى ، صديق السراء والضراء . ولهذا اسالك قبل كل شىء : « هل تعترف بأنك استفدت من سخاء ستافسكى مع علمك بمصدر ارباحه » ؟

— بل انكر هذا كل الأنكار ، فانى أعرف ستافسكى منذ سنة ١٩٢٥ ، وكان عمرى ٢٣ سنة ، فاستخدمنى مديرا لشركة تموين لم تلبث ان افلست . ولكن ادارتى فى حدود اختصاصى كانت سليمة قانونيا ، ولا علم لى بأى خرق للقوانين قام به ستافسكى فى تلك الشركة . وإذا كنت فى سنة ١٩٢٦ قد اصبت برشاش فى قضية سرقة اسهم ، اتهم فيها ستافسكى ، فاننى انما أردت مساعدته بدافع اخوى صرف ، ثم حفظت القضية ضدى بعد ذلك .

ثم شرع هايوت بعد ذلك يروى للمحكمة كيف افتتح ستافسكى مسرح الامبراطورية واوكل امره إليه ، وكيف افلس على يديه ! ثم كيف أسس بعد ذلك « اصطبلا » لخيول السباق عهد به إليه ايضا .. ثم كيف استقر به المطاف اخيرا مديرا لمؤسسة الكس (وهو الاسم المستعار الذى انتحله ستافسكى حين انشأ المؤسسة لاخفاء ماضيه الحافل الذى يتنافى مع نقاء سمعة رجال المال) .. وكيف ارتفعت جملة المبالغ التى تعامل بها بوصفه مديرا لتلك المؤسسة إلى اكثر من عشرين مليون فرنك !

فلما واجهه الرئيس بفواتير تثبت انه كان يشترى زمردات مزيفة باستمرار فى اليوم السابق لتاريخ كل طلب قرض من بنك التسليف البلدى ، وايصالات تثبت اقتراضه زمردات صحيحة من تجار الجواهر فى تاريخ كل يوم من ايام فحص الرهونات بواسطة الخبير المثمن ، لم يزد على ان ابتسم ابتسامة صفراء .. !

اما فيما يتعلق بعمليات اذون الخزينة المزورة ، فقد صمم هايوت على انه يجهل كل شيء يتعلق بها ، وأصر على الانكار حتى حين واجهه رئيس المحكمة بانه هو الذى تولى بيع ما قيمته خمسة ملايين فرنك من هذه الرهون للجمهور المخدوع !

— وكيف اتعامل فى كل هذه الملايين وانا لا أملك اليوم ثمن قميص ؟

— انك لم تكن تملك ثمن قميص فى سنة ١٩٣٠ حينما تزوجت ، وإذا بك بعد قليل تستأجر مسكنا خاصا اشبه بالقصور ايجاره خمسة وثلاثين الف فرنك ، وثمن الأثاث فيه ٨٠ الف فرنك . وقد اشتريت من الملابس فى ٢٨ شهرا ما قيمته ٨٣ الف فرنك !

— لا انكر اننى احب الاناقة ، وهى ليست جريمة !

وضجت القاعة بالضحك لهذا الجواب ..

ولما سأله بعض المحامين عن الشخصيات الكبيرة التى كان يراها فى صحبة ستافسكى ، لاذ بالصمت ورفض التصريح بأسمائهم !

صلة ستافسكى بالوزير « بيير لافال »

ونودى بعده المتهم الرابع « الجنرال دى فورتو » ، الذى جرد من رتبته العسكرية ، ولكنه لم يتجرد من طبيعة المقاتل .. فانبرى يدلل للمحكمة على براءته قائلا :

— لست إلا كبش الفداء فى هذه القضية ، زج باسمى فيها لغرض سياسى بحت ، كى تنصرف الأذهان عن تعقب

المجرمين الحقيقيين .. مع اننى مواطن مخلص شريف ، كان ابى وزيرا ، وأبليت فى الحرب بلاء سجلته بلاغات الحربية بالثناء المستطاب !

والواقع أن دى فورتو كان عضو مجلس الإدارة فى مؤسسة ستافسكى ، والتهمة الموجهة إليه تنصب على انه اشترك — مع علمه بموضوع الجريمة — فى صرف قيمة أربعة أذون مزيفة قيمتها خمسة ملايين فرنك ، نظير ربح شخصى له مقداره عشرة آلاف فرنك !

— اقسم إلى آخر رمق من حياتى انه لم يكن لى علم بتزييف هذه الأذون الصادرة عن هيئة رسمية . واننى كنت اثق فى ستافسكى ثقة عمياء ، لا سيما وقد كنت اراه على صلة بشخصيات عظيمة ، منهم مسيو « بيير لافال (١) » الوزير السابق ! وكيف يخطر ببالكم اننى كنت اخاطر بالوقوف فى هذا الموقف المشين لو أننى علمت انها اذون مزورة ؟ ثم كيف تكون مزورة وهى صادرة من هيئة رسمية ؟ انها قد تكون غير سليمة ، أو خاطئة ، ولكنها لا يمكن ان تكون مختلقة مثل اوراق النقد المزيفة ! ولم نكن نحن وحدنا المتجرون فى هذه الأذون ، فلماذا لم يتعقب القانون الآخرين ؟ اترى تكيل العدالة بكيلين فى هذا الزمان ؟ ولماذا لم تتعقب النيابة ستافسكى منذ سنة ١٩٣١ ؟

---

(١) هو مسيو لافال الذى صار فيما بعد رئيسا للوزراء ثم اعدم بعد الحرب الأخيرة بتهمة الخيانة العظمى والتعاون مع الألمان !

وعند هذا الحد انتهت اقواله ، فرفعت الجلسة على أن تعود للانعقاد فى اليوم التالى .

قضية بنك بايون

وكان الدور قد حل لنظر الشق الثانى من القضية ، الخاص بحوادث الاحتيال على بنك تسليف بلدية بايون ، فاستدعى الأمر اعادة استجواب المتهم الأول دى بروس :

— يبدو انك كنت همزة الوصل بين بنك تسليف بلدية اورليان وبنك تسليف بلدية بايون ؟

— ليس هذا صحيحا على الإطلاق .

وجلية الأمر ان دى بروس كان قد ترك وظيفته فى اورليان ، فاوفده ستافسكى إلى بايون حيث بدأ بشراء أثاثات للمؤسسة الجديدة قيمتها ٢٠ الف فرنك ، بعد أن افهمه ستافسكى ان هذه المؤسسة لها راس مال محترم و « سند » محترم ايضا فى شخص السيد «جارا» نائب بايون ومحافظها! .. ثم عرض ستافسكى على دى بروس ذلك العرض .

— فأنت اذن قد قبلت العمل مع ستافسكى من جديد فى بايون ، بعد الذى كان بينك وبينه فى اورليان ، حيث ساعدته فى اصدار أذون مزيفة على الخزينة قيمتها ٢١ مليونا ؟ !

— ان ثقتى به كانت لا تزال مطلقة ، يضاف إلى هذا أن تعيينى مديرا لبنك تسليف بلدية بايون لم ينل قبولا لدى مدير المقاطعة ، فتمكن ستافسكى من تعيين شخص آخر هو

تيسييه .. ولما كان تيسييه صديقا لى فقد توليت أنا تدريبه على منهاج العمل .

— على منهاجك الخاص طبعا ؟ ومن هذا القبيل اصدار اربعة اذون باربعة ملايين من الفرنكات ، دون ان تكون هناك حركة قروض تجعل البنك فى حاجة إلى ذلك المبلغ الجسيم ، وبدون موافقة من مديرية المقاطعة على اصدار أذون بهذه المبالغ الضخمة ؟

— أن النائب جارا قال لى أن هناك عملاء سيقترضون خمسة ملايين فرنك — مقابل رهن جواهرهم — فلم اجد مغالاة فى اصدار أذون بأربعة ملايين .

وبذلك انتهى استجواب دى بروس ، وبدأ استجواب تيسييه .

مرتبه السنوى ٤٠ الف فرنك !

وبرز تيسييه من الصف الثانى فى القفص إلى الصف الأول ، فاذا هو رجل فى الثانية والستين جميل الصورة ، نموذج خالص للباريسى الأصيل ! فى تصفيف شعره وتنسيق شاربيه اناقة ملحوظة ، فى غير مغالاة او ابتذال ، وهو إلى هذا يبدو هادىء الأسارير ، رزينا ، جادا .

وقد بدأ بعرض طويل لتاريخ معرفته بستافسكى ، وكيف بهر انظاره ببذخه وبطانته حين عمل تيسييه فى شركة من الشركات القديمة التى كان يديرها المحتال .. حتى إذا كان شهر ابريل سنة ١٩٣١ عرض عليه ستافسكى وظيفة مدير

بنك تسليف بلدية بايون بمرتب ٤٠ر٠٠٠ فرنك فى السنة ، بخلاف المسكن والاضاءة . وكان التعيين تحت التمرين لمدة بضعة شهور .

وبدا رئيس المحكمة يناوشه بالأسئلة .

— كم تكلفت الخزانة العامة للبلدية من جراء إصدار السندات المزيفة ؟

— لا أدرى بالضبط . وإن كنت قد سمعت أنها تكلفت مائتى مليونا .

— بل اكثر من مائتى مليون .

— لا شأن لى على كل حال بهذا كله ، فان « جارا » ، وهو نائب المدينة ومحافظها ورئيس مجلس إدارة البنك اصدر إلى الأوامر فنفذتها ، لأنه رئيسى الأعلى بطبيعة الحال .

— لا طاعة لرئيس على مرءوس فى معصية للقانون . وأنت تعلم حدود القانون فى هذا الأمر لأنك محاسب قانونى !

— لقد علل لى « جارا » ضرورة التفرقة بين الرقم المكتوب على قسيمة البنك والرقم الآخر المكتوب فى قسيمة العميل بأن الفرق لازم لتمويل عمليات سرية فى باريس لاسبيل إلى اثباتها فى الدفاتر .

— لا اظنك انت أيضا تريد ان تدعى حسن النية ؟

— إنى لم اقبض شيئا من هذا المال الحرام .

فكان جواب الرئيس على هذه الجراة ابتسامة تدل على انه يدخر لهذه النقطة رأيا آخر وهجوما آخر . فالمفهوم لدى النيابة أن تيسييه لم يكن ليجهل أن الزمردات المرهونة مزيفة كأخواتها المرهونة فى اورليان ، وإلا لما اصدر الأذون المزيفة . وقد واجهه الرئيس بهذه الحجة ، فاحمر وجهه وارتعدت يداه ، ولاذ بالصمت ! .. فقال له الرئيس :

— خير لك ان تعترف بالحقيقة . ولست اقول ذلك كى أستدرجك ويكون لى فضل انتزاع الاعتراف منك ، بل مراعاة منى لماضيك .. فقد كانت لك فى الحرب صحيفة مشرفة وحصلت على النوط التذكارى !

وبدا الاضطراب على وجه تيسييه ، وزاد احمرار وجهه واضطراب يديه .. وبدا على زجاج منظاره ما يشبه الضباب لما غشى عينيه من الدمع . فهل تكلم واعترف ؟ كلا . بل لاذ بالصمت . فصاح به الرئيس :

— ان شريكك فى التهمة — المثمن هنرى كوهين — اعترف بانه قدر الزمردات بأكثر من قيمتها كثيرا بناء على أمر منك ! وانك اكدت له ان الموضوع لن ينكشف ، لأن الزمردات ستسحب وتدفع قيمة الرهن فى الوقت المناسب !

— وما قول الرئيس فى أن مندوبا من وزارة التجارة زار البنك واثنى على طريقته فى العمل ، وأوصى بالتوسع فى هذه العمليات ؟

— اذكر لنا تفاصيل هذه النقطة .

— لقد اقيمت لمناسبة حضور مندوب وزارة التجارة ،

وهو السيد قسطنطين ، مأدبة غداء تكريما له برئاسة السيد جارا نائب بايون ومحافظها فى نفس الوقت . وكان بين الحاضرين وكيل المقاطعة ، ومدير الايرادات ، ورجال المحافظة ، وأعضاء مجلس إدارة البنك . وكنت انا شخصا عاديا ، بل انى لم اجلس إلى مائدة الشرف الكبرى ، مما يدل على أن ما بين السيد قسطنطين ومجلس إدارة البنك لم اكن انا طرفا فيه ، فلو كنت طرفا فى التواطؤ لأجلسونى بينهم !

الزمردات السبع الحقيقية !

وحينئذ هب احد المحامين طالبا سماع شهادة السيد قسطنطين ، فوافق الرئيس على ذلك . ولكنه التفت إلى « تيسيبه » قائلا :

— ولكن ذلك لا ينفى انك اصدرت سندات مزورة بأكثر من مائتين وثمانية وثلاثين مليونا .. وانك كنت تزور او تقلد امضاء المراجع « بييه » ، الذى بلغ من اهماله الا يراجع السندات وأن ينسى توقيعها ! .. وانك حاولت تصريف بعض هذه الاذون بنفسك . يضاف إلى هذا انك رددت إلى ستافسكى سبعة رهون من الزمرد دون أن يسدد قيمة القروض المستحقة عليها !

— اعترف بأن الشطر الأخير كان إجراء غير سليم ، ولكنى أقدمت عليه اطاعة لأمر رئيسى النائب جارا .

— انه ليس مجرد إجراء غير سليم .. فان هذه الزمردات كانت هى الجواهر الوحيدة ذات القيمة الحقيقية بين جميع ودائع ستافسكى !

— انه خطأ وقع منى بحسن نية ، وعن غفلة فى اطاعة رئيسى « جارا » .

وهكذا انتهت اقوال تيسيبه ، وبدا المحامون يمطرونه بالأسئلة ، بيد ان محاميه طلب إليه ان يشرح للمحلفين معلوماته عن بطانة ستافسكى ! وكأنما كان تيسيبه ينتظر هذا السؤال بفارغ الصبر ، فقد اندفع يقول :

— لقد قال لى ستافسكى ذات يوم ونحن فى محطة سكة حديد « بايون » إنه مسافر إلى « بواتييه » كى يقابل السيد « هولان » ، ويجتمع بوزير العمل « فرانسوا البير » ، كى يقدم للأخير خمسة ملايين فرنك يدعم بها جريدته . فلم يكن فى وسعى ان ارتاب فى رجل مثل «جارا» وهو النائب والمحافظ ، ولا فى ستافسكى الذى يختلط بالنواب والوزراء ويبدى له جميع الموظفين فروض الاحترام !

وبهذه الكلمات انتهى دور تيسيبه ، فأخلى مكانه لشريكه : المثمن كوهين !

فى الدنيا نساء شريفات !

وكان المثمن كوهين رجلا قصيرا هزيلا ، تحمل صحيفة سوابقه بعدة احكام فى قضايا نصب وتبديد امانات وحجوزات واصدار شيكات بدون رصيد والاعتداء على افراد الضبطية القضائية .. الخ .

وشرح كوهين بالتطويل كيف عرف ستافسكى معرفة جوار فى السكن . ثم اعترف بأنه غالى فى تقدير الزمردات

التى عرضها للرهن ، ولكنه قرر أن تيسييه كان يزور بعض تقارير التثمين ! .. وانه رأى بعينيه تقارير ليست بخطه ولا بخط والده الذى كان مثمنا قبله ثم توفاه الله . فلما فاتح تيسييه فى ذلك طمأنه هذا بأن ستافسكى سيسوى كل هذه الحسابات فى شهر سبتمبر .. فاطمأن ولم يمانع فى المسايرة، ثقة منه بصديقه ستافسكى ، الذى أقنعه انه بسبيل إنشاء مؤسسة جديدة تتولى تسديد جميع هذه القروض ، وسيكون على رأسها سفير الفاتيكان وبعض مستشارى مجلس الدولة والمديرين والوزراء السابقين !

ويلاحظ ان كوهين لم ينكر انه مذنب ، ولكنه ادعى انه كان معذورا ومجنيا عليه ، لوقوعه تحت تأثير ستافسكى الذى بهره بالأوساط العالية التى يعيش فيها ، وبشخصيته وثرائه وبذخه !

ــ لقد كان هذا الرجل ساحرا يا سيدى الرئيس ، فلو انه حدثك ساعة واحدة فقط ، لاستولى على ارادتك يا سيدى الرئيس وسخرك وفق هواه !

وضجت القاعة بالضحك ، بينما استأنف كوهين كلامه :

ــ تصور يا سيدى الرئيس أن البارون امبان صاحب شركة المترو فى باريس وضاحية هليوبوليس فى مصر اخرج فى سبتمبر سنة ١٩٣٢ من كازينو « بياريتز » ، بعد مشادة بينه وبين سيدة يبدو أنه احتضنها أثناء الرقص اكثر مما يليق ! وكانت هذه السيدة بالصدفة امرأة شريفة ، وفى الدنيا نساء شريفات يا سيدى الرئيس ..

وضجت القاعة بالضحك مرة أخرى ، بينما استطرد الشاهد :

ــ ... فاذا بستافسكى يمسك التليفون ويتحدث مع باريس بضع دقائق ، فتح على أثرها باب الكازينو أمام البارون على مصراعيه ! .. بل هناك اكثر من هذا يا سيدى الرئيس ، وهو اننى اصغيت ذات يوم لصوت ضميرى فكتبت إلى إدارة الأمن العام اعرض عليها الإدلاء بمعلومات خطيرة . وإذا بستافسكى يوبخنى بعد ذلك توبيخا شديدا ، فدهشت كيف عرف الحقيقة وانكرت . وعندئذ اخرج ستافسكى من جيبه خطابى إلى إدارة الأمن العام واطلعنى عليه ، فشعرت اننى اسير هذا الرجل الذى لا يغلب ! بل ان هناك يا سيدى الرئيس اشياء أعجب من هذا ولكنى لا املك التصريح بها لاننى لا املك الدليل عليها .

ــ بل صرح بكل مالديك ولا تخف .

ــ اعلم اذن اننى بعث لستافسكى جملة مجوهرات كى « يهديها » لفريق من النواب ، لا اذكر منهم فى هذا المقام إلا اسم النائب فرانسوا البير ! واعلم ايضا يا سيدى الرئيس أن ستافسكى كثيرا ما كان يتعشى مع السيد « سير » وزير التجارة ونجله ، وان المفتش قسطنطين كان دائم التردد على مكتبه ! فاذا راعيت كل هذه الاعتبارات يا سيدى الرئيس لم تستطع أن تديننى بنية خالصة وضمير مستريح .

ولم يجبه الرئيس بشىء بطبيعة الحال .. فجلس كوهين، ولم تلبث أن رفعت الجلسة .. وقد اثرت معلومات كوهين واقواله الأخيرة فى الراى العام تأثيرا مدويا !

مفتش البوليس .. موظف عند ستافسكى !

وبدأت الجلسة التالية بسماع أقوال « دى جوان » مفتش البوليس الذى اتهمته النيابة بأنه كان من محاسيب ستافسكى وقد اعترف انه كان يعرف ستافسكى من زمن طويل ، وانه كان لا يناديه إلا باسم اسكندر الذى انتحله تخلصا من اسم ستافسكى المشبوه ! وكان على علم كذلك بجميع سوابقه القديمة فى النصب والاحتيال .. وكانت لستافسكى اليد الأولى فى اعادته إلى الخدمة العاملة من الاستيداع ! .. كما اعترف الشاهد انه عمل موظفا لدى ستافسكى اثناء مدة الاستيداع ، ثم قبل بعد ذلك أن يكون مندوب الحكومة فى مجلس إدارة بنك التسليف فى « بايون » ، مع اطلاعه على حقيقة ستافسكى وتصرفاته المالية !

ولكن « دى جوان » اصر على انه لم يقبل العمل إلا على اساس نظافة العمليات المالية وسلامتها قانونيا .. وهنا انبرى الرئيس لتنفيذ هذا الزعم من واقع مستندات البنك ، ومنها يتضح انه أجاز رهن لآلىء صناعية على اعتبار انها طبيعية ، وأن ستافسكى كان يدفع له ايجار منزله الذى يبلغ ١٦ ألف فرنك ، بخلاف نسبة فى الأرباح بلغت مبلغا ضخما !

ولم يكن مفتش البوليس السابق رجلا موهوبا فى صناعة الكلام ، فكان الجمهور يضحك من إجاباته .. ولم يطل استجوابه فانه لم يلبث أن أخلى مكانه لمتهم اخطر منه هو النائب « جارا » !

يتراشقان بالتهم !

ونودى نائب بايون ومحافظها السابق ، الذى اشتد هزاله فى السجن حتى صار يخب فى ملابسه الواسعة جدا .. فوقف معتمدا على عصاه ، يصغى فى صمت لتلخيص الرئيس لتاريخ حياته الاجتماعية والسياسية .. ثم عقب على كلام الرئيس فشرح للمحكمة كيف فكر فى سنة ١٩٣٠ فى انشاء بنك تسليف فى بايون ، لقربها من « بياريتز » ، التى يكثر بين زبائنها من تدفعهم الخسارة فى القمار إلى رهن جواهرهم ، وكيف ان وزير التجارة اقر هذه الفكرة وشجعها . وكيف أن ستافسكى — الذى عرفه باسم اسكندر — بدا له فى مظهر السائح الغنى الذى ينفق ببذخ فى كازينو بياريتز .. وكيف قدمه إليه صديق مشترك من النواب السابقين — ابى ان يذكر للمحكمة اسمه ! — وتطرق الحديث إلى فكرة بنك التسليف ، فاذا بالسيد اسكندر من الخبراء فى هذه المؤسسات :

« وراح يحدثنى عن النجاح الباهر الذى احرزه فى أورليان ، وعن فوائد ذلك المشروع لمدينتنا ماديا واجتماعيا ، فوثقت به وصدقته لاننى رأيته متصلا بأرقى الدوائر السياسية والدبلوماسية ! .. بل كانت له صلات قوية بالأوساط المحترمة فى القضاء العالى . ولو اننى طلبت معلومات عنه من إدارة الأمن العام لشهدت فى حقه أحسن شهادة ! وقد اكون متساهلا او مفرطا ، لانى وثقت برجل لا اعرفه معرفة اكيدة ، لكن ذلك ليس جريمة تستحق العقاب » .

— على رسلك .. فاننا لم ندخل بعد فى موضوع الجرائم المنسوبة إليك !

فلم يكترث جارا لهذه الملاحظة من جانب الرئيس ، وإنما انطلق فى لهجته الخطابية التى حذقها من اشتغاله بالسياسة طيلة ربع قرن :

— لقد صدقت ما قاله لى ستافسكى من ان هذا الإقبال على رهن الجواهر وبهذه القيمة العالية ناتج عن نشوب الثورة فى اسبانيا ، وخوف وجهاء اسبانيا من نتائجها ، بحيث اخرجوا كنوز آبائهم وعرضوها للبيع أو للرهن ! ولكنى لم أهتم مطلقا بتتبع ارقام السندات او القروض ، كما ينسب إلى المدعى العام ذلك .

وهنا هب تيسييه محتجا ، فقال جارا :

— أنه يريد أن يهرب من المسئولية بإلقائها على كاهلى !

وأخرج من جيبه خطابا صادرا من تيسييه بتاريخ ١٣ ديسمبر سنة ١٩٣٣ ، قدمه للرئيس وهو يقول :

— كنت قد طلبت من تيسييه بيانا بقيمة السندات المتداولة ، فرد على بهذا الخطاب مقررا انه اقل من خمسة وعشرين مليون فرنك . مع ان الواقع انه كان اكثر من ٢٣٨ مليونا ! وهذا يدل على اننى كنت ضحية خداع تيسييه ، ولم يكن هو ضحيتى ! وأؤكد للمحكمة اننى لم اكن اعرف حقيقة ستافسكى وعملياته المالية . اما موافقتى على تعيين دى بروس مديرا للمصرف ، فكان الدافع اليها انه خبير بذلك

العمل ، فقد تولى إدارة مصرف أورليان . وكانت شهادة وزارة التجارة على لسان مفتشها العام قسطنطين تشيد بكفاءة دى بروس ، كذلك سمعت ثناء على تسييه تمام امانته فى ترشيحه لذلك المنصب حينما رفض مدير المقاطعة تعيين دى بروس . ولا انكر أن اسكندر (ستافسكى) هو الذى زكاه عندى ، فقد كنت مخدوعا فيه ، شأنى فى ذلك شأن الناس جميعا ..

— وهل من مقتضيات ذلك ان تدلى إلى مجلس إدارة البنك بوصفك رئيسا له ببيانات مضللة ، فتزعم ان لديك مكتتبين بمبلغ خمسة ملايين فرنك ، كى يوافق مجلس الإدارة على اصدار سندات جديدة بملايين الفرنكات ؟ ثم بعد ذلك تشطب من محضر تلك الجلسة اسمك لتضع مكانه اسم دى بروس ؟

فلم يحر جارا جوابا .. وتصبب جبينه عرقا !

وبهذا رفعت الجلسة ، كى تعود للانعقاد فى اليوم التالى . وإذا « جارا » يشغل الخواطر بانكار ما جاء على لسانه فى التحقيق الذى أجرته النيابة من اعتراف بالتزوير فى اذون الخزينة ومن حمايته للتزوير الذى قام به تيسييه بتقليده امضاء المراجع .. كما انكر جارا صدور خطابات تتضمن اعترافه بهذه الوقائع ، مما حدا بالرئيس إلى ندب خبير فى الخطوط لحسم هذا الموضوع !

وغالى جارا فى تمثيل دور الحمل البرىء ، فأعلن فى لهجة مسرحية ما سبق أن قرره من طهارة ذمته :

— ان كل ذنبى اننى لم اهتم بما لا يعنينى من التفاصيل ، ولكنى لم آت إلى هنا لهذا السبب ، ولازلت فى انتظار تقديم الدليل على ادانتى او اشتراكى فى الجريمة المزعومة !

فجابهه الرئيس بكل هدوء بانه لا يمكن اتهام تيسييه وحده بتزوير السندات ، لأن جارا قد اصدر اذونا بأربعة ملايين فرنك قبل ان يصدر امر تعيين تيسييه مديرا للمصرف ، وذلك فى اليوم التالى لافتتاحه ! بل إنه فضلا عن ذلك ضخم ميزانية المصرف من عشرين مليونا إلى ثمانين مليونا فى سنة واحدة هى سنة ١٩٣٢ ، كى يوهم المكتتبين فى السندات المزيفة بأن حالة المصرف مزدهرة كل الازدهار !

— فاذا لم يكن هذا هو الاحتيال والغش فماذا يكونان ؟.. ولا تنس انك اعترفت فى التحقيق بسفرك فى يولية سنة ١٩٣٣ برفقة ستافسكى لمقابلة وزير العمل ومدير الضمان الاجتماعى كى يأمرا بالاكتتاب فى سندات بايون المزيفة !

— انى أنفى اننى فعلت ذلك ، مع أن وزير العمل فى ذلك الوقت (فرانسوا البير) كان من رجال حزبى السياسى !

— وهل تنكر أيضا انك قمت بتهدئة خواطر حملة السندات المزيفة حين طالبوا بالسداد مؤكدا لهم الحصول على حقهم فى ديسمبر سنة ١٩٣٣ ؟

— لا انكر ذلك ، ولكنى كنت معتمدا على قيمة الجواهر المرهونة . وتحت يدى خطاب أقدمه للمحكمة بتاريخ ٢١ نوفمبر سنة ١٩٣٣ صادر من وزير التجارة ردا على طلبى

مراجعة عمليات البنك ، يقول فيه إن تلك المراجعة سابقة لأوانها وليس لها داع . مما يدل على ان عملية البنك كانت سليمة فى مظهرها ، وانا رجل سياسى غير مختص فى المسائل المالية فكان من الطبيعى ان لا اكتشف التلاعب من تلقاء نفسى. وهل يعقل إذا كنت شريكا فى التزييف ان اطلب بنفسى المراجعة ؟

— ان المراجعة الحسابية لا يمكن ان تكشف التدليس ، لأن القسيمتين الموجودتين فى البنك تحملان أرقاما متطابقة وذات قيمة متواضعة !

— من الثابت اننى لم افد ثروة من وراء تقلدى رياسة مجلس إدارة البنك . بل لقد حجز على مكافأتى البرلمانية فى يونية سنة ١٩٣٤ سدادا لدين على ، فأقرضنى اسكندر مائتى الف فرنك . فلو كنت شريكه فى التزوير لما كانت بى حاجة إلى هذا القرض !

— ولكن عند القبض عليك وجدت عندك ثروة تقدر بأربعمائة الف فرنك . فكيف تعلل هذا ؟

— ان لى شقيقة ثرية أهدتنى هذا المبلغ لأصلح به شأنى .

فلما انتهت اقوال جارا ، قام الرئيس بمواجهته مع تيسييه كى تتضح الحقيقة فى مسألة الخطاب الذى قدمه جارا بخط تيسييه وفيه بيانات غير حقيقية عن سندات البنك ، تقل كثيرا عن قيمتها المزورة . فقال تيسييه :

— لقد كتبت هذا الخطاب كما أملاه على السيد جارا تليفونيا . ولم يكن امامى إلا اطاعة نائب المدينة ومحافظها ورئيس مجلس إدارة البنك فى الوقت نفسه ، فهو منى بمثابة الأسد من « النملة » ! وقد كان هذا شأنى دائما فى كل ما يأمرنى به السيد جارا .

وكانت لهجة تيسبيه تنبىء عن الصدق . ولكن المتهم « هايوت » يتدخل لصالح جارا فيقرر ان ستافسكى كان قد اعترف له بأنه أوهم تيسبيه بأن جارا على علم بكل شىء ، حتى لا يتردد فى تنفيذ المطلوب . ولكن الواقع ان جارا لم يكن يعرف شيئا !

يؤمن على حياته بثمانية ملايين فرنك !

وجاء دور المتهم التالى « جيبان » مدير مؤسسة «الثقة» للتامين ، فبدأ حديثه بالاحتجاج على تقرير المفتش يونى الذى عزا إليه أنه كان ينفق عن بذخ ، واقسم انه كان يدير المؤسسة بكل امانة ، وأن ذمته طاهرة من كل شائبة !

وقد التقى جيبان بستافسكى لأول مرة فى سنة ١٩٢٩ ، حين اتصل ستافسكى بالمؤسسة فى بضع عمليات ، وكان ستافسكى مؤيدا من وزارة العمل ! .. كما أن مجلس الإدارة كان ميالا إلى اتمام الصفقة ، فلم يجد جيبان مانعا من اتمامها . وفى سنة ١٩٣٠ اشترت شركة الثقة للتأمين اول اذن من اذون اورليان المزيفة وقيمته مليون فرنك . ثم توالت بعد ذلك عمليات الشراء حتى قاربت احد عشر مليونا فى مارس سنة ١٩٣١ . وفى يوليو التالى جاء ستافسكى إلى مكتب شركة الثقة وسدد خمسة ملايين فرنك قيمة هذه الاذون ...

« ووضع ستافسكى كومة أوراق النقد على المكتب وسألنا : وماذا انتم صانعون بهذا المبلغ ؟ يجب أن تشتروا به سندات على خزينة بلدية بايون التى ستصدر عما قريب » ووثقنا به فاشترينا سندات بلدية بايون !

وهكذا تبين ان شركة الثقة للتامين كانت هى العميل الذى قرر جارا لمجلس الإدارة يوم افتتاح البنك انه سيشترى سندات بخمسة ملايين فرنك .

وراح جيبان يصف الجو الذى كان يعيش فيه ستافسكى ، وكيف كان يختلط بأرقى الأوساط .. وكيف امن على حياته فى شركة الثقة بثمانية ملايين فرنك ، الأمر الذى حدا بجيبان أن يكون شديد المجاملة لهذا العميل الضخم ! ثم حكى للمحكمة كيف دخل ستافسكى يوما كازينو القمار فى « كان » ، فوجد مائدته بقاعة الطعام قد شغلها قنصل امريكا ، فاذا بمدير المطعم ورئيس الخدم وجميع الموظفين يسرعون باجلاء القنصل عن المائدة قبل أن يتم طعامه !

واكد الشاهد انه كان يتصل تليفونيا بتيسبيه عند شراء كل سند من سندات بايون يحمله إليه ستافسكى ، للتأكد من ملكيته له حقا . وهكذا انزلق إلى شراء ما قيمته ٢٣٨ مليونا . وساعد على اقبال الشركة على هذه السندات أنها تلقت من السيد « داليمييه » وزير العمل فى ذلك الحين ، الذى تولى بعد ذلك وزارة العدل ، توصية بتحبيذ شراء سندات خزائن البلديات وتوظيفها ، كوجه من وجوه الاستثمار . وقد دل هذا الخطاب على ضخامة نفوذ ستافسكى . وساعد ذلك على الثقة به وبسندات بايون ثقة مطلقة !

وابتسم رئيس المحكمة وعاجل جيبان بالسؤال التالى :

ـ وكيف تعلل استيلاءك على شيكات من ستافسكى كان أحدها بمبلغ مائة الف فرنك ؟

ـ كنت قد رجوت ستافسكى أن يلعب لى على جواده سابين بمبلغ أربعة آلاف فرنك فى سباق سان كلو ، فربحت من هذا الرهان ٩٧ الف فرنك .

ـ وهل اشتريت لنفسك شيئا من سندات بايون التى اشتريتها لشركتك ؟

ـ انى لا اشترى إلا سندات شركتى واسهمها . ولما كانت شركتى قد اشترت من سندات بايون عددا ضخما ، فانى أعتبر بمثابة مشتر بطريق غير مباشر لتلك السندات ..

وترك جيبان المكان لمتهم آخر هو الصحفى الكبير « دى بارى » ..

يتوسط له لدى الوزير !

وكان « دى بارى » من المتهمين الطلقاء ، فقرر انه عرف ستافسكى فى سنة ١٩٣٢ ، وكان يتوسط بطانة من الأصدقاء ذوى النفوذ ، بينهم نفر من رجال القضاء العالى ! وكان تعرفه به فى كازينو بالريفييرا ، ثم التقى به بعد ذلك فى باريس ، فطلب إليه ستافسكى أن يتوسط لدى إدارة الأمن العام فى تسوية حادث وقع أثناء اللعب فى كازينو الريفييرا ، فقام دى بارى بتسويتها ، ثم تغدى معه فى مطعم من أرقى

المطاعم ، فهاله ما تبينه من حفاوة ارقى الناس بصديقه الجديد ! ثم تنازل له دى بارى عن صحيفته « الارادة » (واكد الشاهد للمحكمة انه لم يستفد من ذلك التنازل مطلقا !)

وكانت التهمة الموجهة إلى دى بارى انه توسط بصفته الصحفية والسياسية لدى وزير العمل « داليمييه » كى يعطى ستافسكى توصية رسمية إلى شركات التأمين باستثمار اموالها فى سندات بنوك تسليف البلديات ! ولكن دى بارى انكر أنه تقاضى اى أجر عن هذه الوساطة . فعقب الرئيس على ذلك بأن ستافسكى كان يعمل فى ذلك الوقت فى تأسيس شركة « المعرفة » التى ستتولى الانفاق على احياء صحيفة « الارادة » المملوكة لـ « دى بارى » ! كما ان دى بارى توسط فى الوقت نفسه لوقف حملة الصحفى داريوس على بلدية بايون ومحافظها جارا !

فأجاب دى بارى بأن هذه الوساطة كانت طبيعية ، لأن داريوس زميل قديم و « جارا » صديق قديم ، وهو شخصيا رجل شهم معروف عنه وساطة الخير لفض المنازعات ! ..
وهنا فاجاه رئيس المحكمة بالقول متهكما :

ـ لعل من قبيل المصادفة وحدها اذن ما اتضح عند مراجعة الحسابات من ان انشاء شركة « المعرفة » كلف ستافسكى ثلاثة ملايين ونصف من الفرنكات ! .. فهل انفق ستافسكى هذا المبلغ من أجل احياء جريدتك .. لوجه الله ؟

وبرغم ذلك فقد ختم دى بارى اقواله بطلب البراءة

متعجبا من توجيه التهمة إليه على الإطلاق ، وتلاه بعد ذلك المحامى « بونور » الذى ابدع فى الدفاع عن نفسه ، وكانت تهمته أنه تقاضى من ستافسكى اتعابا مبالغا فيها ! .. ففند هذه التهمة مبينا انها لا تنطوى على جريمة ، ومؤكدا أنه لم ينصح لستافسكى مرة واحدة بالاجتراء على خرق القوانين ، وان الدفاع عن موكله هو واجب المحامى الذى تفرضه عليه مهنته .

ولكن الرئيس ظل يلاحقه بالأسئلة عن تواريخ الشيكات التى تلقاها من ستافسكى ، ولا سيما تلك التى تطابق نجاح احدى عمليات الاحتيال وبيع سندات الخزينة المزيفة ! .. فكان جواب بونور انها مصادفات ليس إلا .. !

المحامى الذى ساعد ستافسكى على الفرار !

واعقب بونور محام آخر يدعى « جورج جوليبه » وجهت إليه التهم نفسها التى وجهت إلى بونور . وكان جورج رجلا مسنا هزيلا ، متواضع المظهر ، يكاد يبدو عليه الفقر . وقد انكر انه كان لستافسكى سوى محام يقوم بواجبه ، فلم يكن صديقه فى يوم من الأيام ، ولم يقدمه إلى زوجته ، أو يدعه لتناول الطعام على مائدته .. إلى آخر مظاهر رفع الكلفة التقليدية . وكانت التهمة الموجهة إليه هى مساعدة ستافسكى على الهرب فرارا من قضية نصب وقعت قبل عمليات الاحتيال التى كان ميدانها اورليان وبايون ، فقد سعى لتأجيل القضية نحو عشرين مرة تمكينا لستافسكى من الفرار فى هذه الأثناء .. ثم عرف مقره بعد فراره ومع ذلك لم يبلغ عنه النيابة !

ولم يجد المحامى دفاعا عن هذه التهم غير أن يتعلل .. بواجبات المهنة !

اقوال أرملة المنتحر !

وبعد أن سمعت المحكمة اقوال بقية المتهمين الثانويين المطلقى السراح — وهم : كامى ايمار ، وبول ليفى ، وجيبو ريبو ، والصحفى داريوس ، وديباردون — جاء دور المتهمة الأخيرة : مدام « ارليت ستافسكى » أرملة النصاب الكبير ! — وكانت المرأة الوحيدة بين تسعة عشر متهما من الرجال ! — تدلفت إلى المنصة بعد أن خلعت معطفها . وكانت ترتدى ثوبا أنيقا أسود ، حليت أكمامه باطراف بيضاء ، ووشاحا بنفسجيا ، وقفازين أسودين . وكانت طويلة القامة ، رشيقة القد ، مرنة الأعطاف .. وقد بدات تدلى بأقوالها بصوت « موسيقى » عذب . فوصفت باختصار كيف شاركت ستافسكى حياته منذ سنة ١٩٢٥ — قبل زواجهما بزمن — ثم كيف قبض عليها معه فى « مارلى لوروا » ، فزج به هو فى السجن .. وحين خرج وعدها بأن يتوب ويكف عن مغامراته ، فقبلت أن تتزوجه . وتم الزواج فعلا فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٢٧ ، واطلق ستافسكى على نفسه منذ ذلك الحين اسما جديدا نظيفا هو « بواتيل » ! .. وحسبت الزوجة بعد ذلك أن زوجها قد سار فى الطريق المستقيم ، حتى فوجئت ذات يوم من عام ١٩٢٩ برجال الضبطية القضائية يفتشون مسكنهما فى شارع « رينيسانس » .. فوبخته بعد ذلك وعنفته بشدة على مسلكه ، فطيب خاطرها ووعدها خيرا . وفى العام التالى كان

الرجل الذى خرج من السجن سنة ١٩٢٧ ــ خالى الوفاض ــ قد أصبح يمتلك فيلا أنيقة فى حى « سان كلو » وسيارة وسائقا خاصا ! .. ثم تزايد ثراؤه بالتدريج .

ــ وكيف لم يثر هذا الثراء المتزايد شكوكك ؟

ــ انه قد صار يختلط بعدد من الشخصيات الكبيرة التى فوق الشبهات !

ــ وما قولك فى الجناح الخاص الذى صرت تقطنينه فى فندق « كلاريدج » ، واجره عشرون الف فرنك فى الشهر ؟

ــ لم يكن من شانى الاطلاع على هذه الحسابات .

ــ لكنك انفقت فى الفندق خلال المدة بين ٢٥ يوليو واول اكتوبر مبلغ خمسة وخمسين الف فرنك (عدا ايجار الجناح الخاص) ، منها ٣٨ الف فرنك للطعام والمشروبات وحدهما !؟

ــ ربما ..

ــ وانفقت على أدوات الزينة خلال ثلاث سنوات نحو ٢٠٠ الف فرنك ؟

ــ ربما اكون انفقتها خلال ثلاث او اربع سنوات .

ــ وماذا كنت تعلمين عن اعمال زوجك ؟

ــ لم يكن من طبعه أن يتحدث عن أعماله بشىء حين يعود متعبا من الخارج ، بل كان يخصص وقته فى بيته لزوجته واطفاله .

ــ او يعقل ان يخفى زوجك عنك اموره ، برغم الحب الذى كنت تظهرينه له ؟

ــ (فى لهجة قوية) بل لقد أحببته حبا صادقا !

وإذ شدد رئيس المحكمة على المتهمة الخناق ، اعترفت بأنها عرفت « تيسييه » و « جارا » شريكى زوجها فى عمله ، كما اعترفت بأن ستافسكى لم يخف عنها فرحته يوم حصل على خطاب التوصية من وزير العمل داليمييه .. لكنه فى يوليو سنة ١٩٣٣ صارحها بأن الأزمة المالية قد أثرت فى ايراداته ، بحيث ينبغى عليهما الاقتصاد فى النفقات ، وقد اضطرت بعد ذلك إلى ان تبيع بعض حليها ومجوهراتها ، لا سيما وقد وعدها زوجها بأنه يعتزم الدخول فى مشروعات جديدة سوف تعوضه عن خسائره الأخيرة !

وبعد ان ناقشت المحكمة المتهمة فى شأن « بوالص » التأمين ، على حياة زوجته واولاده ، التى ابرمها ستافسكى بحوالى المليون فرنك ! .. نهض محامى المتهم «جيبان» فوجه إلى مدام ستافسكى السؤال التالى :

ــ الم يذكر زوجك امامك قبيل فراره الأخير ، ليلة ٢٣ ديسمبر ، أن جيبان كان حسن النية ، يجهل كل شىء ؟

ــ نعم ، لقد ذكر ذلك والحق يقال ..

وعندئذ انهارت أعصاب المتهمة فنكست رأسها واخفت عينيها بحقيبتها ، ثم تهالكت على المقعد خائرة القوى !

مرافعات الدفاع تستغرق عشرين يوما !

وبانتهاء استجواب المتهمة الأخيرة ، انتقلت المحكمة إلى فحص تقارير الخبراء والمحاسبين ، ثم سمعت شهادة الكثيرين

من رجال السياسة والصحافة الذين جاء ذكرهم فى أقوال المتهمين — وهى لا تخرج عما اشرنا إليه فيما سبق — واعقب ذلك سماع مرافعة المدعى العام ، ثم تعاقب على منصة الدفاع خمسة وعشرون من كبار المحامين ، استغرقت مرافعاتهم عشرين يوما .. !

وأخيرا .. حان يوم الفصل فى مصائر المتهمين ، فدخل المحلفون حجرتهم للمداولة فى الساعة العاشرة من صباح يوم ١٦ يناير سنة ١٩٣٦ ، حيث قضوا فى مداولاتهم نحو عشرين ساعة متواصلة ، وباتوا ليلتهم ساهرين على مهمتهم .. وفى صباح اليوم التالى قدموا إلى المحكمة قرارهم !

فلننتقل الآن إلى قاعة المحكمة فى ذلك اليوم المشهود :

الحكم !

نحن الآن فى الساعة التاسعة صباحا ، وقد غصت قاعة المحكمة بجمهور قلق متلهف على معرفة قرار المحلفين . فقد كانت غالبية ذلك الجمهور من اصدقاء او اقرباء العشرين متهما الذين ينتظرون البت فى مصيرهم فى ذلك اليوم .. وحيثما كنت تدير بصرك فى ارجاء القاعة كانت تطالعك نفسيات مسطورة على الوجوه : كم من وجه غير معالمه القلق ، وكم من عين جحظ بها الجزع ! — لا سيما حين علم الناس ان المداولة استغرقت عشرين ساعة كاملة ! — وكانت الدقائق تمر بطيئة متثاقلة ، حاملة إلى القاعة كل لحظات افواجا جديدة من الناس ، وشائعات متوالية تتلقفها الاسماع !

حتى إذا كان منتصف الساعة العاشرة ابلغ المحلفون الرئيس بارنو انهم على استعداد لإصدار قرارهم ، فدخلت هيئة المحكمة قاعة الجلسة واعلن الرئيس افتتاحها ، ثم وقف رئيس المحلفين ليتلو قرارهم ، وقد اخلى قفص الاتهام من اشخاص المتهمين ، بحكم نص القانون الصريح الذى يوجب أن يتلى قرار المحلفين فى غياب المتهمين !.

ووقف رئيس المحلفين ، « الصيدلى جيبون » ، ليلقى فى غير تلعثم او خطا اجوبة المحلفين على الألف وتسعمائة وستة وخمسين سؤالا التى وجهتها اليهم المحكمة ! .. وقد قسم رئيس المحلفين تلك الأسئلة إلى اقسام — تجنبا لإضاعة الوقت — فجاء القرار على الوجه التالى :

— اقسم أمام الله والناس بشرفى وضميرى ان إجابات المحلفين على الأسئلة من واحد إلى مائة واثنين وسبعين بالإيجاب ، وعلى الأسئلة من ١٧٣ إلى ٤١٤ الخ .. وفى النهاية استطرد المتكلم إلى القول إنه قد تبين للمحلفين فى صدد التهم المنسوبة إلى المتهمين :

ان تيسييه مذنب فى جريمة تزوير أوراق رسمية ، والاشتراك فى تبديد الرهون ، والاشتراك فى النصب ..

وان جارا (النائب والمحافظ السابق) مذنب ايضا فى ما يتعلق بتزوير محضر جلسة مجلس الإدارة ، ولكنه غير مذنب فى تزوير سندات الخزينة ..

وان المثمن كوهين مذنب فى جريمة التزوير فى أوراق رسمية والاشتراك فى جريمة النصب ..

وان دى بروس مذنب أيضا فى جريمة التزوير فى الأوراق الرسمية والاشتراك فى جريمة النصب ..

وان جيبان (مدير شركة الثقة للتامين) مذنب فى جريمتى استعمال أوراق رسمية مزورة والاشتراك فى النصب ..

وان هايوت مذنب فى جريمتى الاشتراك فى النصب واخفاء اشياء مسروقة ..

وان هاتو مذنب فى جريمتى الاشتراك فى تزوير اوراق رسمية والاشتراك فى النصب ..

وان الجنرال السابق دى فورتو مذنب فى جريمة استعمال أوراق رسمية مزورة ..

وان فارو ، ودى جوان ، ودى بارى ، ابرياء من جميع التهم الموجهة اليهم ..

وان بونور (المحامى ونائب الدائرة الثالثة) مذنب فى جريمة التستر على اخفاء اشياء مسروقة ..

وان بقية المتهمين ابرياء الساحة !

ثم ختم رئيس المحلفين تلاوة القرار بالقول إنه وزملاءه المحلفين يرون وجود ظروف مخففة بالنسبة لجميع المذنبين ، ما عدا تيسييه !

يبكى كالأطفال !

ثم رفعت الجلسة على الاثر كى تنظر المحكمة فى إجابات المحلفين على أسئلتها تفصيلا ، للتاكد من انه لم يتسرب إليها السهو او الخطا فى اى موضع منها ! .. وقد دامت المداولة

ساعة كاملة أسفرت عن سلامة القرار من حيث الشكل من كل ناحية ..

وكان منظر القاعة فى هذه الاثناء عجيبا كل العجب ، فهذا محام يفسر القرار لموكله .. وهذا متهم نال البراءة فراح يعانق زميلا له فى الاتهام والبراءة .. اما جارا فقد اسلمه قرار ادانته إلى حالة من الياس خشى منها على قواه العقلية! واما المحامى بونور فقد راح يبكى كالأطفال ومحاميه لا يقل ذهولا عنه ..

وفى الساعة الحادية عشرة إلا ربعا اعيدت الجلسة ، فتوجه الرئيس بالكلام إلى الذين نالوا البراءة قائلا :

— سآمر باطلاق سراحكم فورا كى تتمكنوا من الغداء فى غير هذا المكان . ولكنى طلب اليكم الحضور ثانية فى الساعة الواحدة بعد الظهر ، لأن المدعين بالحق المدنى لهم الراى الآخر فى المطالبة بالتعويضات قبلكم — على الرغم من براءتكم !

ثم اتجه بعد ذلك إلى المذنبين ، وقد علت وجوههم غبرة شديدة ، فتلا عليهم من جديد قرار المحلفين الذى صدقت المحكمة عليه .. ثم خلت المحكمة مرة اخرى للمداولة فى « تحديد » عقوبة كل مذنب ، جنائيا ومدنيا !

وقد دامت هذه المداولة ساعتين كاملتين ، كانتا على المتهمين اطول من يوم الحشر ! .. فلما اعيدت الجلسة قرا الرئيس الأحكام بصوت واضح قوى النبرات :

— قضت المحكمة بسجن « تيسييه » سبع سنوات مع الاشغال الشاقة .. وحبس « جارا » سنتين حبسا بسيطا .. وحبس دى بروس خمس سنوات حبسا انفراديا (زنزانة) .. وحبس جيبان خمس سنوات حبسا انفراديا .. وحبس هايوت سبع سنوات حبسا انفراديا .. وحبس كوهين خمس سنوات حبسا انفراديا .. وحبس هاتو سنتين حبسا بسيطا .. وحبس دى فورتو سنتين حبسا بسيطا .. وحبس بونور سنة واحدة مع وقف التنفيذ .. وتغريم الجميع ما عدا بونور مائة فرنك .. واعتبار المحكوم عليهم مسئولين متضامنين عن دفع مصاريف القضية وهى نحو مليون فرنك .. واعتبار شركة الثقة للتأمين مسئولة عن التصرفات المالية لمديرها جيبان (*)

ثم رفعت الجلسة بعد تلاوة الحكم مباشرة ، فكنت ترى المحكوم عليهم كأنهم سكارى وما هم بسكارى ، وقد بدأ الناس يغادرون القاعة أفواجا : ما بين امرأة باكية .. وطفل يولول .. وشاب فجعه أن يلطخ اسم ابيه وشرفه بعار لا يمحى !



هذه المحاكمة ..

عندما اعتزل ((صامويل ليبووتز)) مهنة المحاماة ، ليصير قاضيا ، كان معدودا بين قومه ((المحامى الجنائى الأول فى امريكا)) ! .. وكان يعزو نجاحه العظيم إلى ايمانه الحار القوى بالمهنة التى اختارها وأحبها .. كان يدخل قاعة المحكمة ((ليحارب)) الاتهام بكل سلاح قانونى وخطابى تعلم ان يستخدمه ! .. ولعل أروع مثال لموهبته الفذة هذه القضية التى اطلق عليها ((كل الأدلة تقود (هوفمن) إلى كرسى الاعدام !)) .

ذات صباح من عام ١٩٢٩ تلقى « ليبووتز » بطاقة مرسلة بالبريد تتضمن هذه الرسالة القصيرة المؤثرة :

« عزيزى مستر ليبووتز

« اكتب اليك هذه الرسالة كآخر التماس يائس ألجأ إليه .. فانى متهم بجريمة قتل انا برىء منها ! وقد حكم على بالسجن مدة تتراوح بين عشرين سنة ومدى الحياة ، فى سجن «سنج سنج» ، بعد ان كافحت خمسة اعوام فى سبيل حريتى، **واقام أصدقائى اكتتابا لجمع نفقات الدفاع عنى فى القضية .** لكن المال الذى جمعوه قد نفد . فهل لك أن تساعدنى » .

((هارى هوفمان))

النحس يلاحق المتهم !

كان هوفمان قد اتهم بجريمة قتل وحشية راحت ضحيتها حسناء من حى « ستاتين أيلاند » بنيويورك تدعى «مود باور» .. وكانت حلقة الاتهام قوية ضده ، وإن تالفت كلها من قرائن وملابسات مجردة من الدليل الحاسم ، ولعل هذا ما حمل المحلفين على انقاذه من الاعدام بالكرسى الكهربائى كما كانت تطلب النيابة ، والاكتفاء معه بعقوبة الدرجة الثانية فى جرائم القتل — حسب القانون الامريكى — وهى « السجن مدة ادناها عشرون سنة » !

وطعن هوفمان فى الحكم طالبا نقضه .. وبعد صراع قضائى استمر عامين ونصف عام ظفر له محاميه بنقض الحكم واعادة القضية كى تنظر أمام هيئة اخرى من المستشارين ، على أساس وقوع النيابة فى « خطأ شكلى » !

وفى هذه المرة حرص ممثل الاتهام — المدعو البرت فاش — على تجنب الوقوع فى أى خطأ شكلى او قانونى، وقدم القضية إلى المحكمة طالبا الحكم باعدام المتهم ! وكان معنى ذلك ان مصير هوفمان — فيما لو خسر القضية — إلى الكرسى الكهربائى لا السجن المؤبد . ورغم ذلك فقد قبل هوفمان ان يجازف بحياته : فاما إلى الحرية واما إلى القبر !

ولكن لم ينقض على بدء نظر القضية أمام الهيئة الجديدة أسبوعان حتى أصيب محامى هوفمان بصدمة قلبية وهو يناقش احد شهود الاتهام ، فأوقفت المحاكمة ، كى تجدد فيما بعد أمام

هيئة ثالثة .. وفى هـــذه المرة استمر نظرها ثلاثة أسابيع ثم اسفرت عن انقسام الراى فى صفوف المحلفين ، بحيث تساوت الاصوات فتعذر الوصول إلى قرار !

وطالب محامى المتهم من فوره بمحاكمة رابعة . ولكن قبل ان يجاب طلبه انتزعه الموت من القضية ومن الدنيا بأسرها ! .. وهنا كان اليأس قـــد تمكن من قلب هوفمان التعس ، فان الأموال التى اكتتب بها له اصدقاؤه للإنفاق على القضية قـــد نفدت ، وزوجته قد حصلت على حكم بالطلاق منه وتزوجت من رجل آخر ! .. فكانت معجزة أن اســـتطاع هوفمان مواجهة هذه الخطوب المجتمعة بعقل سليم من الخبل ..

كيف قتلت المجنى عليها

لم يكن فى قضـــية هوفمان التى رواهـــا لمحاميه الجديد « ليبووتز » ما يشجعه على قبول الدفاع عنه ، لكنه قبل المهمة متطوعا . وكانت وقائع الدعوى كما صورتها النيابة تتلخص فيما يلى :

كانت مود باور — وهى شـــقراء جميلة فى الخامســـة والثلاثين — تقود سيارتها ، ومعها أمها ، فى احد شوارع حى « ستاتين ايلاند » حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر ، حين اصطدمت بعائق فى الطريق .. فتركت أمها فى السيارة وسارت على قدميها إلى اقرب منزل كى تطلب معونة بالتليفون . فلما وصلت إلى مفرق الطريق وقفت بمحاذاتها سيارة « فـــورد سيدان » ، ثم سمعت الأم صوت ابنتها تصيح بها من مكانهـــا

قائلة إن السائق العابر سيحملهـــا إلى « جاراج » قريب .. وكانت تلك آخر مرة رات فيها الأم ابنتها مود على قيد الحياة ، فقد اكتشفت جثتها بعد ساعة واحدة فى « لافرز لين » — درب العشاق — على بعد ميل تقريبا من المكان الذى تعطلت فيـــه سيارتها ، ووجدت بجسمها رصاصـــتان ، اخترقت احداهما صدرها والأخرى عنقها ! وكان واضحا من فحص الجثـــة ان المراة قد قاومت قاتلها مقاومة عنيفة ..

وثارت ثائرة ســـكان « ستاتين ايلاند » اشمئزازا من فظاعة الجريمة ، وشجعت الهيئات الإقليمية حملة مطـــاردة المجرم بأن رصدت لمن يهتدى إليه جوائز يبلغ مجموعها ثمانية آلاف وخمسمائة دولار !

لوصاف القاتل ..

وبدات تتكون فكرة أولية عن القاتل من الاوصاف التى ادلت بها فى التحقيق والدة المجنى عليها وشاهدان آخران قررا انهما رايا سائق السيارة « الفورد سيدان » . واتفقت كلمة الثلاثة على أنه كان يرتدى سترة بنية اللون ، وقبعة فى لونها وانه اسمر البشرة ذو شعر بنى غزير . واضـــافت شاهدة فى الثالثة عشرة من عمرها تدعى « باربرة فاهس » أنه كان يضع على عينيه نظارة وصفت شكلها . وظهر من تشريح الجثة أن الرصاصتين اللتين قتلتا المجنى عليهـــا انطلقتـــا من مسدس اوتوماتيكى من عيار ٢٥

وارتاد رجال البوليس المنطقة التى وقعت فيها الجريمة ، وراقبوا سكانها نحو شهر كامل .. ثم خرجوا من أبحاثهم وقد حصروا التهمة فى المدعو « هارى هوفمان » : فقد كان يملك سيارة « فورد سيدان » ، ويحمل مسدسا أوتوماتيكيا من عيار ٢٥ ، كما كان أسمر البشرة .. وثبت من تحقيق رجال المباحث أنه قص شعر رأسه البنى الغزير بعد تاريخ الحادث بثلاثة ايام !

كان هارى هوفمان فى الثانية والثلاثين ، زوجا سعيدا ووالدا لطفلين . وكان يتولى إدارة آلة العرض فى إحدى دور السينما المحلية ، ويضع على عينيه أثناء العمل نظارة تنطبق عليها أوصاف نظارة القاتل ! وفى ساعات فراغه كان يمارس هوايته النفخ فى الآلة الموسيقية التى يطلقون عليها «البورى» ، كما كان يفخر باختياره عضوا فى جوقة الموسيقى بكنيسة المنطقة . وكانت الدلائل تدل على انه يحيا حياة منتظمة لاغبار عليها ..

سلسلة من الاكاذيب !

ولكنه لم يكد يقدم إلى المحاكمة بتهمة القتل حتى اخذت الأدلة تتراكم ضده بغير هوادة : فقد قرر هو انه فى الساعة التى وقعت فيها الجريمة كان فى حى « ما نهاتان » حيث قابل سمسارا ، ثم تناول طعامه فى مطعم صينى عينه .. لكن احدا من سقاة المطعم الذى ارشد إليه لم يتعرف عليه أو يذكر ما يؤيد روايته ! وفى الناقلة النهرية « المعدية » التى تنقل الركاب بين

« مانهاتان » و « ستاتين أيلاند » لم يصادف هوفمان وقت الحادث اى شخص يعرفه ليشهد بما يؤيد ذهابه إلى مانهاتان!
.. كذلك قرر المتهم انه على اثر خروجه من المطعم توجه فى الساعة الثالثة والنصف إلى إحدى دور السينما حيث لبث يثرثر مع صديق له يعمل فيها حتى الساعة الرابعة والنصف .. لكن هذا الاستشهاد انهار بدوره حين شدد المحقق الخناق على ذلك الصديق — ويدعى « راسى باركر » — فاعترف بأن المتهم جاءه بعد نشر أوصاف القاتل بأيام قلائل ، وكان بادى العصبية ، وذكر له فى تبرير تلك العصبية ان البوليس يستوجب كل شخص فى المنطقة يملك سيارة « فورد سيدان » ، ثم أضاف انه لن يستطيع اثبات وجوده فى مكان بعيد عن مكان الجريمة فى وقت وقوعها . ولما كان الشاهد يعرف عن صديقه الطيب ما ينفى عنه احتمال ارتكابه تلك الجريمة ، فقد قبل مسرورا ان يؤدى له هذه المساعدة فيشهد بانه كان معه فى مانهاتان ! .. لكنه حين علم ان هوفمان يملك مسدسا اوتوماتيكيا من عيار ٢٥ ، وانه أرسل المسدس بالبريد إلى اخيه على اثر وقوع الحادث كى يخفيه عنده ، فقد ثقته فى صديقه وبدأ يرتاب فى امره .. !

كل الأدلة تسوقه .. إلى كرسى الاعدام !

وكان من الحجج التى ساقها هوفمان للتدليل على براءته انه لم يذهب قط إلى « درب العشاق » حيث وقعت الجريمة ، لكن فتى من عمال دار السينما التى يعمل فيها المتهم هو « وليم هواتيت » شهد بأن هوفمان سأله ذات مرة قبل وقوع الحادث

بأيام : « هل تعرف طريقا غير مطروق استطيع ان اذهب إليه بصحبة فتاة ؟ » فأرشده إلى « درب العشاق » !

ثم جاء دور السمسار الذى زعم هوفمان انه قضى فى مكتبه بضع ساعات يوم الحادث ، فشهد بأنه لا يذكر شيئا من هذا القبيل ! .. واجمعت الآراء على ان هوفمان لو كان قرر فى بساطة انه لا يستطيع اثبات وجوده فى مكان بعيد وقت الجريمة ، لكان موقفه مريبا إلى حد ما ، ولكن ليس ميئوسا منه .. اما بعد ان استشهد على بعده عن المكان بعدد من الشهود، الذين جاءوا فكذبوه ، فقد ساء موقفه إلى أبعد حد..

بقى أمر المسدس الذى يملكه المتهم من عيار ٢٥ ، وقد سئل عنه فقال ــ وبئس ما قال ــ إنه حين قرأ أوصاف القاتل وظروف الجريمة التى ارتكبت بمسدس مشابه انتابه الذعر فسارع إلى ارسال مسدسه إلى اخيه .. فلما سئل الاخ ابرز المسدس وابرز معه رسالة تلقاها من اخيه يقول له فيها : « احتفظ بهذا . اخفه فى مكان امين .. وإذا سمعت اننى وقعت فى مأزق فلتسلمه إلى محامى ! » .

وعرض المسدس على خبير فى الأسلحة فجزم بأنه نفس المسدس الذى ارتكبت به الجريمة !

شاهد عيان !

ثم ضاقت حلقة الاتهام حول رقبة هوفمان حين شهد جندى الداورية « ماتيو ماكورماك » ــ الذى كان يقف على

بعد ميل من مكان الحادث ساعة وقوعه ــ بأن سيارة « فورد سيدان » قد مرت به فى الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والعشرين ، وكانت تسير بسرعة نحو عشرين ميلا فى الساعة .. وأنه قد رأى سائقها عن كثب ، ويستطيع ان يقطع بأنه هوفمان بعينه !

تلك كانت ظروف القضية ومركز المتهم فيها ، قاب قوسين أو أدنى من الكرسى الكهربائى ! لم يكن أحد قد رآه يطلق مسدسه على الضحية ، ولكن لعل هذا هو المشهد الوحيد الذى كان ناقصا من « الفيلم السينمائى » المحبوك الأطراف الذى صوره ممثل النيابة « فاش » وعرضه على انظار المحكمة والمحلفين ، حتى انهم حين اصدروا قرارهم بالإدانة فى أول محاكمة للمتهم ضجت قاعة الجلسة بشهقات الارتياح من جانب النظارة جميعا !

لكن هوفمان أصر مع ذلك ، ورغم كل هذه القرائن القوية، على انه برىء . وقال لمحاميه الجديد « ليبووتز » فى لهجة اليائس : « لو كنت القاتل لقبلت الحكم عن طيب خاطر ، بل لفرحت بنجاتى من الاعدام ، لكنى برىء تماما .. اتسمعنى ؟ انى برىء ، ومع ذلك فقد انقضت على حتى الآن خمسة اعوام وانا سجين القفص ، كالوحش المفترس » .

فأجابه ليبووتز فى برود : « دعنا نتصارح يا هوفمان . هل يعقل أن يكون المرء بريئا ، ثم يدلى بكل هذه الأكاذيب التى دبرتها لإثبات بعدك عن مسرح الجريمة ساعة وقوعها ؟ » .

فصاح هوفمان « أردت أن أهيىء دفاعا قويا عن نفسى، خشيت أن يلصقوا التهمة بى مثل ما الصقوها بالمدعو « ليوفرانك » . ذلك كان ما سيطر على تفكيرى وقتئذ : ماساة ليوفرانك ! » .

فساله ليبووتز حائرا : « تعنى ليو فرانك الذى اعدم فى جورجيا ؟ » .

فأجاب هوفمان فى لهفة : « بالضبط . لم يكن ثمة دليل ضده عدا القرائن ، لكنهم الصقوا به التهمة . وبعد أن انقضت على أعدامه عشرة اعوام اعترف المجرم الحقيقى بارتكابه الجريمة التى أعدم فرانك من اجلها ! .. تلك هى المأساة التى كانت ماثلة فى ذهنى عندما قرات تفصيلات مقتل هذه المراة « مود باور » واوصاف قاتلها .. فخشيت أن يكون مصيرى مصير ليو فرانك ! » .

الموت أفضل من السجن !

وبدأ المحامى الشهير يرتاب فى الأمر فعلا ، فنهض واقفا وواجه موكله صائحا : « هل تدرك أن المحاكمة لو اعيدت من جديد ، وحكم عليك بالإدانة ، فسيكون الكرسى الكهربائى — لا السجن — مصيرك المحتوم ؟ هل أنت مستعد لتحمل هذه النتيجة المحتملة ؟ » .

وعندئذ صاح هوفمان : « رباه يا مستر ليبووتز ، انى لأفضل الموت بالكرسى الكهربائى على الحياة خمسة عشر عاما أخرى فى السجن ! » .

وهنا نظر إليه ليبووتز ممعنا ، وقد اعجبته شجاعته ، ثم وجد نفسه يقول له : « أنا اعتقد انك برىء حقا يا هارى . وسوف اطلق سراحك ! » .

مناورات الدفاع !

وبدات المحاكمة « الرابعة » فى محكمة الجنايات الكبرى فى « بروكلين » .. واظهر « ليبووتز » تدقيقا وحرصا شديدين فى اختيار المحلفين — والنظام القضائى فى الولايات المتحدة يعطى محامى المتهم حق تجريح المحلفين واستبعاد من يرى استبعاده منهم ، بعد اثبات أهمية ذلك بالمبرر الكافى — فكان يسأل كل واحد منهم فى اهتمام : « هل تعرف هوراشيو شاريت ؟ » فاذا هز المحلف رأسه علامة النفى والحيرة اردف المحامى ملحا : « أنه شقيق (كلنتون شاريت) الزعيم السياسى لمنطقة ستاتين أيلاند ؟ » .

وقاطعه ممثل النيابة فى اول مرة صائحا : « انا أعترض على توجيه هذا السؤال » .. ثم مال ناحية ليبووتز هامسا : « كفى زجا بالسياسة فى القضية ! » فاجابه ليبووتز فى لهجة المعلم الصبور الذى يوبخ تلميذا يخل بالنظام : « لو تكرمت فلتوجه اعتراضاتك إلى المحكمة وليس إلى وإلى المحلفين ! »

واستمر الصراع سجالا ..

وابتسم المحامى ابتسامة الارتياح حين أتم « تصفية » المحلفين واختيار اصلحهم .. لقد حرص على أن يكون من بينهم أربعة مهندسون على الأقل ، كى تتوافر لهم مؤهلات فهم

عملية عرض ومعاينة فنية كان قد بيت النية على مفاجأة المحكمة بها !

وترافع ممثل النيابة ، مكررا أدلته السابقة ، ثم ختم مرافعته مباهيا : « إن النيابة سوف تقدم إليكم هوارشيو شاريت وتثبت لكم أنه ليس قاتل المجنى عليها « مود باور » كما يريد الدفاع أن يدخل فى روعكم ! » .

فقاطعه ليبووتز صائحا : « أنا لم أقل شيئا من ذلك .. وأن كان « شاريت » قد رؤى فى الواقع بقرب مكان الجريمة على أثر وقوعها .. كما تنطبق عليه أوصاف الشخص الذى استقلت المجنى عليها سيارته قبيل مصرعها . فضلا عن أنه قد تصرف تصرفا شاذا كما سأبين لكم فى حينه ! » .

وهنا زمجر ممثل النيابة معترضا ، فأسكتته المحكمة . لكن المحلفين كانوا قد بدءوا يتساءلون عما إذا كانت لـ « شاريت » هذا صلة بالجريمة حقا ؟

تجريح شهود الإثبات !

وبدأ المحامى استجوابه لشهود الإثبات ، وكانت أولاهم الفتاة « باربرة فاهس » ــ التى كانت يوم وقوع الجريمة فى سن الثالثة عشرة فصارت فى الثامنة عشرة ــ فدلل من إجابتها المترددة ، بفعل النسيان ومضى المدة ، على أنها شاهدة متشككة لا يعتمد على أقوالها .. وجعل يناقشها بلهجة « أبوية » حتى انتزع منها الاعتراف بأنها لم تتعرف على المتهم

فى شهادتها القديمة إلا بعد حضورها عدة « مؤتمرات » عقدها رجال البوليس والمباحث وبعد أن عرضوا عليها صورة له نشرت فى الصحف .. فلما انتهى ليبووتز من استجواب الشاهدة لم يبق واحد من المحلفين لم يؤمن بأن شهادتها الأولى كانت ملفقة موحى بها !

وجاء دور ضابط الداورية « متيو ماكورماك » فصعد إلى منصة الشهود وهو يحدج المحامى الداهية بنظرة توجس! .. وبدأ ليبووتز يجرحه : لماذا انتظر هذا الضابط شهرا كاملا بعد وقوع الحادث قبل أن يشهد بأنه رأى المتهم فى مسرح الجريمة يقود سيارته ، وتعرف عليه ؟ هل أمره ممثل النيابة « فاش » بأن يتوجه إلى قسم البوليس ليتعرف على هوفمان ؟ ..إلخ .

وبدأ ماكورماك يتراجع فى ارتباك ظاهر . ثم أنكر شهادته السابقة .. وهنا انبرى له ممثل الاتهام غاضبا مضطربا ليؤكد له أنه قد أدلى بتلك الشهادة بلسانه ولم تنسب إليه زورا ، وأنه إنما يكذب الآن عامدا حين ينفى ما سبق أن قاله ..

وهبط ماكورماك من المنصة وقد أطاح الدفاع بشهادته هو الآخر !

شهادات يلفقها البوليس !

أما الفتى « هواتيت » الموظف بدار السينما فلم يحوج ليبووتز إلى أكثر من خمس دقائق لينسف شهادته نسفا .. بعد أن أثبت أنه من أرباب السوابق المحكوم عليهم فى جرائم

السرقة ، ثم جعله يعترف ، وهو يمسح عرق الخجل والخوف، بانه إنما شهد بأن المتهم ساله عن « الطريق غير المطروق الذى يستطع ان يختلى فيه بفتاة » بعد ان أمسى تحت رحمة البوليس الذى وضعه تحت المراقبة على اثر الحكم عليه فى إحدى السرقات !

وغادر الغلام المنصة وقد صارت شهادته عديمة الوزن او الاعتبار ..

ثم نودى الشاهد التالى « هارى ادكنز » — وهو غلام آخر يعمل فى دار السينما — فاعترف بانه راى نظارة المتهم معلقة فى كشك آلة العرض بالدار فى ذات الساعة التى ارتكبت فيها الجريمة ، مما يدحض شهادة باربرة هانس التى قالت إن القاتل كان يرتدى نظارة بنفس الأوصاف ، الأمر الذى ينفى الشبهة عن المتهم . ثم اضاف الشاهد ان احد رجال البوليس قد ضربه لأنه ابى ان يشهد ضد هوفمان فى المحاكمة السابقة .

صراع .. بين الدفاع والنيابة !

وأحس « فاش » ممثل النيابة ان غريمة ليبووتز يعتزم توريط « هوراشيو شاريت » فى القضية ، فراى ان يسبقه فيفسد عليه قصده بطلب سماع شهادة غلام من موزعى البريد يدعى « روبرت فرجسون » — وكان قد شهد فى المحاكمة السابقة بانه راى هوراشيو شاريت قرب مكان الجريمة ، لكنه عاد فتبين انه كان مخطئا فى ظنه !

وكان قصد فاش من طلب اعادة سماع هذا الشاهد ان يفسد تدبير الدفاع فيظهر الغلام فى ثوب شاهد الاثبات

لا شاهد النفى ، ويطلب سماعه قبل ان يطلب ذلك غريمه . لكن فرجسون لم يكد يصعد إلى المنصة حتى اوقعه ليبووتز فى فخ اضطره للاعتراف بانه ظل اسابيع طويلة بعد وقوع الجريمة يعتقد انه راى شاريت قريبا من مكانه ، ولم يطلق هذا الاعتقاد إلا بعد ان أوحى له رجال البوليس بانه واهم !

ثم نودى كونستابل من راكبى الموتوسيكل يدعى « توماس كوسجروف » ، فشهد بانه أوقف سيارة هوارشيو شاريت عقب الحادث عند مدخل « درب العشاق » ، فانباه بوقوع الجريمة وتحدث إليه قليلا ، ثم تركه يمضى ..

وانزعج « فاش » لتطور أسئلة الدفاع واتخاذها هذا الاتجاه ، فنهض وصاح مقاطعا ليبووتز : « هل تريد ان تقول إن لمستر شاريت صلة بالجريمة ؟ » .. فاجابه هذا فى هدوء : « لست أقول شيئا من هذا .. كل ما أريد ان اقوله انك — لصداقتك بمستر شاريت — لم تحقق الشبهة التى حامت حوله كما كان ينبغى ! » .

وهكذا — بالتدريج — كان المحامى الداهية يبعد أذهان المحلفين عن هوفمان ويركزها فى شاريت .. حتى تبين « فاش » ان السبيل الوحيد إلى افساد خطة خصمه هو أن يطلب استدعاء شاريت لمناقشته !

لكن قصده انقلب عليه أيضا ، حين انتهز ليبووتز الفرصة فاثبت من مناقشته للشاهد انه صديق حميم لممثل

النيابة منذ عشرين عاما . كما حمله على الاعتراف بانه كان يوم الحدث بالذات مارا بجوار مكان الجريمة بسيارته التى من طراز « فورد سيدان » !

وكان هذا ما يبغى الدفاع الوصول إليه ، كى يزرع فى قلوب المحلفين الشك فى شخص القاتل ، ويزعزع يقينهم بصدد ارتكاب هوفمان للجريمة وحصرهم للتهمة فيه وحده .. وإذ بلغ ليبووتز غايته من هذا التشكيك ، اذن للشاهد وهو يبتسم بأن يغادر المنصة ..

عملية عرض مسرحية !

وكانت المشكلة التالية هى أعقد العقبات القائمة ضد المتهم . فلو أفلح فاش فى اقناع المحلفين بأن المسدس الذى انطلقت منه الرصاصتان القاتلتان هو مسدس هوفمان بالذات — كما شهد خبير الأسلحة — لاضطروا إلى إدانة المتهم .

وهنا — لكى يهدم شهادة الخبير الموثوق به — عمد ليبووتز إلى عملية عرض مسرحية : طلب أن يوضع « الميكروسكوب » الذى أحضره معه على منضدة أمام منصة هيئة المحكمة ، وإلى جواره وضع عددا من منصات الرسم تحمل خرائط وأشكالا هندسية وصورا فوتوغرافية لرصاص منفجر . ثم قدم شاهديه الجديدين : غلافى الرصاصتين اللتين وجدتا فى جسد القتيلة !

ونودى الكابتن « جونز » — خبير الأسلحة بادارة بوليس نيويورك منذ ٣٢ عاما — فشهد بانه أطلق خمسين رصاصة بمسدس المتهم واحتفظ معه باغلفة تلك الرصاصات .. وهنا

وضع ليبووتز واحدا منها تحت المجهر ، وإلى جانبه غلاف احدى الرصاصتين القاتلتين .. ودعا المحلفين كى يروا بأنفسهم الفرق بينهما ، فكان واضحا للعيان .. وهنا استدعى ثلاثة آخرون من الاخصائيين ، فأيدوا وجود هذا الفارق ، واضافوا إن الخمسين «ظرفا» المنطلقة من مسدس المتهم كلها متشابهة تماما ، وكلها تخالف ظرف رصاصة القاتل !

المفاجأة الحاسمة

وهنا صعد المتهم هارى هوفمان إلى المنصة ، فروى للمحكمة — ردا على أسئلة محاميه — المخاوف التى انتابته على اثر نشر اوصاف القاتل فى الصحف ، وكلها تنطبق عليه ! وتحدث عن موجة السخط الهستيرية التى سادت المجتمعات والرأى العام فى الأيام التالية لوقوع الجريمة ، وكيف أغرته بان يسبق الاتهام فيبحث لنفسه عن ادلة وشهود يثبتون براءته . فلما أعوزه الشهود الحقيقيون دبر شهودا مفتعلين ، كما سلف البيان ..

وترك ليبووتز المتهم يتكلم على سجيته : فقال انه كذب وكذب فى اقواله ، لكن الأكاذيب كلها ارتدت عليه وعززت ادلة الاتهام ضده ، فنال عقابه الكافى عليها بالخمس سنوات المروعة التى قضاها فى السجن حتى الآن .

وهنا نهض المحامى فسلم إلى المتهم مسدسه الخاص ، وساله :

س — هل استعملت يوما هذا المسدس ؟

ج — ولا مرة فى حياتى .. وما كان يمكن ان استعمله.

س — لمـــاذا ؟

ج — لأن زناده يقع فى الجانب الأيمن وانا اصنع كل شىء بيدى اليسرى !

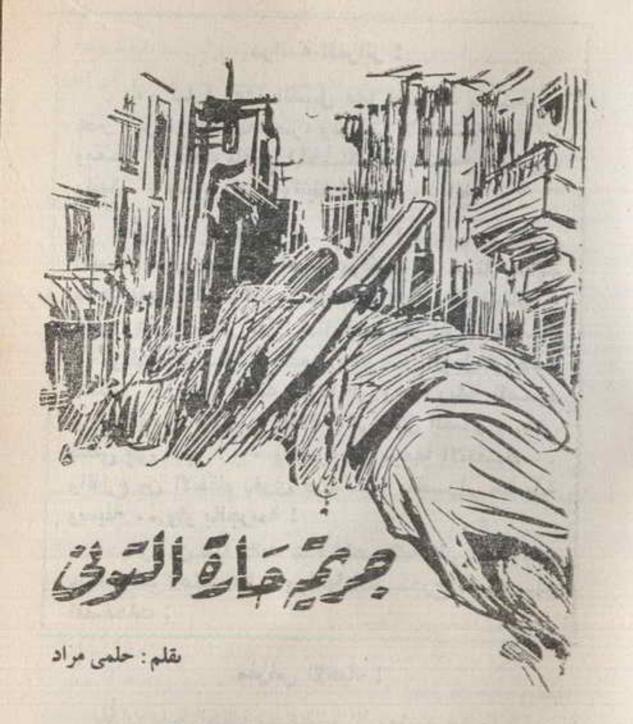
وصعق ممثل النيابة . إنها أول مرة تكتشف فيها هــذه الظاهرة وتثار فى القضية !

ومضى ليبووتز يستدعى شهود النفى شاهدا بعد الآخر، ليقرروا جميعا ان المجنى عليهـا قد قتلت بواسـطة شخص يستخدم يده اليمنى !

الحـــكم !

وفى اليوم التالى نشرت جميع صحف نيويورك فى صفحاتها الاولى نبأ الحكم ببراءة هارى هوفمان ! .. ولم يكن ليبووتز حين ادخل هوارشيو شاريت فى القضـــية ينوى ان يتهمـه بارتكاب الجريمة ، ولا كان فى يده الدليل على انه مرتكبهـا .. وإنما هو قد استخدمه بنجاح كى يبذر فى اذهان المحلفين بذور الشك القوى فى ارتكاب المتهم لها ، بالتدليل على ان شـهادة الاثبات تنطبق على رجل آخر كمـا تنطبق على هوفمان ..

والشك عادة يفسر لصالح المتهم !



جريمة حارة السوق

بقلم: حلمى مراد

دراسة للغرائز !

.. اما فى هذا الفصل فانا اقدم لك محاكمة من مصر ، بل من عاصمة مصر، ومن حى «العباسية» بها .. وبعد أن طفت بك فى المحاكمات السابقة بباريس ، ولندن ، ونيويورك ، واثينا القديمة .. الخ

ففى ذلك اليوم من عام ١٩٤٥ دعانى صديقى الاستاذ انور احمد كى احضر مرافعته ـ كممثل للاتهام ـ فى هذه المحاكمة التى تمثلت فيها ، وفى آثام ابطالها ، معان وعبر لا حصر لها : تمثل فيها مكر المراة المتصابية .. وطمع الشاب البشع .. ثم تنكر الرجل لزوجه العجوز ، وتحلب لعابه شوقا إلى زهرة ريانة العود .. ثم الغيرة ، الغيرة القاتلة التى تاكل الصدر ، حتى تفضى إلى القبر ! .. والغيرة من طبعها الانتقام .. والفزع من الانتقام يغرى فريسته بالفرار منه باية وسيلة .. ولو بالجريمة !

.. ومن هنا كانت هذه المحاكمة التى خرجت منها يومئذ لأعكف على أوراقها استخرج منها هذه الصفحات :

معرض الأحياء !

ميدان باب الخلق .. صباح الأربعاء ، ٢٨ مارس سنة ١٩٤٥ :

دار محكمة مصر ، بواجهتها الصماء وابهائها الفسيحة ، تستقبل ـ ثم تبتلع فى جوف قاعاتها الكبيرة ـ افواج الوافدين عليها ، من مختلف الطبقات والأجناس : قضاة ومتقاضين.. متهمين ومحامين .. شهودا ومتفرجين .. رجالا ونساء ، واطفالا على الأكتاف .. حضريين وقرويين وريفيات .. طرابيش وعمائم وقبعات ! .. اجساما اكتنزت شحما ولحما وهياكل عظمية خاوية .. أناسا فى ثياب انيقة معطرة ، وحفاة فى اسمال بالية .. شبابا يصعدون السلالم قفزا ، وشيوخا يتوكأون على عكازات .. وجوها نضرة متفتحة للحياة ، واخرى شاحبة خطف لونها المرض ، أو الخوف ! .. عيونا ضاحكة مستبشرة ، وعيونا ذابلة اطفأت بريقها الأيام .. أو الأحزان !

.. خليط عجيب من الصور والنفسيات ! منهم من جاء يسعى للخير ، ومنهم من جاء يضمر الشر ! .. هذا يطلب التبرئة ، وذاك يلح فى طلب العقاب .. وهذا ينتصف للفرد من المجتمع وذاك ينصف المجتمع على حساب رقاب العباد .. واحد يهيىء لسانه ليشهد بالحق ، وآخر يلوك فى فمه شهادة الافك والزور ! .. هذا يفك حبال المشانق عن الأعناق ، وذاك يفتل للمذنبين الحبال !

.. اتوا من كل صوب وفج ، لكى يلتقوا فى ساحة المحكمة ، فيخلع بعضهم على عتبتها قناع الزيف .. ويرتديه البعض !

فى الخارج يكون بينهم الظالم والمظلوم ، والمعتدى والمعتدى عليه ، والمذنب والبرىء .. اما فى الداخل فكلهم مظلومون ، مغبونون ، ابرياء .. فى عرف أنفسهم !

اما فى عرف القانون فبقدر اختلاف النفسيات والسرائر تختلف المصائر ! هذا يدخل مكبلا .. ويخرج حرا . وآخر يدخل طليقا ، ويخرج مسوقا إلى السجن ! .. وثالث يقبل مقرح الجفون ، فيعود متهللا .. ورابعة تدخل مزغردة فتخرج مولولة .. أو العكس !

.. والمحكمة تستقبلهم جميعا بنفس الواجهة الصماء ، والطلعة الجامدة ، الصارمة ، التى لا تنم عن شىء .. ولا تنبىء ، او تعد ، إلا بشىء واحد : هو ان العدالة ساهرة على حقوق الناس — فى الأرض كما فى السماء — ترعاها فى غير مراعاة ، او محاباة ! .. قد تعرف الابطاء ، ولكنها لا تعرف الاغضاء ..

فانها دائما .. للكل بالمرصاد !

*

فى ذلك الصباح كانت دار العدالة قد فتحت صدرها لهذا الخليط من الوافدين ، فبدات تدب فى ممراتها الاقدام ، وتتجاوب فى بهوها الكبير صيحات السعاة والحجاب ، تمهيدا لافتتاح الجلسات .. حينما اقبل على بابها ، يسعى بين اثنين من الجند ، شيخ مهدم فى ثياب السجن ، حافى القدمين ، مكبل بالحديد . كانت مشيته المتخاذلة ، ولحيته الطويلة البيضاء ، ونظراته الكليلة ، وبصره المنطفىء .. تضفى كلها عليه مسحة من وقار السنين ، وتلقى فى روع الناظر إليه انه قد جاوز « الستين » ، بسنوات .. وهو فى الحقيقة فى الخامسة والاربعين !

.. وجلس فى قفص الاتهام ، ساهما ، شاردا ، كالمذهول .. ينتظر بين لحظة وأخرى انتهاء المحكمة من نظر الجناية المعروضة ، كى تنطق بحكمها فى قضيته ، بعد أن سمعت أقوال الشهود ومرافعة الدفاع فى جلسة سابقة . ولكن اية مرافعة ؟ لقد همس له الجندى الموكل بحراسته ، مشجعا : « شد حيلك يا عبد الحليم .. المحامى اتكلم كويس ، وربنا برضه موجود ! » فأجاب فى حشرجة خافتة : « انا ما سمعتش حاجة ، ما فيش محاميه اكلموا » ! .. رغم انه لم تكن مضت على جلسة المرافعة غير اربعة ايام .. ترى ، افقد الرجل وعيه ، ام كان يتصنع الذهول ، كما تصنع الورع والصلاح منذ اطلق لحيته عقب القبض عليه ؟

وطال نظر القضية الأخرى .. وانشغل الجميع بتتبعها ، حتى هو ، كان ينسى نفسه احيانا فيبدو عليه انه منصت لما يقال ، ثم لا يلبث ان يتنبه إلى أن تلك القضية لا تعنيه ، وان قضيته تكفيه .. فيسترد محياه مسحة الهم الدفين !

واخيرا انتهت القضية ، فخلت المحكمة للمداولة .. وطلب الرجل سيجارة ، راح يدخنها واصابعه ترتعش ، وبصره الاعشى يطوف بالنظارة ، فيلتقى بنظراتهم التى يكاد ان يطفر منها الرثاء ، والفضول ! انهم مثله ينتظرون سماع الحكم فى قضيته ، ويهمسون بعضهم لبعض بشتى الخواطر والتعليقات ، ولكن الفارق شاسع بين انتظار وانتظار : ان القضية بالنسبة لهم تسلية وملهاة .. اما بالنسبة له ، فهى موت .. او حياة !

واعيدت الجلسة ، فامسك رئيس المحكمة — الأستاذ محمود منصور — بالورق ، وتوجه إلى المتهم ، شارحا له قبل النطق بالحكم ، مبرراته ، وحيثياته ، **الإنسانية لا القانونية** .. ثم معقبا على الشرح بالنص :

« بناء عليه .. حكمت المحكمة بالنسبة للمتهم عبد الحليم عطية يوسف بـ .. الخ »

ولنعد إلى الوراء !

البيت رقم ٢٨
ليلة ٢ ديسمبر سنة ١٩٤٣

هبط الظلام على ازقة ذلك الحى المتواضع من أحياء العباسية ، واشتدت وطأة البرد ، فبدأ دبيب الحياة يخفت فيه شيئا فشيئا ، ووقع الأقدام يخف بالتدريج — فان الليل والنعاس غالبا ما يترادفان فى أمثال هذه الأزقة ! — وبدأ الصبية يفضون حلقات لهوهم ، ويتفرقون إلى عدد من الدور المتلاصقة المتساندة ، وقد اصطكت اسنانهم ، ولسع البرد أكتافهم العارية المطلة من « نوافذ » جلاليبهم الممزقة ، وخوى وفاضهم من المليمات القليلة التى انتقلت من جيوبهم إلى بائع (الكشرى) القائم دكانه عند ناصية الحارة .. فأخذ هو الآخر بعد رحيلهم يتأهب « للتشطيب » وبدأت مصابيح الحارة تنطفىء واحدا واحدا ، تاركة اياها بين براثن الظلام ، غارقة فى الوحشة ! .. وبين وقت وآخر كان ينعطف إلى الحارة شبح أحد قاطنيها ، عائدا من عمله ، أو من « القهوة » القريبة ، فلا يلبث أن يختفى داخل أحد الأبواب ..

كانت الساعة قد جاوزت العاشرة من ذلك المساء ، حينما دخل باب البيت رقم ٢٨ بعطفة التونى ، اثنان من قاطنيه . كان « ربيع عبد الغفار على » — الفراش بالجيش البريطانى — و « فتحى ماهر سليم » ، السفرجى «المولود بأسوان» ! ، عائدين من المقهى الذى اعتادا قضاء الأمسية فيه .. إلى غرفتهما ، الغرفة الوحيدة التى يتكون منها الطابق الثالث للبيت .. وصعد الاثنان يتحسسان طريقهما على الضوء الخافت لمصباح البترول المعلق فى (بئر السلم) .. فلما بلغا الطابق الثانى لفت فتحى زميله إلى رائحة كريهة كانت تنبعث منه ، فوافقه هذا ، لكنهما واصلا الصعود مرجئين الأمر إلى الغد . وفى الصباح المبكر ، لاحظ كل منهما عند خروجه إلى عمله أن الرائحة قد فاحت أكثر من الأمس .. ثم تكررت الملاحظة عينها عند عودتهما فى المساء .. وصارت الرائحة خانقة لا تطاق ، فتشاورا فى الأمر مع جاريهما « لطيف مسعد عبد النور » و « نجيب سعد عبد النور » اللذين يتقاسمان غرفة الطابق الرابع ، فعزز هذان شكواهما ، وتبادل الأربعة الشكوك .. فقال لطيف إنه لا بد أن تكون فى غرفة الطابق الثانى « حاجة ميتة » لم تتنبه لها ساكنتها — مالكة البيت — قبل سفرها منذ أيام إلى كوم حمادة لحضور قضية لها ... كما انه ليس غريبا الا يكون قد تنبه للرائحة زوجها أو زوجته الأخرى التى تقطن معه غرفة الطابق الأسفل ، فانهما بدورهما غائبان عند شقيق الزوج فى اتياى البارود .

.. وذهب « ربيع » إلى قسم الوايلى لاتخاذ الإجراءات اللازمة لكسر الباب واخراج « الشىء الميت » ، فانتقل معه إلى

البيت كل من الملازم الثانى أحمد حسن الصبان ، وشيخ الحارة عبد الله الشلبى ، وعسكرى الداورية عبد المجيد شلش . ويقول أولهم فى محضر الانتقال : « وتاكدنا من ان الرائحة الكريهة منبعثة من الحجرة التى تقع بالدور فوق الأرضى ، وهى التى تسكنها المدعوة حسنة بسيونى عبده صاحبة المنزل . فعالجنا فتحها ، ولما دخلناها وجدنا فى وسط أرضيتها ثلاث جوالات داخل بعضها وبداخلها جثة آدمية ملفوفة فى ملاءة من القماش . وبمعاينتها وجدنا الجثة ينقصها الجزء العلوى باكمله بما فيه الرأس والذراعان . ووجدنا قدميها مقطوعتين من الركبة وملفوفتين فى قطعة قماش اخرى بداخل الأجولة ، ووجدنا الجثة فى حالة تعفن رمى شديد ، ولاحظنا وجود بقع دموية بالجوالات كما وجدنا بالحجرة سريرا ودولابا وبوفيه وبضعة كراسى .. ووجدنا الدولاب مغلقا والسرير فى حالة غير منتظمة ، ولم نشاهد آثارا اخرى تفيد التحقيق .. الخ »

.. وتولى الاستاذ « انور احمد » ، وكيل نيابة مصر وقتئذ ، دفة التحقيق .

*

منذ عشرين سنة ، كانت حسنة بسيونى عبده قد جاوزت الخمسين وتقلبت فى الحياة .. تزوجت أكثر من مرة ، ولكن فى كل مرة كان زوجها يطلقها او يموت ، دون ان تنجب منه نسلا ، فتتحرك فيها غريزة الأمومة أقوى واعنف مما كانت .. وتغريها « بتجربة » زوج جديد ! .. حتى بلغت الخمسين وصارت فى خريف الحياة .. فتشبثت بالحياة ، وامعنت فى

التصابى ! . .والقى الجوار فى طريقها شابا فى عنفوان قوته وصبوته ، شابا فى الخامسة والعشرين ، فمناها شبابه بحلميها : الزوج ، والولد .. وذكرها بربيع حياتها الذى انصرم ، فارادت أن تسترجعه ، او فى القليل تتمثله .. ولئن لم يسع الشباب اليها فلتسع هى إليه .. ولتتزوج من هذا الشاب الذى كان فى مقام ابنها !

ولم يكن فيها ما يغرى ، ولكن كان عندها ما يطمع . فتوسلت إلى غرضها بالمال ، بدل الجمال .. فقد كانت تملك المنزل الذى تقطنه ، ومصوغات من الذهب ! .. وكان الفتى فقيرا ، وضيعا ، لا تتطاول امانيه إلى مستوى أسرتها و « ثروتها » ، فلم تكد تلوح له بسلاحيها حتى رضخ .. وضعف !

وكان هذا الزواج ، غير المتكافىء ، بداية المأساة ! .. فلم تمض أعوام حتى بدأت تثقل على الزوج وطأة الاحساس ببعد الشقة بين شبابه المشرق ، وحياتها المنحدرة نحو المغيب . ولكن المغيب تأخر ، فبدأ الزوج يضجر .. ويتململ .. ويتعجل النهاية .. كى يتحرر من قيد هذه الزوجة .. حتى يئس من الانتظار ، فاختمرت فى ذهنه فكرة الزواج من أخرى اثناء حياة الأولى .. مادامت لا تنوى أن تموت !

وعندما تم هذا الزواج — فى سنة ١٩٤١ — وزفت إلى الزوج الذى كان قد بلغ الاربعين ، زهرة جميلة فى الخامسة عشرة هى « دولت حافظ فرج حلاوة » .. كان القدر يكتب فى لوحه : الفصل الثانى من المأساة !

عاش عبد الحليم مع عروسه الجديدة فى منزل اهلها بروض الفرج ، أكثر من عام .. تاركا زوجته العجوز فريسة لأعنف غرائز النساء : الغيرة ! فتمردت على هذا الوضع .. وما زالت به ، تزين له أن يحضر عروسه إلى غرفة تفردها لهما فى بيتها ، حتى قبل ! فاحتل الاثنان غرفة الطابق الأول من الدار ، وقنعت هى بالعيش فى غرفتها منفردة . وحين عجزت الجنيهات الثلاثة التى يتقاضاها الزوج من عمله — كساع بمصلحة الأملاك — عن ان تسد مطالب الأسرة ، تكفلت هى بالباقى .. كما تكفلت بتمكينه من أداء فريضة الحج معها، وعلى نفقتها !

ثم مضت شهور .. حتى فاحت من غرفة العجوز ذات مساء .. رائحة كريهة ، واكتشفت بقايا جثة !

ولندع التحقيق يكشف الستار عن بقية فصول المأساة ..

اختفاء !

كان الجيران اول من سئلوا فى التحقيق : فقرر « ربيع عبد الغفار » — المبلغ — أنه لم ير القتيلة طيلة الأسبوع ، منذ مساء الخميس ٢٥ نوفمبر . وان غرفتها قد ظلت مغلقة بعد ذلك . اما زوجها فكان يراه فى حجرته إلى ما قبل اكتشاف الحادث بيومين ، اى بعد بدء انبعاث الرائحة ، ثم اختفى . واما الزوجة الشابة فهى غائبة منذ شهر ، وقد قال زوجها لكل من سأله إنها عند أخيه فى إتياى البارود .

ثم سئل بقية قاطنى البيت — وهم : فتحى ماهر سليم ولطيف ونجيب سعد عبد النور . — فعززوا كلام الشاهد

السابق ، وزادوا عليه انهم عندما سألوا الزوج عن المجنى عليها ، بعد اختفائها بيومين ، اجابهم بأنها قد سافرت إلى كوم حمادة لمباشرة قضية لها !

واجمعت أقوال الأربعة على أن الزوج كان فى حالة مالية سيئة ، وكان دائما يقترض منهم مبالغ صغيرة . وانه كان يقضى معظم اوقاته مع زوجته الشابة . اما علاقته مع القتيلة فكانت تشوبها منازعات مالية بشأن « قضايا نفقة » رفعتها ضده .

فى هذه الأثناء كانت النيابة قد أمرت بضبط الزوج وزوجته الثانية دولت ، فى منزل اخيه باتياى البارود ، فتم القبض عليهما وإرسالهما إلى القاهرة .. وعندما ووجه «عبدالحليم» بالتهمة انكرها قائلا ان القتيلة قد تركته منذ اسبوع وسافرت دون اخطاره عن الجهة التى ذهبت اليها ! فقاده المحقق إلى مشرحة النيابة لعرض اجزاء الجثة عليه . فلم يكد يرى أوصال زوجته الممزقة حتى اعترته رعدة شديدة وقال انه يستطيع التعرف عليها وانها جثة زوجته حسنة بسيونى عبده . ثم عاد فقال انها ليست هى .. ثم انها هى ! وظل يتخبط فى اجابته وكأنما اثر « المنظر » فى اعصابه ، فتخاذل .. لكنه اصر على انكار ارتكاب الجريمة قائلا : « هى صحيح كانت واخده على حكم بالحبس ، وبعدين اتفقت معها على ان ادفع لها كل شهر ١٢٠ قرشا ، وذلك على يد شيخ الحارة والسكان . وانا سفرت مراتى دولت من شهر علشان حسنة تستريح فى المعيشة . وبعدين سافرت من كم يوم علشان اجيب دولت ، وما اعرفش حصل لحسنة ايه »

ثم جاء دور دولت فى التعرف على الجثة ، فجزمت بأنهـا جثة « ضرتها » ، قائلة انها قد ميزتها من بروز « عظمة ابهام قدمها اليمنى ، الذى لاحظته كثيرا وهى تعينها على الوضوء ! وغلب الفتاة التأثر فاستخرطت فى البكاء .. وعنـدما تمالكت نفسها استجوبها المحقق فقررت انها وحسنة كانت متحابتين، تقضيان النهار كله معا ، فى غرفة احداهما . وقالت ان المجنى عليها كانت قد وقفت البيت الذى تملكه على زوجها ، ولكنهـا عادت فمزقت العقد حين تم زواجه الثانى منهـا هى ! .. ثم شرحت الفتاة ظروف سـفرها إلى اتياى البـارود قائلة إن زوجها قد اخذها قبل الحادث بشهر لكى تقضى مدة فى ضيافة اخيه هناك « بحجة تغيير الهواء » ، ثم تركها وعاد إلى القاهرة فى اليوم التالى . فلما اقترب عيد الاضحى ، ارسـلت إليه فى اول ديسمبر خطابا تنبئه فيه باعتزامها العودة إلى مصر صباح الجمعة ٣ ديسمبر ، ولكنها فوجئت بسـفره إليها فى مسـاء الخميس بحجة انتوائه قضاء عطلة العيد فى منزل اخيـه ! . فلما رفضت ، وافق على سفرها إلى مصر على ان تقضى العيد فى منزل اهلها لا منزله ! ولكن فى صباح اليوم التالى فاجأهما البوليس بالقبض عليهما فى اتياى البارود ذاتها ..

ثم قالت ، ردا على سؤال من النيابة ، بأن المجنى عليها كانت تظهر فى الأيام الأخيرة عزمها على وقف بيتها على قريب لها يدعى حسين محمد على ، وأن زوجها لم يخف حنقه عليها لهذا السبب ؟

.. وهكذا بدات الحلقة تضيق حول رقبة المتهم .. وكانت زوجته الشابة هى التى احكمت وثاقها .. بنفسها !

*

على ان دور دولت فى تدعيم الاتهام لم يقف عنـد هـذا الحد ، ففى يوم ٥ ديسمبر انتقلت النيابة إلى منزل الجريمـة مرة اخرى واجرت تفتيش غرفة المتهم التى كان يقيم فيها مع « عروسه » ، فعثـرت على « قميص مدفون بين المرتبتين ، وهو من الزفير الأبيض به اقلام طويلة زرقاء ، وفى وسطه بقع وتلوثات دمـوية .. كما وجدت فى منتصـفه من الأمام بعض اجسام محمرة داكنة اللون لاصقة بالنسيج ، يرجح انها قطع صغيرة من اللحم ! فلما عرض القميص على دولت قررت انه قميص زوجها ، وانه كان يتركه عادة بغرفة القتيلة !

ثم صعد المحقق بعد ذلك إلى غرفة المجنى عليها فوجد بها « طشت » غسيل ، يرجح أن به اثر دم ، وقرمة من الخشب ـ كالتى يستعملها الجزارون فى قطع اللحوم ـ طـولها ٤٥ سنتيمترا ، وبها تلوثات ، يرجح انها دموية ، وأن كان الظاهر انها قد غسلت لازالة اثر الدم ..

اعيد استجواب المتهم على ضوء هذه التطورات ، ولكنه اصر على انكار ارتكاب الجريمة ، كما انكر ان القميص له ! .. فلما قيل له ان زوجته قد تعرفت على القميص ، اسقط فى يده فقال : « لا مش بتاعى ، ولكن إذا كانت دولت تقول كده يبقى بتاعى ! » .. ثم عاد فعـدل قائلا : « ابـدا مش بتاعى وما وضعتوش على جسمى ابدا وديه مش هـدومى » .. وازاء هذا راى المحقق ان يقطع عليه السبيل ، ولنتركه يصف المنظر فى المحضر : « لبس المتهم القميص المضبوط ، فانطبـق على جسمه تماما ، واستقر كتفاه فى موضعهما ، وعندئذ اخذ المتهم

يصيح قائلا : « ابدا مش بتاعى ومش قميصى » واخذ يحاول خلعه عنه مرارا ورفض ابقاءه على جسمه ، وكان فى حالة هياج شديد ، يحاول التخلص من القميص !

واستمر التحقيق يتقدم بعد ذلك بخطى واسعة .. فشهد ابن عم القتيلة — وهو ترزى يدعى عبد العزيز على لمعى — بأنها كانت قد زارته فى منزله قبل الحادث بحوالى شهرين ، وشكت إليه من ان زوجها قد جثم على صدرها وحاول خنقها « وطبق ضلوعها » ، وكانت رقبتها ما تزال تؤلمها من اثر المحاولة ، فاضافها الرجل عنده فى تلك الليلة ، وفى الصباح اخذها إلى طبيب من اقربائها ليتولى علاجها .. ثم عادت إليه منذ نحو عشرة ايام وهى منزعجة ، لأن ساكنا كان يقطن غرفة بمنزلها حذرها من نيات زوجها قائلا إنه قد عرض عليه بمناسبة انتقاله من البيت ان يعاونه على قتلها ووضعها فى جوال يأخذه معه ضمن متاعه ، فلا يتنبه للجريمة احد !

وشهد نفس الشاهد بأنها كانت تملك بضع مصوغات ذهبية ثمينة رآها تتزين ببعضها يوم ان زارته . وقد اختفت هذه المصوغات فلم يعثر لها المحققون على اثر !

.. وشهد الطبيب ، قريب المجنى عليها ، بما يؤيد رواية ابن عمها عن حادث محاولة زوجها خنقها ، واضاف انه (هو) قد تولى علاجها بنفسه ، وبقيت فى منزله نحو اسبوع حتى شفيت . ثم زاد على ذلك ان الزوج — فى مرة اخرى — سرق مصوغات زوجته وهربها ، فلما استدعاه الطبيب واحرجه

ادعى انه كان يحفظها لها فى مكان أمين ، واضطر إلى إعادتها !

وجاء شاهد آخر يدعى « حسين محمد على » برواية هامة تعزز الاتهام ، فقرر بأنه غضب من زوجته ذات يوم فاعتزم أن يقيم مع قريبته المجنى عليها ، بناء على الحاحها ، واخذ متاعه فعلا على عربة صباح يوم الأحد ٢٨ نوفمبر . فلما وصل طرق الباب العمومى ففتح له المتهم ، وتجنب أن يدعه يدخل ، بل حرص على ان يخرج هو اليه .. ثم اجابه بجفاء بأن زوجته غير موجودة ، وأنه لا يمكنه قبول المتاع بالمنزل ، ثم نهره وطرده ! .. ففسر الرجل ذلك بأنه من تأثير حنق المتهم عليه بعد علمه أنه هو غريمه الذى قررت زوجته وقف بيتها عليه . بل وسلمته فعلا الأوراق اللازمة لإتمام إجراءات الوقف !

وهكذا تراكمت على المتهم القرائن وحاصره الشهود من كل ناحية ..

ولكن عماد الاتهام الذى لا يقف بدونه على قدميه ، ظل رغم ذلك مفقودا .. فقد فشلت جميع الجهود التى بذلت للعثور على النصف الآخر من جثة القتيلة ! .. والنصف الذى وجد لم يكن يحمل الدليل على أن تقطيع اوصالها كان هو سبب الوفاة .

او كان حسب التعبير الفنى « حيويا » ! .. وما من شىء ينفى بصفة قاطعة افتراض ان تكون الجثة قد قطعت على هذه الصورة « بعد » الوفاة الطبيعية .. لحكمة خافية !

الحلقة المفقودة

وهكذا ظل الاتهام معلقا ، اياما ..

.. حتى تلقى بوليس الوايلى فى ٢٥ يناير سنة ١٩٤٤ بلاغا من الساكنة التى اعقبت القتيلة فى شغل حجرتها ، وتدعى (ياسمين على) ، تقول فيه انه بينما كانت أختها فتحية عبد الرسول الجندى تعاونها على نشر «ثياب الغسيل» فوق سطح المنزل ، عثرت فى مخبأ بعيد عن الانظار على « صفيحة » يحوم حولها الذباب والدود ، وتنبعث منها رائحة خانقة ، فلما حركتها بقدمها فى اجفال تدحرج منها رأس بشرى وقطع متاكلة من اللحم ! .. فصرخت مذعورة واستغاثت بالجيران .

.. وبالفحص الدقيق بواسطة الطبيب الشرعى المساعد (الدكتور كمال السيد مصطفى) ، ثبت أن الوفاة « جنائية ، وأن صاحبة الجثة قد ماتت مخنوقة بضغط شديد على عنقها ، تسبب عنه كسر العظم اللامى ، كما استعمل العنف فى إزهاق روحها وذلك بضغط على صدرها تسبب عنه كسر الأضلاع ، كأن جثم الجانى على صدر المتوفاة وخنقها بيده على سبيل المثال ! »

(صدر عن دار فحص الموتى فى ١١ مارس سنة ١٩٤٤)

.. وأخيرا ، فى ١٣ أبريل وقع « رئيس نيابة مصر » تقرير الاتهام فى هذه الجناية (رقم ٤١٦ الوايلى سنة ١٩٤٤ — ١٤٠ كلى سنة ١٩٤٤) وقد جاء فيه أن النيابة العمومية تتهم « عبد الحليم عطية دسوقى ساعى محبوس بسجن مصر » :

« لأنه فى خلال المدة من ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٤٣ إلى اول ديسمبر سنة ١٩٤٣ بدائرة قسم الوايلى بمدينة القاهرة :

« قتل عمدا زوجته حسنة بسيونى عبده ، بأن جثم على صدرها وخنقها قاصدا من ذلك قتلها ، فأحدث بها الاصابات المبينة بالتقرير الطبى الشرعى والتى أودت بحياتها . ثم فصل راسها وقطع اوصالها ، وكان ذلك مع سبق الاصرار ! »

❋

وفى تنفس الاتهام ، بقاعة محكمة الجنايات ، جلس المتهم فى ذلك اليوم ينتظر النطق بالحكم .. ساهما ، شاردا كالمذهول !

ترى فيم كان يفكر ؟ وأية أطياف من الذكريات دهمته ؟ أطيف ليلة الجريمة .. وهو فى غرفة ضحيته يشاركها طعام العشاء ويناولها طبق (الكشرى) بنفس اليد التى كان يهيئها للاطباق على رقبتها بعد لحظات ثم لتقطيع أوصالها .. وتركها طعاما للديدان ؟؟

«... أم طيف يوم الحج قبيل تلك الليلة بشهور معدودات — وهو واقف معها فى عرفات ، أو متعلق بأستار الكعبة ، يستغفر ربه عما تقدم من ذنبه .. وما تأخر !؟

.. ونطق القاضى بالحكم .. بالاعدام شنقا !

.. ففرت من خيال الجانى جميع الأطياف ، تاركة مكانها لطيف واحد مخيف : حبل المشنقة !



THE KILLER
WAS ASLEEP
BY
SPENCER HARDY
محاكمات أحدثت دويا
القاتل
كان نائما!

جناية حيرت رجال القانون !

هل يسأل الإنسان عن التصرفات والجرائم التى يرتكبها أثناء نومه ، خلال نوبات المرض المعروف الذى يمشى المرضى به ويتحركون ويرتكبون الأفعال وهم نائمون ، ولا يحسون أو يدركون ما يفعلون ؟

أم تعتبر تصرفات المرء أثناء تلك النوبات نوعا من الجنون ، أو عدم المسئولية ، لا يسأل المصاب به عن أفعاله ؟

هذا هو الإشكال الذى عرض على محكمة جنايات مدينة ((بوسطن)) بأمريكا أثناء محاكمة الشاب ((البرت تيريل)) أمامها . فبماذا حكم المحلفون فى تلك القضية ، التى انتهى فيها الحب المحرم بين الجانى والمجنى عليها إلى مأساة مفجعة ؟

المال أصل كل الشرور !

كان « تيريل » — وهو ابن صانع للأحذية بمدينة « ويماوث » الأمريكية — متزوجا من فتاة حسناء ، عاش معها حياة هادئة فاضلة لا غبار عليها .. حتى مات أبوه تاركا له ثروة لا بأس بها . ومنذ ذلك التاريخ تغير الشاب تغيرا كاملا ، فبدأ يبدد ميراثه فى المجون والعربدة ..

وخلال مغامراته الماجنة تعرف « تيريل » بامرأة تدعى « ماريا بيكفورد » كانت زوجة لصانع أحذية آخر يقطن مدينة بانجور ، بولاية مينيسوتا . وكانت ماريا على قدر كبير من الجمال ، ذات جسم فاخر ، تحلى هامتها بإكليل من الشعر المستعار تستعين على تثبيته بموسى حادة على شكل « دبوس » تحتفظ بها دائما فى حقيبتها .. كما كانت تحمل معها دائما خنجرا صغيرا أنيقا تدسه فى حمالة جوربها ، كى تنظف به أظافرها عند الحاجة ! .. أما ثيابها الأنيقة وحليها الرائعة فقد ميزتها وجعلت لها مكانة خاصة بين نساء الإقليم جميعا ، لا سيما بعد أن صارت خليلة للشاب الوارث « البرت تيريل » !

تستفزه كى يضربها !

وكانت شخصية ماريا ، وصلتها بعشيقها تيريل ، على درجة من التعقيد تستحق معها أن تدرس بمعرفة أحد علماء التحليل النفسى المحدثين الذين يزدحم بعياداتهم اليوم شارع « بارك افنيو » بنيويورك ! كانت شغوفة بأن تثير شجارا مع عشيقها كل حين ، بلا غاية مفهومة أو سبب ظاهر غير رغبتها فى استفزازه كى ينهال عليها بالضرب المبرح ! .. وكثيرا ما كان نزلاء « هانوفر هاوس » — وهو الفندق الذى اعتاد العاشقان أن يلتقيا فيه بمدينة بوسطن — يسمعونها تهدد بطعن حبيبها بخنجرها الصغير ، أو ذبح نفسها به ! .. وكانت كلما ضاق صدرها أو استبد بها الانفعال تتعاطى قدرا من صبغة

الأفيون .. أو تعزف لحنا على آلة « الأكورديون » التى كانت تتقن العزف عليها .

وذات مساء — بعد نحو عام أو أكثر من ذلك التاريخ — طرد الاثنان من فندق « هانوفر هاوس » والقى القبض على الشاب بتهمة الزنا ، بعد أن دبر له ذلك الكمين نفر من أقربائه بغية تلقينه درسا يردعه ويعلمه كيف يرجع عن غيه ويحسن معاملة زوجته فى المستقبل ! .. لكن اولئك الأقرباء لم يلبثوا ان ندموا على تسرعهم وطلبوا من المحكمة ان تراف بالمتهم وتحكم بايقاف تنفيذ العقوبة بالنسبة إليه .. وهكذا اخلى سبيل تيريل بعد ان دفع النفقات المحكوم بها عليه وخرج واعدا بالعدول عن مسلكه المعوج — لمدة ستة أشهر على الأقل ، وفقا لقانون تلك الولاية — وبالابتعاد عن « ماريا » بصفة خاصة !

ووقع الحكم على ماريا وقوع الصاعقة ، فكتبت إلى زوجها تتظلم منه (كذا) ، طالبة معونته بحجة أنها لا تملك نقودا تعيش منها ، الأمر الذى سوف يضطرها إلى الانزواء عن الناس خجلا وعارا ! لكن الزوج المثلوم الشرف لم يمد يده ليعينها او ينقذها من مأزقها .. فراحت تطرق الأبواب باحثة عن عمل ومأوى ، حتى وجدتها فى ماخور للفساد يقع فى زقاق منعزل يسمى « سيدار لين واى » ويديره زوجان هما مستر ومسز جويل لورانس . وكانت « الموظفة » الوحيدة الأخرى — المنتظمة — فى تلك الدار امرأة تدعى « بريشيلا بلود » ، لها صديق اسمه مستر باترسون .

وكانت الدار مؤلفة من طابقين ، ويشغل صاحبها لورانس غرفة خاصة به فى الطابق الاول منها ، وتشغل زوجته غرفة اخرى به تشاركها اياها خادمتها « ماريا رايس » . ويشغل الغرفتين الأخريين بنفس الطابق : ابنهما البالغ من العمر ١٥ عاما ، وابنتهما البالغة ١٢ عاما ، كل على حدة .. اما الطابق العلوى فكانت به ثلاث غرف ، تشغل كل من ماريا وبريشيلا واحدة منها ، والثالثة — الواقعة بينهما — كانت خالية فى تلك الفترة ..

أصوات غامضة تمزق سكون الليل !

ولنعد إلى البرت تيريل .. كان قد اطلق سراحه ووضع تحت المراقبة يوم الثلاثاء ٢١ اكتوبر سنة ١٨٤٥ على وجه التحديد ، بعد ان اخذ عليه تعهد بعدم الاتصال بعشيقته لمدة ستة اشهر على الأقل كما اسلفنا . ولكن لم يمض من تلك المدة يوم واحد حتى التقى تيريل بماريا ومضى معها إلى دار الدعارة التى تقطنها فى زقاق « سيدار لين واى » .. وهناك قضى العاشقان خمسة ايام يشربان الخمر ويتشاجران ويتضاربان ، ثم يتصالحان فيتناجيان ويتبادلان الغزل والقبل! .. كى يعودا إلى سيرتهما الأولى من الشجار والتضارب مرة اخرى ، وهكذا .. حتى صباح يوم الاثنين التالى ٢٧ أكتوبر ، حين وقعت المأساة !

فى بداية الليل سمعت « بريشيلا » العاشقين يتشاجران بشان خطابات تلقتها ماريا من رجل آخر .. ثم سمعت الشاهدة نقاشا حاميا آخر بينهما عندما مزق تيريل زوجين

من الأحذية التنكرية كان قد اشـــتراها لمحبوبته ! وتلت ذلك نوبات من السلام والتفاهم المبارك كانت تتخللها الخلافات بين الحين والآخر على صـــورة مضحكة .. ثم اســـتدعت ماريا صديقتها الشاهدة إلى غرفتها مزهوة كى تريها جمال الهندام الذى يرتديه عشيقها ، فراته يختال كالطـــاووس فى بنطلون مخطط وسترة منقطة وقبعة لامعة ، وكات ماريا تكاد تتيـــه اعجابا بسترته المنقطة بصفة خاصة !

ونحو الساعة الرابعة من فجر الاثنين سمعت بريشيلا صوت ارتطام شىء ثقيل بالأرض ، ثم خطوات شخص يهبط السلم مسرعا .. وخليطا من الانين والصياح المكتوم . كما شمت رائحة دخان ! .. كانت النـــار قد اشتعلت فى بعض الحشايا المكومة بجوار جدار حجرتهـــا وعند قمـــة السلم ، وبـــدات السنة اللهيب تمتد إلى الأسرة الخشـــبية .. فهرعت الشاهدة ترتدى بعض ثيابها ، واخـــذ صاحبا الدار يصرخان مستغيثين : « النار .. النار ! » واقبل جار يدعى « هاتش » حـــاملا جردلين مملوئين بالماء وراح يصـــب محتوياتهما على الحشايا ويصيح بمستر لورنس صاحب الدار وزوجتـــه كى يساعداه بجلب مزيد من المـــاء ..

اكتشاف الجريمة

وحين وصل جندى من رجـــال المطافىء يدعى « بوكر » اعترضه مستر لورنس عند السلم الخارجى زاعما ان النار قد اطفئت .. لكن الجندى شك فى الأمر واستعان بالمدعو هاتش

على تخطى سكان الدار المعترضين وراح يتسلق السلم عدوا ثم اقتحم الغرفة التى تنبعث منها السنة اللهب — وكانت غرفة ماريا — واسرع إلى النافذة يفتحها ليبدد الدخان المتكاثف فى جو المكان ..

وعند ذلك بدت له ماريا راقدة على الأرض على مسافة من الفراش وقد شقت رقبتها ! وعلى مقربة منها موســـاها ملطخة بالدم وبجانبها جرابهـــا . وكان على جسدها قميص النوم ، وعلى ساقيها آثار حروق لحقتها من حشـــية القيت فوقها واشتعلت فيها النار ..

وكان قد انتزع من احدى أذنيهـــا قرطها — وهى مهمة كانت تستغرق وقتا فى تلك الأيام التى كانت تثقب فيها الآذان لتثبيت الأقـــراط داخـــل ثقوبها — وهـــذا يفسر سبب إحجام الجانى عن انتزاع القرط الثانى ..

اما حقائبها وجميع ثيابها الفاخرة المتناثرة فى ارجاء المخدع فكان يتصاعد منها دخان اللهب المكتـــوم ، كما دست اعـــواد الثقاب فى ثنايا القش الذى حشيت به «مرتبة» السرير ، بغية حرقها .. لكن الدم الذى سال من جسد القتيلة عاق النار عن ان تسعى فيها سعيها الحثيث ..

الجانى يحاول الفرار !

وفيما كانت هذه المعلومات تجمع كان البرت تيريل يوقظ « سائس » إسطبل « فولام » للجياد ، الذى لا يبعد عن الدار كثيرا ، طالبا ان يعد له مركبة وحوذيا كى يعـــود إلى بلدته

« ويماوث » بأقصى سرعة ، زاعما انه فى مأزق وان احدهم قد حاول قتله ! .. وبينما كان السائس يشد جوادين سريعين إلى العربة ، اسرع تيريل إلى منزل قريب يقطنه « صامويل هيد » وزوجته ، واخذ يدق الباب فى عنف والحاح، فلما اقبلت الزوجة لتفتح له صاح بها : « أريد ثيابى ! » .. ولما كانت المرأة لا تعرف أن له ثيابا غير بضعة مناديل تحيكها له خياطة تقطن فى نفس المنزل ، فقد استدعت زوجها ليتفاهم معه ، وفيما يلى الرواية التى ادلى بها الزوج فى التحقيق :

« كانت حركات تيريل وتصرفاته غريبة شاذة .. فهززته بعنف ، وعندئذ بدا كأنه أفاقَ من غيبوبة أو كابوس ، لم يكن اثناءه يعلم اين هو ولا ماذا جاء يفعل .. وكأنه كان نائما ! وسألنى حائرا : « سام ، كيف جئت انا إلى هنا ؟ » فقلت له إنى لا أعرف .. وإنما اعرف فقط انه اشار إلى اعتزامه السفر إلى ويماوث » .

وعاد الشاب إلى حيث أوصى على العربة فاستقلها إلى بلدته . وحين وصل إلى هناك انبأ حماه «ناثانييل بيلى» انه هارب من العدالة ! وإذ ادرك هذا ان الأمر يتصل ولا شك بعلاقة الشاب بعشيقته ماريا فقد بادر إلى اخفائه .. فلما جاء رجال البوليس للبحث عن القاتل الهارب وصارحوا حماه بالتهمة الموجهة إليه انكر وجوده عنده او رؤيته له !

وحين ذهب رجال البوليس اقسم تيريل لحميه انه برىء من تهمة القتل ، وعرض ان يسلم نفسه للسلطات .. لكن بيلى

منحه مبلغا كبيرا من المال ونصحه بالمبادرة إلى الفرار من البلاد ..

هل ارتكب الجريمة وهو نائم !

وعمل تيريل بالنصيحة فسافر إلى ميناء « نوفاسكوتشيا » حيث استقل سفينة وجهتها اوربا . لكن السفينة رست فى نيويورك خلال الطريق فقبض رجال البوليس هناك على الشاب، وبعد التحقيق معه قدم إلى المحكمة بتهمة قتل عشيقته ماريا بيكفورد !

ووكل المتهم للدفاع عنه محاميا من اشهر محامى أمريكا وقتئذ هو « روفوس كوات » .. وبنى كوات دفاعه على اساس فروض ثلاثة : أولها ان المرأة قد شقت رقبتها بموساها بيدها هى لا بيد تيريل ، اى انها انتحرت ولم تقتل ! والفرض الثانى أن آل لورنس أصحاب الدار التى كانت تعمل فيها كذبوا فى شهادتهم ودبروا الأمور بحيث تحوم الشبهة كلها حول تيريل ، فى حين انهم هم الذين قتلوا ماريا وسرقوا حليها وجواهرها ! .. أو قد يكون تيريل هو القاتل حقا — وهو الفرض الثالث والأخير — وفى هذه الحالة لا يكون مسئولا عقليا عن جريمته كما سيجىء البيان .

لكن محامى المتهم لم يلبث ان اضطر إلى التنازل عن الفرض الأول الذى يقول بانتحار ماريا ، حين اثبت الفحص الطبى ان المرأة إنما ذبحت فى فراشها حيث آثار الدم الغزير الذى سال منها ، ولما كانت جثتها قد وجدت على مسافة بعيدة

من الفراش ، يتعذر عليها ان تقطعها على قدميها بعد اصابتها فلا يبقى غير الجزم بأنها قتلت ، وان قاتلها هو الذى نقلها إلى المكان الذى وجدت فيه ، ثم أشعل فيها النار !

.. وعاد المحامى فتنازل عن افتراضه الثانى أيضـــا ، الخاص باتهام آل لورنس اصحاب الدار باقتـــراف الجريمـــة وسرقة مجوهرات القتيلة ، حين عجز المحققون عن الاهتداء إلى تلك الحلى الثمينة فى دارهم او فى مكان يحتمـــل أن يكونوا قد أخفوها فيه او تصرفوا فيها إليه ..

وهكذا لم يبق امام محامى المتهم غير ان يلجأ إلى الفرض الثالث فيتحصن وراءه . مركزا دفاعه فى القول بأن الشاب قد ارتكب جريمته وهو نائم ، لا يدرك ماذا فعل ، ومن ثم لا يكون مسئولا عن فعله ، شأنه شأن المجنون ســـواء بسواء ! .. وشهد عدد من أصدقاء المتهم واقربائه بانه كان كثيرا ما يمشى اثناء نومه ويهاجم بعضهم فى تلك الحالة . بل إنه حاول مرة ان يقفز إلى الخارج من خلال نافذة مغلقة، لولا ان استيقظ اهل البيت على صوت تحطيم زجاجهـــا ! .. واســـتدعى تاجـــر الزجاج فشهد بأنه تولى تركيب زجا ج جديد للنافذة بدل الذى كسر .. كما اتفقت كلمة اولئك الشـــهود على ان تيريل كان يصدر من حلقه اثناء تلك النوبات صـــوتا شـــبيها بالأنين او الصياح المكتوم ، لعله هو الصوت الذى سمعته « بريشيلا » صادرا من غرفة القتيلة ليلة الحادث !

ثم سمعت اقوال الطبيب الذى حاول معالجة الشاب من

نوبات المشى اثناء نومه ، فشهد بقوله : « لقد عالجت الحالة علاجا طبيا باعتبارها مرضا معترفا به . وقد كان مريضى حين يستيقظ من النوبة يعجز عن تذكر ما حدث منه أثناءها ! » .

الحـــكم

ثم خلت المحكمة للمداولة ، فاستعرضت ادلة الاتهام التى تثبت ـــ بشهادة جميع الشهود ـــ أن تيريل وماريا قد دخـــلا الغرفة فى الساعة التاسعة مساء الأحد ولم يغادرها احدهما حتى حدوث الجريمة فى فجر الاثنين، ومن ثم كانت لدى الشاب الفرصة الكافية لقتل المجنى عليها ، كما كان لديه الدافع على ارتكابها ، إذا صدق ما قيل عن غيرته الشديدة على عشيقته فى الأيام الأخيرة ! .. ثم استعرضت المحكمة حجج الدفـــاع المضادة ، واخيرا واجه القاضى هيئة المحلفين قائلا : إن الأدلة كلها تجمع على ان المتهم هو الذى ارتكب الجريمة : « ولكن نوم اليقظة الذى يقال إن المتهم مصاب به هو نوع من الجنون، ينبغى أن يعفى من العقاب .. فاذا ثبتت إصابة المتهم به يكون ذلك فى ذاته مجالا للدفاع عنه » .

واصدر المحلفون قرارهم بأن المتهم « غير مذنب » .. فحكم القاضى بالبراءة !

ترى لو عرضت هذه القضية على المحاكم فى ايامنا هذه ، على ضوء النظريات الطبية المعاصرة وعلم النفس الحديث ، وبعد انقضاء قرن كامل من الزمان .. ماذا يكون حكمها ؟


THE CASE OF
BURKE AND HARE
by
H MONTGOMERY
HYDE
جثث للبيع !
القضية الجنائية التى أحدثت انقلابًا فى القانون !
للمحقق الإنجليزى مونتجمرى هايد

فى ليلة ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٢٧ شوهد رجلان غريبان يسيران متلصصين فى اتجاه بناء كلية الطب بجهة « ساوث بريدج » بمدينة ادنبرة .. وإذ صادفا فى الطريق طالبا من طلبة الجامعة سألاه عن مقر الدكتور « مونرو » أستاذ التشريح بالكلية .. لكن المصادفة شاءت ان يكون الطالب المذكور من تلاميذ أستاذ آخر للتشريح يدرس العلم نفسه بكلية الجراحين القريبة ، هو دكتور « نوكس » .. فأشار عليهما صاحبنا بالتوجه إلى الأخير فى مقره بميدان «سارجان» رقم ١٠ .. فاستدار الرجلان ومضيا فى الاتجاه الذى ارشدهما إليه ..

وحين وصلا إلى مقر الدكتور نوكس استقبلهما ثلاثة من مساعدى الجراح الكبير كانوا يؤدون نوبة عملهم الليلى فى مؤسسته .. وبعد حديث تمهيدى يشوبه التحفظ ، افصح الرجلان عن نيتهما ، قائلين إن عندهما جثة يملكان التصرف فيها ! .. فقد سمعا أن الحصول على جثث لاستخدامها فى الدراسة والتشريح أمر متعذر ، وان الثمن الذى يدفعه الراغبون فى الحصول على جثة لهذا الغرض يبلغ احيانا عشرة جنيهات !

وتم الاتفاق على الصفقة فى الحال .. وفى ساعة متأخرة من تلك الليلة ذاتها سلمت « البضاعة » داخل جوال ! .. وبعد ان تولى الجراح الكبير فحصها بنفسه دفع مقابلا لها مبلغ سبعة جنيهات وعشرة شلنات .. وقبيل انصراف البائعين اعرب لهما المساعدون الثلاثة عن ترحيبهما بالتعامل معهما كلما حصلا على جثة جديدة .. !

محاكمة أحدثت دويا .. !

ولو تتبعنا حياة المساعدين الثلاثة الشبان فى الأعوام التالية لرايناهم ينبغون فى الجراحة ويتسلقون سلم الشهرة والمجد ، فيعرفون بأسماء : سير وليم فرجسون ، وتوماس هوارتون جونز ، والكسندر ميللر ! .. اما استاذهم دكتور روبرت نوكس ، الذى كان قد نبغ فى سن مبكرة — لم تك تتجاوز يومئذ السادسة والثلاثين — فان ذلك الحادث جلب عليه الكثير من المتاعب والنتائج السيئة ..

واما بائعا الجثة ، وكان احدهما يدعى « بيرك » والآخر « هير » ، فقد قفز اسماهما فجأة إلى الصفحات الأولى من صحف انجلترا بأسرها ، يوم قدما إلى المحاكمة فانكشف من جرائمهما البشعة ما شغل الأذهان فترة طويلة ، وجعل محاكمتهما اشهر محاكمة فى تاريخ القضاء الأسكتلندى على الاطلاق .. !

بل ان تلك المحاكمة كانت السبب المباشر فى تعديل إحدى مواد قانون العقوبات الإنجليزى — كما سيجىء ..! ثم فى ادخال لفظ جديد على قاموس اللغة الإنجليزية ، هو لفظ To Burke — نسبة إلى اسم المتهم الأول — وقد صار معناه فى اللغة اليوم : « يقتل خنقا .. أو يزهق الأنفاس » !

ماضى المتهمين ..

كان « وليم بيرك » و « وليم هير » ايرلنديان نزحا إلى اسكتلندة قبل ذلك التاريخ بسنوات كى يشتغلا « عاملين »

فى انشاء قناة « يونيون » .. وكان كلاهما فى سن الخامسة والثلاثين ، ذا خلق وضيع ، ومكر ، وقسوة ، ولو أن «بيرك» كان اكفأ من زميله وأذكى ، وافصح منطقا ولسانا .. بينما كان هير أقوى فى الجسم واقسى قلبا وأكثر توحشا .. !

وكانا يعيشان معا فى « بنسيون » متواضع تملكه زوجة ثانيهما « مسز هير » ، وتتولى إدارته خليلة الأول ، وهى امرأة ذات سيرة مريبة تدعى مسز هيلين ماكدوجال ..

وقد حدث فى اليوم السابق لزيارة الرجلين لأستاذ التشريح ، أن توفى شخص من قاطنى البنسيون يدعى « دونالد » ، كان مجندا متقاعدا من مجندى الجيش القدامى .. وقد اعتلت صحته شيئا فشيئا ، حتى عجل بخاتمته امران كانا مالوفين فى ذلك الوسط والحى اللذين يعيش فيهما ، هما ادمان الخمر ، والاهمال ..

وحين ادركت الرجل منيته ، كان مستحقا عليه اجر اقامته فى البنسيون — وقدره اربعة جنيهات .. ومن هنا ومضت فى ذهن « هير » تلك الفكرة الجهنمية : فكرة ان يتقاضى دينه هذا من جثة الميت ، ببيعها إلى طبيب من المشتغلين بالتشريح .. وكان صاحبنا يعلم عن يقين ان أولئك الجراحين كثيرا ما يحصلون على حاجتهم من تلك الجثث من اللصوص وحفارى القبور الذين يكسبون معاشهم من نبش المقابر وبيع جثث الموتى او حليهم وأسنانهم الذهبية .. الخ

وكانت الخطوة الأولى التى خطاها « هير » فى هذا

السبيل انه كاشف بسره هذا زميله « بيرك » القاطن معه فى بنسيونه ، فلما استوثق من استعداده لمشاركته فى مشروعه مضى الاثنان فحصلا من مدبغة قريبة على كمية من الجلود ولحاء الشجر وكتان اشرعة المراكب ، ثم عادا إلى الحانة — أو البنسيون — ففتحا نعش الميت ، الذى كان حانوتى الضاحية قد اغلقه وثبته بالمسامير .. فاخرجا منه الجثة ووضعا مكانها كمية من تلك الجلود والكتان تعادل وزنها ، كى لا يكتشف الحانوتى الأمر .. ثم خرجا متلصصين يبحثان عن جراح يشترى منهما الجثة ..

الشركة الجهنمية !

فى تلك الأيام لم يكن لدى الجراحين واساتذة التشريح مورد « رسمى » يحصلون منه على الجثث اللازمة لأبحاثهم غير ما يتاح لهم بين الحين والحين من الاستئثار بجثة منتحر ، او طفل لقيط ، أو يتيم مات فى اصلاحية الأحداث ، او مجرم مات فى السجن فصرحت لهم الدولة بالتصرف فى جثته ! .. وفيما عدا هذه المصادفات النادرة كان القانون يحرم على اى إنسان ان يتصرف حتى فى جثث افراد اسرته لهذا الغرض .. ومن هنا راجت — فى القرن الثامن عشر — تجارة نابشى القبور .. حتى بلغت ذروتها فى أوائل القرن التاسع عشر .. لكن توريد الجثث للأطباء عن هذا الطريق عاد فتضاءل قبيل اشتغال « بيرك » و « هير » به بفترة وجيزة ، ويرجع تضاؤله لسببين : أولهما شيوع عادة دفن الموتى فى نعوش حديدية محكمة .. والسبب الثانى لجوء افراد الطبقات الموسرة إلى تشديد الحراسة على مقابر موتاهم .. !

فلما مات ذلك المجند المتقاعد ، فى بنسيون « هير » ، وافلح الأخير فى بيع جثته مقابل سبعة جنيهات ، بدأ المذكور يتحين الفرص لتكرار تلك الصفقة التى تدر عليه المال بهذا السخاء وهذه السهولة ! .. فوضع مع زميله « بيرك » خطة للاثراء من بيع الجثث ، ولكن بطريقة أبسط خطرا من نبش المقابر .. وفى الوقت نفسه أكثر « نشاطا » من الانتظار حتى تسوق لهما المصادفة نزيلا يموت فى حانتهما « ميتة طبيعية »!

وهكذا أسس الزميلان تلك الشركة الجهنمية !

منجم للذهب !

وقد حانت فرصتهما الأولى فى أحد أيام ربيع سنة ١٨٢٨، يوم مرض بالحمى نزيل من نزلاء البنسيون ، وكان « طحانا » يدعى جوزيف ، فخشى « هير » أن يؤثر ذلك فى اقبال النزلاء الآخرين على الاقامة فى البنسيون .. فمضى مع شريكه «بيرك» إلى فراش النزيل المريض ، الذى كانت الحمى قد أضعفته بطبيعة الحال عن ابداء أية مقاومة جدية ، فوضع الشريران وسادة على وجهه ، ولبثا يضغطانها عليه حتى مات التعس مختنقا .. !

واخذت الجثة طريقها المرسوم إلى عيادة الجراح الكبير الذى دفع فيها هذه المرة عشرة جنيهات كاملة ، فقد كانت فى حالة جيدة ، ما تزال ساخنة بآثار الحياة !

واقنعت « السهولة » التى تم بها الأمر كله صاحبينا « هير » و « بيرك » بأنهما قد اكتشفا المنجم الذهبى الذى سوف يدر عليهما المال الوفير ..

وقد بدا فى الشهور الأولى أنهما كانا على حق فى هذا الاعتقاد .. فخلال العام التالى ارتكب الآثمان لا أقل من خمس عشرة جريمة من هذا القبيل .. أخذت جثث ضحاياها جميعا طريقها إلى مشرحة الدكتور نوكس .. قبل أن يكتشف السر الرهيب !

وكانت الخطة التى الف المجرمان اتباعها للتخلص من ضحاياهم ــ الذين كانوا ينتمون عادة إلى افقر الطبقات ، التى من مستوى ذلك البنسيون ــ انهما كانا يغريان ضحيتهما بالافراط فى شرب الخمر ، حتى يثمل ، وعندئذ يخنقانه بسهولة لا يبدو معها على جثته اى اثر لاستعمال العنف !

وكان بعض أولئك الضحايا على درجة من الفاقة تثير الأشجان حقا ، ومنهم خادمة تدعى « مسز هوسلر » ماتت وهى قابضة بشدة على أجر يومها المتواضع ، وقدره تسعة بنسات ونصف بنس ، بحيث عجز القاتلان عن انتزاعه من قبضتها حتى بعد موتها !

الجمال القتيل .. على المشرحة !

وقد ثبت من التحقيق أن القاتلين كانا يجيبان على أى سؤال محرج يوجهه إليهما الجراح او مساعدوه بشان مصدر الجثث التى يوردانها اليهم ، زاعمين انهما يشتريانها من اقارب المتوفين او اصدقائهم .. وقد وجه المسئولون فيما بعد انتقادا شديدا إلى دكتور نوكس ، لعدم تحريه صحة ذلك الزعم بمزيد من الدقة .. لكن الانصاف يقتضى المحقق ان

يبرئه من تهمة الإهمال فى هذا الصدد ، فان اقوال المجــرمين كانت بادية الصدق فى الواقع .. من قبيل ذلك أن المجــرمين باعا إلى الطبيب يوما جثة فتاة من بنات الهوى تــدعى مارى باترسون ، كان جمالها الرائع حـــديث المدينة بأسرها فى ذلك الحين .. فشاءت المصادفة ان يتعرف على شـــخصية الفتاة طالب من الحاضرين كان قد قضى معها ليلة قبل « وفاتهـــا » بأيام ! .. فسأل الرجلين عن مصدر حصولهما على الجثة ، فأجابه بيرك بأنه قد اشتراها من عجوز شمطاء عثرت عليها فى إحدى الحانات بعد أن قتلها الافراط فى الخمر ! .. ونظرا لأن رائحة الخمـــر كانت تفوح من الجثة ، فقد صـــدق القوم رواية الرجل ! ..

ووجد فيها الطبيب الكبير نموذجا نادرا للجسم الأنثوى المتناسب التكوين ، فأغرق الجثة بالمحاليل التى تمنع تعفنها ، ثم عرضها على طلبته فى قاعة التشريح الكبرى ، حيث تكأكأ الطلاب حول المنضدة التى رقدت عليها .. بل لقد أقبل على الكلية الكثيرون من رجال الفن ، ليدرسوا نموذجـــا من نماذج الجمال جدير بأن يســـجله مثـــال من مثـــالى الاغريق مثـــل « فيدياس » ! .. وبالفعل بلغ من اعجاب طالب من هـــواة الفن بجسم الفتاة انه رسم لها لوحة رائعة ما تزال معروضة فى أحد المتاحف إلى اليوم .. !

« الكبوة » التى اوقعت بالقاتلين !

وكانت الهفوة التى ادت إلى افتضاح المجرمين ، مأدبة شراب ساهرة اقاماها ذات ليلة ودعيا اليها الجيران ، ومعهم

امرأة غريبة شمطاء كان بيرك قد صـــادفها أثناء النهـــار فى حانة قريبة حين دخلت تسأل صدقة .. وعلم منها صـــاحبنا انها تدعى « دوهرتى » ، وأنها قادمة من ايرلندة ، فأجابهـــا من فوره بأن من غرائب المصادفات ان أمه كانت تحمل نفس الاسم ، وتنحدر من نفس البلد ، وإذن فلا بد ان هناك صلة قرابة بعيدة بين أسرتيهما ! .. وبعد ثرثرة طويلة افلح بيرك فى اقناع العجوز بأن تصحبه إلى « المسكن المنجع » الـــذى يقطنه .. وهناك رحبت بها كل من مسز « هـــير » ومســـز ماكدوجال ـــ خليلة بيرك ـــ أيما ترحيب ، ثم دعيت الضـــيفة إلى حضور المأدبة التى يعدها القوم .. بينما خرج بيرك يبحث عن « شريكه » حتى وجده فى أحدى الحانات ، فبشره بأن فى البيت « صفقة طيبة للطبيب ! »

وبدأت السهرة فى حجرة بيرك .. وكان بين الحاضرين ، عدا قاطنى البنسيون ، اثنتان من الجيران هما مسز لو ومسز كونواى ، ومجند قديم يدعى جراى وزوجته ، وكانا يقطنـــان فى المنزل لكنهما انتقلا منه فى تلك الليلة فقط كى يتـــركا مكانا للضيفة الشمطاء .. وسرعان ما انهمك الحاضرون فى الغناء والرقص والشراب .. حتى العجـــوز قـــد رقصت حـــافية القدمين !

وقرب منتصف الليل انصرف الجيران إلى بيوتهم ، وبعد فترة اخرى عاد جار آخر لم يدع إلى المأدبة يدعى «الستون» إلى غرفته فى الطابق العلوى من المنزل .. فلم يلبث حتى خيل إليه أنه يسمع صـــوتا نســـائيا فى الطـــابق الاســـفل يهتف

« النجدة ! » ، ثم تلته شهقة كالتى تصدر من إنسان تزهق انفاسه .. فهرع إلى الطريق ليبحث عن شرطى ، ولكنه لم يصادف واحدا .. فعاد إلى البيت حيث وجد الهدوء شاملا لا يوحى بوقوع شىء .. !

وفى صباح اليوم التالى حضر جراى وزوجته ليتناولا افطارهما فى البنسيون .. فلما لم يريا اثرا للضيفة الشمطاء سالا عنها .. فأجابت خليلة بيرك قائلة فى لغة سوقية : ان المراة قد تشاجرت مع بيرك فطردها من البنسيون .. !

جثة تحت السرير

لكن شكوك مسز جراى لم تلبث ان ثارت ، حين مضت لتأخذ جوربا كانت قد تركته تحت حشية سريرها ، فنهاها بيرك عن الدخول واوصاها بالابتعاد عن الغرفة ! .. لكنها انتهزت أول فرصة فعادت بعد ذلك خلسة إلى الغرفة .. وكم كان ذعرها وذهولها حين رفعت طرف الحشية ففوجئت برؤية جثة الضيفة الشمطاء عارية تحتها .. !

وللحال سارعت مسز جراى إلى جمع حوائجها وتركت المنزل كى تبلغ الأمر إلى البوليس .. وفى الطريق التقت اولا بمسز ماكدوجل ـ خليلة « بيرك » ـ ثم بزوجة شريكه « هير » .. فحاولت كل منها بدورها ان ترشوها بالمال كى لا تشى بما رات للجهات المختصة !.. لكنها اصرت على عزمها وانلحت فى الوصول إلى مركز البوليس ، حيث سردت كل معلوماتها بأمانة .. !

وفى هذه الاثناء كان الرجلان قد سلما طرد « البضاعة » فى مقر عميلهما الطبيب الكبير ، بعد أن أودعاه كالعادة داخل صندوق خشبى من صناديق الشاى .. وبعد عودتهما إلى البنسيون بقليل دهم رجال البوليس المكان ، بصحبة وارشاد مسز جراى ، لكنهم لم يعثروا على اى اثر للجثة ، سواء تحت حشية السرير أو فى اى مكان آخر من البنسيون ! .. ورغم انهم حين فتشوا غرفة بيرك وجدوا فيها بضع بقع من الدم على فراشه ، فان خليلته فسرت وجود الدم تفسيرا بدا طبيعيا ومعقولا .. !

إلى هنا كان مركز القاتلين سليما لا غبار عليه .. لكن الأقدار حين تشاء الايقاع بمجرم لا تعجز عن ايجاد الثغرة التى تنفذ منها العدالة إليه .. فقد سئل بيرك متى راى العجوز لآخر مرة ؟ فأجاب بأنها قد تركت البنسيون فى الساعة السابعة « صباحا » .. فلما وجه السؤال ذاته إلى خليلته مسز ماكدوجال قالت ان المراة تركت البنسيون فى الساعة السابعة « مساء » ! .. !

وازاء هذا التناقض الواضح القى القبض على الاثنين !. ثم قبض على هير وزوجته بعدهما بقليل .. واستطاع المحققون ان يتوصلوا إلى معلومات تثبت تردد المتهمين على مقر الجراح الكبير ، فدهم البوليس المكان وعثر فى مخزن المشرحة على الصندوق الذى فيه جثة العجوز ، وكان ما يزال مغلقا ومربوطا بالحبال .. وعند فتحه استطاع الشهود ان يتعرفوا فى الجثة على الضيفة التعسة مسز دوهرتى .. !

لكن الأطباء « الشرعيين » الذين فحصوا الجثة عجزوا عن ان يتبينوا فيها « طبيا » اى اثر يثبت أن صاحبتها ماتت ميتة جنائية ! .. وزاد الاشكال تعقيدا ان المتهمين المقبوض عليهم أنكروا ان ابصارهم وقعت على المراة من قبل ، بحيث بات من العسير اثبات التهمة عليهم امام القضاء ! .. ومن هنا قرر ممثل الاتهام — وكان يدعى سير وليم راى — ان السبيل الوحيد لتدعيم الاتهام هو اقناع احد المتهمين بأن يشهد ضد شركائه فيستمتع بحصانة « شاهد الملك » !

وبدأ الرجل بعجم عود الخليلة — مسز ماكدوجال — لكنها أبت الادلاء باية معلومات تخدم الاتهام .. فكرر محاولاته مع زوجة الشريك « مسز هير » ، فلم تستجب بدورها لاغراء الشهادة ضد زوجها .. وهكذا بات الأمل فى نجاح المحاولة منحصرا فى الرجلين : هير وبيرك ! .. ورجح المحقق ان يكون الثانى هو بمثابة الراس المدبر لتلك السلسلة من الجرائم .. وعلى هدى هذا الترجيح ركز همه فى محاولة استدراج الأول إلى الوشاية بزميله ، فنجح هذه المرة فى محاولته ! .. ونتيجة لذلك ومكافاة للشريك على خيانة شريكه ، اعفيت زوجته ايضا من المحاكمة !

المحاكمة

وقد بدات محاكمة المتهمين الآخرين — بيرك وخليلته — فى الساعة العاشرة من صبيحة ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٢٨ وتولى مهمة الدفاع عن بيرك المحامى الشهير « سير جيمس مونكريف » ، بينما وكل عن خليلته مسز ماكدوجال محام آخر لا يقل عنه مكانة هو سير هنرى كوكبورن .

واغفلت دعوة الدكتور نوكس إلى الادلاء بشهادته فى القضية ، الأمر الذى خيب آمال النظارة والجماهير .. وعلل اغفاله بأنه لم يكن حاضرا فى مستشفاه وقت استلام حارس الباب لجثة الشمطاء .. وقد شهد الحارس المذكور بأن الطبيب طالما اشترى فى الماضى من بيرك وشريكه جثثا لأشخاص مختلفى الأوصاف والأعمار ..

وفى تلك الأيام لم يكن مألوفا ان تنفض جلسة المحاكمة قبل ان تفرغ المحكمة من القضية وتصدر حكمها فيها .. وهكذا استمر نظر هذه القضية طيلة الليل ، فسمعت اقوال ثمانية عشر شاهدا كان منهم بطبيعة الحال « شاهد الملك » ، او الشريك الواشى ، « هير » ، الذى أدلى بكل ما طلب الاتهام منه ان يدلى به ! ..

وفى منتصف الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى — يوم عيد الميلاد — رفعت الجلسة للمداولة ، التى استمرت خمسين دقيقة ، عاد المحلفون بعدها إلى مقاعدهم لينطقوا بالحكم : بادانة «بيرك» ، واخلاء سبيل خليلته مسز ماكدوجال « لعدم كفاية الادلة » !

وبعد ان انتهى المحلفون إلى تقرير ادانة بيرك ، بقى على رئيس المحكمة ان يحدد نوع ومدى الحكم بالادانة — كما يقضى نظام القضاء فى بلاد الغرب — فأصدر حكمه « باعدام المتهم شنقا » .. ثم تسليم جثته لأحد اساتذة التشريح كى يجرى عليها تجاربه فيوقع بها المصير الرهيب الذى الحقه صاحبها بضحاياه !

.. ثم أضاف القاضى مخاطبا المتهم : « واعتقد انه إذا

استلزمت الظروف فى بعض الأحيان الاحتفاظ بالهيكل العظمى لجثة ما ، فان هيكلك العظمى سوف يحفظ ، كى تظل الأجيال القادمة تذكر على الدوام جرائمك البشعة ! »

تنفيذ الاعدام .. امام الجماهير !

وإذ قضى الأمر ، وتقرر مصير المتهم نهائيا فأودع زنزانة المحكوم عليهم بالموت .. لم يبق مبرر لإمعان الأثيم فى الإنكار ، فادلى آخر الأمر باعتراف مفصل بجميع الجرائم التى اشترك فيها ! ..

وفى الساعة الثامنة من صبيحة ٢٨ يناير سنة ١٨٢٩ نفذ فى « بيرك » حكم الاعدام شنقا ، فى ميدان سوق « لون ماركت » امام جمهور من النظارة قدر عدده بخمسه وعشرين الفا ، ظلوا يتصايحون بالجلاد وهو يصلح الحبل حول رقبة المحكوم عليه : « اخنقه ! .. اخنقه ! » .. ثم تلت ذلك صيحات تطالب براس شريكه الواشى « هير » ، بل وراس استاذ التشريح « الدكتور نوكس » نفسه ! ..

وبمرور الأيام وجدت جثة « وليم بيرك » طريقتها إلى مائدة التشريح ، حيث بدىء بفحص عقله اولا ، فاذا هو « ناعم جدا ! » على حد تعبير الطبيب الشرعى ! .. ثم نفذت تعليمات رئيس المحكمة بشأن الاحتفاظ بهيكله العظمى ، بحيث يعتز اليوم متحف التشريح بجامعة ادنبرة بهيكل «وليم بيرك» ، باعتباره من اهم الهياكل العظمية التى تدرس بعناية ، سواء من جانب الاساتذة او الطلاب .. !

المحاكمة التى احدثت انقلابا فى القانون !

وكانت للمحاكمة آثار كثيرة متعددة : فان دكتور «نوكس»

ـ الذى بات موضع حملات عدوانية متصلة سواء على صفحات الصحف ، أو على شخصه حضوريا ـ لم يلبث ان اضطر للمهاجرة إلى لندن ، حيث تضاءلت ارباحه شيئا فشيئا وافل نجمه .. !

واما « هير » ـ الذى كان قد اطلق سراحه ، ثمنا لشهادته ضد زميله ـ فانه قد فر بدوره إلى انجلترا .. وفيما هو منطلق بعربة البريد نحو هدفه تعرفت عليه الجماهير الغاضبة ، منادية بقتله خنقا مثل شريكه ! .. فلم ينج من الهلاك إلا فى آخر لحظة ، وبشق النفس ! .. لكنه لم ينج من مصير افجع من الموت ، فقد القى فى حفرة من الجير افقدته بصره ! .. وهكذا لم تمض سنوات حتى صار يرى فى شوارع لندن شيخ مسن أعمى يسأل الناس الصدقات ، وكانت الأصابع فى كل مكان تشير إليه باعتباره شريك « بيرك » الواشى الوضيع ..

على ان اهم نتيجة للمحاكمة على الاطلاق ، كانت اقرار البرلمان الإنجليزى فى سنة ١٨٣٢ لقانون التشريح الجديد ، الذى بات يجيز لأقرباء الميت ـ او فى حالة غيابهم : للسلطات المحلية ـ أن تسمح بارسال جثته إلى إحدى كليات الطب ، بحيث يمكن استخدامها ـ قبل دفنها ـ فى دراسة علم التشريح وفنونه ، وممارسة الجراحات .. الخ

وبسبب صدور هذا القانون لم تتكرر جرائم « بيرك » و « هير » الشاذة فى انجلترا منذ ذلك التاريخ .. ولا ينتظر ان تتكرر !



أشهر القضايا الجنائية الحديثة

القاتل .. الذى حاز عطف الجماهير!

للكاتب والمحقق الإنجليزى: روبرت فورنو

عزيزى القارىء :

شعرة بين الاعدام وبين العودة إلى الحياة .. شعرة رفيعة ، يتعلق بها المتهم والدفـاع ، وقـد تحتملهما معـا فتنتهى إلى أن يرى القضاء ان الجريمة لم يسبقها « عمد ولا ترصد » ، وفى هـذه الحـال ، يستبعد الاعدام نهائيـا من تقـديره ، وينصرف إلى وزن الظـروف التى احاطت بالمتهم وبالجريمة .. وقد يصدر — بعد ذلك — حكمـا مخففـا إلى اقصى الحدود !

والمتهم فى القضـية التى نقدمها لك اليـوم — من كتاب « اشهر القضايا الجنائية » ، لروبرت فورنو — كان قد اعتزم القتل .. قتل زوجته الخائنة ، ولكن الظروف ساقته — على غير توقع — إلى قتل عشيق الزوجة ! .. وكان السبب هو : « الاستفزاز » ..

واثارت القضية ضجة بين الناس والصحف .. ولكن ضجيجها فى الدوائر القانونية والقضائية — فى إنجلترا — كان اشد واقوى .. إذ كان لابد من تحديد لدرجة « الاستفزاز » التى تسمح للمرء بأن ينسى نفسه ويقدم على جريمة قتل ..

ومن هنا تدرك ان القضية ليست لمجرد التسلية ، ولكنها — فى الوقت ذاته — تنطوى على دراسات نفسـية وإنسانية وقانونية .. وقد ابدع المؤلف — وهو من اشهر الكتاب الذين يدرسون القضايا ويعرضونها — فى إيراد الأحداث والدراسات

بطريقة ممتعة ، لا تذهب برواء القضـية كمجرد قصـة .. إنسانية !

— كنت أعلم ان هذا سوف يحدث .. كنت أعلم أن هذا سوف يحدث !

هكذا صرخت الخادم « جيسى كجيرولف » ، وهى تحملق فى فزع إلى جثة تاجر الأزياء الثرى « هوراس لندسى » ، وقد وقف إلى جوارها « ارنست فانتل » ، ممسكا بمسدس يتصاعد الدخان من فوهته .. وكان مندوبا متجـولا لاحـدى شركات السياحة ، فى الخامسة والاربعين من عمره ..

وطلب « فانتل » من الخادم أن تستدعى رجال الشرطه ، ثم مكث فى الغرفة حتى حضروا فالقوا القبض عليه .

تعترف لزوجها بانها تحب سواه

وفى قسم الشرطة ادلى فانتل باعتراف مفصل : « لقـد تزوجت منذ ثمانية عشر عاما ، من زميلة كانت تعمل معى فى سلاح الطيران ، واثمر زواجنا ولدا واحدا ، يبلغ الآن الرابعة عشرة من عمره .. وكنا نعيش فى سعادة وهناء حتى شـهر يوليو من العام الماضى ، حين التقت زوجتى بـ « هـوراس لندسى » ..

« لقد اعترفت لى زوجتى — منذ شهرين — بانها تخوننى مع رجل آخر ، وطلبت منى أن اوافق على الطلاق ، إذ لم يعد بوسعها ان تعاشرنى ! .. وزاد من قسوة الصدمة قولها بانها

جاهدت كثيرا فى ان تجتث افتتانها بذلك الرجل من قلبها ، غير انها فشلت !

« وصرحت لى « مس نورما ماكرى » - ابنة عم زوجتى - ان زوجتى كانت تكثر من التردد على منزل « لندسى » .. وكنت - إذ ذاك - قد عدت لتوى من جولة قمت بها فى بلدان اوربا ، بتكليف من الشركة التى اعمل بها . فلما سمعت هذا الكلام كذبت اذنى ، غير اننى لم البث ان تقصيت الأمر ، فتاكدت من ان زوجتى قد عزمت - فعلا - على الزواج من عشيقها ، فور حصولها على الطلاق . وإذ كنت أحبها حبا جنونيا ، فقد تلمكتنى رغبة عارمة فى ان اقتلها ! ..

« وفعلا ، انتهزت فرصة قيامى بجولة اخرى فى اوربا ، فابتعت مسدسا من سويسرا .. » .

الزوج يتوسل .. والعشيق يتعالى ويحتقر !

واستطرد فانتل فى اعترافه قائلا : « وما إن عدت إلى إنجلترا ، حتى اتصلت تليفونيا بعشيق زوجتى ، طالبا منه ان يحدد لى موعدا للقائه .. واعتذر - فى بادىء الامر - بأن وقته لم يكن يسمح له بذلك ، غير انه وافق اخيرا على ان اذهب لزيارته فى مسكنه ، فى العاشرة من صباح البارحة .. وفى الموعد المحدد ، خرجت قاصدا ذلك المسكن ، بعد ان عبأت خزان المسدس بالرصاص .. ووصلت إلى هناك فى الساعة العاشرة الا عشر دقائق . وإذ قادتنى الخادم إلى الداخل ، وجدت غريمى جالسا فى مقعد مريح . فما إن وقع

بصره على ، حتى سالنى فى برود عن سبب حضورى .. وقبل ان أجيب ، أردف قائلا إننى احاول عبثا ان استرد منه زوجتى .

« ورحت اتوسل إليه ان يترك زوجتى وشانها .. وفى محاولة بائسة لأن الين قلبه ، تحدثت إليه عن حياتنا الزوجية ومستقبل طفلنا . غير انه لم يعر توسلاتى اهتماما ، واجاب بأنه يتكفل بان يولى طفلى الرعاية اللازمة ! .. ثم نهض من مقعده - وهو ينظر إلى فى ازدراء مهين - معلنا انتهاء الزيارة . فلم اشعر إلا وقد سحبت المسدس من جيبى ، وصوبته نحو راسه ، ثم ضغطت الزناد .. غير أن الرصاصة طاشت ولم تصبه . فأطلقت رصاصة اخرى نحو صدره ، وإذ ذاك تعثر ، واتجه نحو الباب محاولا الفرار ، فلم البث أن اطلقت عليه رصاصة ثالثة اخترقت جمجمته ، فسقط على الأرض صريعا ! »

اعتراف الزوجة بالخيانة لا يبرر قتلها

وعرضت الجريمة امام القضاء ، فاثارت عاصفة من تعليق الصحف والراى العام على السواء .. ودار الجدل حول مدى « الاستفزاز » الذى يجب أن يتعرض له القاتل قبل إقدامه على جريمته ، فيكون شفيعا فى التخفيف من شناعتها ، ويحولها من جريمة « القتل العمد مع سبق الاصرار والترصد » ، إلى جريمة « ضرب أفضى إلى موت » !

ذلك أن القانون الإنجليزى - قبل عام ١٩٤٧ - كان يتطلب من القاتل الذى يستخدم فى جريمته سلاحا مميتا ، ان

يثبت بما لايدع مجالا للشك ،انه اقدم على فعلته عند مواجهته خطر الموت او الأذى الجسيم . كما كان ينص ايضا على ان « الاستفزاز » يجب ان يتخذ شكل الاعتداء البدنى ، فيما عدا حالة واحدة استثناها القانون ، وهى مفاجاة الزوج لزوجته متلبسة بجريمة الزنا .. أما اعتراف الزوجة لزوجها باقدامها على خيانته ، فانه – فى حد ذاته – ليس كافيا لتبرير الجريمة !

الدفاع يعرض عناصر الاستفزاز

وتالفت هيئة المحكمة من القاضى « سالمون » ، و « مستر كريسماس همفريز » ممثلا للاتهام ، و « مستر فيكتور دوراند » ممثلا للدفاع .. وقد قام الدفاع بمهمته خير قيام ، فاستعرض امام المحلفين وقائع الجريمة ، وقدم اليهم من يوميات المتهم ، والبيئة التى عاش فيها ، والظروف التى صادفته ما يثبت ان مستر « فانتل » — الذى عرفه الجميع رجلا مستقيما يتمتع باخلاق قويمة لا غبار عليها — قد تعرض لدرجة من الإثارة والاستفزاز ، يطيش لها صواب اعقل الناس واكثرهم اتزانا !

كانت يومياته تنطق بالعذاب والمهانة اللذين كان ينوء تحت وطاتهما . فهو يقول فى احداها : « لقد فترت العلاقة بيننا ، فهى لم تعد تلمسنى او تداعبنى » . وفى اخرى يقول : « مضت ساعتان منذ خرجت .. اننى لا احب ان اسبب لهما حرجا ، او ادبر لهما كمينا .. اننى ارى النهاية قادمة فى الطريق .. فهى قد رفضت حبى واذلت نفسى ! » .. كما قال فى ثالثة : « .. ان راسى يكاد ينفجر .. لقد اصبحت افتقد

الحب والحنان .. انها تنظر باحتقار إلى كل اعمالى وآرائى .. لقد تعودت ان تصدر إلى أوامرها » .

ضعف الزوج .. وجراة الزوجة !

وعرض الدفاع — من يوميات المتهم — الوانا مما كان « فانتل » يحتمله من عذاب وذلة وهوان :

٢٥ مايو : « .. انه اسود يوم فى حياتى .. سوف يتم الطلاق فى خلال اربعة او خمسة اشهر ، وقد قبلت ان ابدو بمظهر المذنب . لقد تبلبل عقلى .. انها لم تحاول ان تسال نفسها عما يحدث لو اننى رفضت الموافقة على الطلاق ، فهى تعتبر رضوخى لرغبتها امرا مفروغا منه .. » .

٢٦ مايو : « لقد تحطم بيتى ، وفقدت أسرتى ، وانا فى الخامسة والاربعين من العمر ، فكيف ابدا من جديد ؟ .. اننى لا افتا اسائل نفسى : كيف انها لم تول حياتنا الزوجية — التى دامت ثمانية عشر عاما — ادنى اهتمام ؟ .. لقد صارت ترفض النوم فى فراشى ، إذ انها تعتبرنى قد شخت! ..

« ان الطفل والزوجة يمثلان – من وجهة نظرى – وحدة لا تتجزا ، لذلك فلست اكتفى بانصاف الحلول .. إما ان أحصل على كل شىء او لا شىء .. اننى لا ازال احتفظ فى قلبى بشعور من الواجب والشرف ، فليس بوسعى ان اخذل ايا منهما .. لقد كنت دائما على استعداد لأن اضحى بكل مشاعرى وروحى وجسدى على مذبح اهواء ونزوات المخلوق

الوحيد الذى احببته .. اعنى « سيلفيا » ! .. غير اننى اثق تماما من ان كل ما اقدمت عليه « سيلفيا » كان وليد تفكير وتدبير سابقين ، لذلك لا يسعنى ان اتقبل عذر « الافتتان » الذى ابدته !

الذنب ليس ذنبها .. بل ذنب الوراثة !

« لماذا لا تصارحنى بالحقيقة ، فتقول لى : « لقد ضقت ذرعا بحياة الفاقة والعوز التى اقاسمك اياها ، تحت رحمة زوج لا تنتهى مطالبه ، فى الوقت الذى لا يكتسب فيه ما يقيم اود اسرته ؟ ! » ..

لماذا لا تواجهنى قائلة : « لقد عثرت — اخيرا — على الرجل الذى يحقق لى كل احلامى .. رجل ثرى ، فى ريعان شبابه ، لا يرجو منى ان اطهو طعامه او اكوى قمصانه ، يوما بعد آخر ؟ ! » .. بل لماذا لا يحضر عشيقها ليلاقينى ؟ .. ايجبن عن ان يقاتل فى سبيلها ؟ .. لمن ابكى وبمن استنجد ؟

« ان الزوج الانجليزى المخدوع يعمد — فى مثل هذه الظروف — إلى مقاضاة عشيق زوجته ، طالبا منه تعويضا ماديا عن الأضرار التى لحقته ، فتغدو القصة — حينئذ — مادة للصحف والمجلات الصفراء ، تتناولها بحثا وتعليقا .. و « سيلفيا » تدمن قراءة هذه القاذورات . اليست هى التى قالت له : « دعه لى ، وانا الكفيلة بان اسوى حسابى مع هذا المغفل المكتهل ؟ فلماذا انتظرت كل هذا الوقت قبل أن تصارحنى بالحقيقة ؟ .. لا ريب فى انها ارادت التاكد من

حقيقة مشاعره نحوها ، وانه على استعداد لأن يتزوجها بعد ان تحصل على حريتها ، دون أن تعنى بالتفكير فيما تؤول اليه حياتى بمفردى .. الحق انها قتلت فى نفسى شيئا لا سبيل إلى استعادته ، غير ان الذنب ليس ذنبها ، فلقد ورثت اخلاقها وطباعها عن والديها ! » .

عندما يجتمع الحقد والحب

وتطرقت « اليوميات » تدريجا إلى حديث القتل ولكن .. قتل الزوجة لا عشيقها :

« ان حبى الطاغى لها يكاد يفقدنى رشدى .. اننى افكر احيانا فى قتلها أو تشويه وجهها ، انتقاما لما قاسيته خلال ثمانية عشر عاما ، من نيران الحب .. ذلك الحب الذى لم تستجب له ، بل تجاهلته وقابلته بالصد والاحتقار ! اعتقد انه لن يمضى وقت طويل حتى افقد صوابى تماما .. إن اشد ما تعذبنى هى تلك الأسئلة التى لا تنفك تطاردنى وتطرد النوم من جفونى : اتراها تستسلم له كلما رغب فى ذلك ؟ .. وهل تهرع إليه فى كل مرة يبعث اليها بصفيره ؟ .. واين ضاجعها فى اول مرة ؟ .. اتكون هى التى تطارده ؟ .. لكم اخجل من الاعتراف بأن زوجتى تخوننى مع رجل آخر !

« لماذا تصر على جلب العار إلى عائلتى ؟ .. ان (ل) المحظوظ يبدو واثقا من نفسه ، بينما اكتوى أنا بنيران الشك .. لقد صار قلبى باردا وقاسيا ،بالرغم منى ، فقد تمزق شىء داخل صدرى ، ولم يعد يملأ روحى سوى المرارة والحقد .. غير اننى لا استطيع ان اسلو حبها ، فما زلت اعشقها بجنون !

« لماذا لم تكتف معه بمغامرة عابرة ، بدلا من ان تهجر منزلها فتذل زوجها وتيتم طفلها ؟ .. لقد كنت على استعداد لأن اغفر لها زلتها . غير انها لا تحب شخص حبيبها فقط ، **بل تحب نقوده ايضا ! .. اننى اتمنى — فى بعض الأحيان —** ان تثوب إلى رشدها، وتعود **إلى مرة اخرى، غير اننى لا البث** ان ادرك ان عقلى المريض هو الذى يصور لى هذه المعجزة . **إذ انها ما كانت لتعاشره معاشرة الأزواج لو لم تكن مغرمة به!** .. **لقد فقدت** عقلى .. إن عينى محتقنتان كأن فيهما نارا ، وعقلى يطن .. ترى هل اصبت بالحمى ؟ ! » .

.. تشهد ضد ابنة عمها !

وبعد ان انتهى مستر دوراند — ممثل الدفاع — من قراءة تلك الفقرات من يوميات المتهم امام المحلفين ، استدعى للشهادة « مس نورما ماكرى » ، ابنة عم مسز فانتل . فسردت على هيئة المحكمة ما كان يكتنف العلاقة بين الزوجين من متاعب .. **وكيف حاولت التوفيق بين الزوجين ، غير انها** سرعان ما ادركت ان العقبة الرئيسية ، التى كانت تقف دون عودة المياه إلى مجاريها بينهما ، هى علاقة الزوجة بعشيقها .

وعندئذ سالها « مستر دوراند » قائلا : « بمعنى آخر .. إن الهناء العائلى الذى كان يسود الزوجين ، قد تحطم على صخرة علاقة الزوجة بعشيقها ! » . فأجابت : « نعم » .

— وهل كان سلوك الزوج — يوم ١٩ يوليو — مغايرا لسلوكه المعتاد ؟

— نعم .. لقد كانت ابنة عمى مفتونة بلندسى .. اما فانتل فلا استطيع ان انطق فيه سوءا .. اننى لم اره يوما ثائرا او فاقد الشعور .. نعم ، لقد كان سلوكه فى ذلك اليوم يختلف عن سلوكه المعتاد !

وقال مفتش الشرطة « هنرى رولنج » فى شهادته : إن كثيرا من الخطابات وصلته من اناس كانوا على صلة بفانتل ، اشادوا فيها باخلاقه . كما شهد المفتش « رايموند دراج » بان سلوك « فانتل » بعد ارتكاب الجريمة كان مجردا من **الشماتة او اية رغبة فى الانتقام ..**

« وعندئذ ساله مستر « دوراند » قائلا : « كيف تصف خدمته فى الجيش ؟ .. هل كانت رائعة ؟ » . فكان جوابه : « نعم .. رائعة ! » .. وعاد ممثل الدفاع يساله : « وهل كانت اخلاقه ممتازة ؟ » .. ومرة اخرى ، اجاب : « نعم » .

آخر ليلة للقتيل مع عشيقته

وبعد ذلك استدعيت « دوروثى جيسى كجيرولف » التى كانت تعمل فى خدمة القتيل ، لاداء شهادتها . فقالت إن « فانتل » حضر لزيارة مخدومها ، فقادته إلى الداخل ، ثم تركتهما معا .. وبعد قليل ، وصل إلى سمعها صوت اطلاق النار . فسالها « دوراند » عما إذا كانت مسز فانتل قد اعتادت التردد على ذلك المسكن . واجابت : « نعم » .. لقد كانت تداوم على زيارة المجنى عليه .

— وهل كانت تبيت هناك احيانا ؟

— نعم .

— ومتى كانت آخر مرة قضت فيها الليلة هناك ؟

— فى الليلة السابقة للحادث !

هكذا كانت حياته تسير ..

وإذ انتهت الخادم من اداء شهادتها ، استدعى المتهم ، فروى امام هيئة المحكمة قصة حياته : فقد ولد فى (براغ) عاصمة تشيكوسلوفاكيا من ابوين ثريين . فلما انتهى من دراسته ، هاجر إلى امريكا حيث قضى بعض الوقت ، ثم عاد إلى وطنه . وهناك التحق بسلاح الطيران التشيكوسلوفاكى . ولما كان يتقن الكثير من اللغات الأجنبية ، فقد عين بالمخابرات ، غير أن الحرب ما لبثت أن نشبت ، وافنى النازيون عائلته بأجمعها .. وكانت تتكون من ثمانية وثلاثين فردا ، لم ينج منهم سواه . **فكان الوحيد الذى تمكن من الفرار فى الوقت المناسب** إلى إنجلترا . حيث عمل بسلاح الطيران البريطانى .

ولكن ما إن خمدت الحرب حتى عاد مرة اخرى إلى وطنه ، فعمل كضابط اتصال بالجيش الأمريكى . وفى عام ١٩٤٢ تزوج .. وقد حاول الشيوعيون فى عام ١٩٤٨ ان يختطفوا زوجته وابنه ، لكنه استطاع ان يفر إلى إنجلترا ، بعد ان ترك خلفه كل ثروته وممتلكاته ، فالتحق مرة اخرى بسلاح الطيران البريطانى ، واستمر يعمل به حتى عام ١٩٤٨

المسدس كان مصدرا للشعور بالقوة

واستطرد « فانتل » قائلا انه فى اليوم التاسع من شهر يوليو ، تأكد من أن حياته الزوجية قد انتهت . ثم وصف وضع ابنه بانه كان « مزعزعا » .

وعندئذ سأله مستر دوراند : « لماذا اشتريت المسدس؟ » ، فأجاب قائلا : « لقد كانت الرغبة فى قتل لندسى تتنازعنى منذ وقت طويل ، إذ كنت اشعر بضعف موقفى امام غريمى الذى كان يقبض فى يده على مصير اسرة بأكملها . غير ان الشجاعة خانتنى فنبذت فكرة القتل ، ولكن ، لما كانت زوجتى مفتونة به ، فقد كنت فى حاجة إلى ما يبث فى نفسى بعض القوة ، فاعتقدت ان مجرد حملى المسدس كفيل بأن يحقق لى ذلك ! .. » .

ولقد قضى فانتل حوالى ثلاثة ارباع الساعة ، امام مسكن القتيل ، مترددا فى الدخول ، ومحاولا ان ينقب فى ذهنه عما يتعين عليه أن يقوله لعشيق زوجته . واخيرا ادرك ان إقدامه على قتله لن يجديه شيئا ..

بين الزوج والعشيق !

ومع ذلك فقد شعر بانه لابد من ان يلقى غريمه .. واستطرد قائلا : « لم أكن — حتى تلك اللحظة — أبيت له **شرا ، بل نسيت تماما المسدس الذى كنت احمله ، بل لم** افكر اطلاقا فى اى شىء سوى موضوع الطفل .. وعندما دخلت ، وجدت لندسى جالسا فى مقعده . ولم يحاول ان ينهض عندما شاهدنى . وكان يرتدى ملابس الخروج .. واشار إلى

كى اتناول لفافة من التبغ ، غير اننى بادرت فى الحال إلى سؤاله عن مستقبل الطفل ، فأجاب قائلا : إن الطفل سينال حظا وفيرا من التعليم ، وانه يترك لى حرية رؤيته كلما رغبت فى ذلك !

« وفجاة تحول مجرى الحديث إلى موضوع زوجتى ، فسالته عما دعاه إلى انتزاعها منى ، فنظر إلى باحتقار ثم هز كتفيه فى برود ، وقال إنها هى التى تطارده . ثم اخذ يتباهى بانها قضت الليلة السابقة فى فراشه .. « وكانت تلك الليلة هى عيد زواجنا الثامن عشر ! » ..

« وما لبث لندسى ان نهض ، ونظر إلى ساعته ، وقال ان موعد الزيارة قد انتهى . ثم اشار نحو الباب .. ولا أدرى ماذا حدث بعد ذلك ، حتى سماعى صراخ الخادم ، ووصول رائحة البارود إلى خياشيمى ! » ..

لا يزال يعبد زوجته !؟

وقرر « فانتل » انه لم يستعد حواسه تماما إلا فى قسم الشرطة ، بعد مرور ساعة على ارتكاب الجريمة .. كان فى غيبوبة لا يعى شيئا ، إذ ان لندسى اهانه ومرغ كرامته فى الرغام .. فلقد عيره بمسلك زوجته ، ثم سخر منه ، واخيرا .. طرده من المنزل !

وكان فانتل يدلى باقواله والتاثر باد على محياه ، ثم قال بعد فترة صمت : « لقد كنت — وما زلت حتى الآن — اعبد زوجتى ! » .

وعندئذ ساله مستر دوراند قائلا : « ما الذى تسبب فى اصابتك — وانت فى الخامسة والأربعين — بهذه الحالة التى تصفها بـ « الغيبوبة » ، والتى افقت منها بعد قليل ؟ » .

فأجاب فانتل قائلا : « اعتقد انه مسلك لندسى نحوى .. فلقد شعرت بمذلة بالغة ، لم اصادف مثلها فى حياتى من قبل ! » .

— وماذا كنت تنتوى ان تفعل عند ذهابك إلى مسكن القتيل ؟

— كنت ارغب فى استعادة زوجتى وابنى !

وكانت مرافعة ممثل الاتهام اقصر مرافعة فى مثل هذه الجريمة ، فقد اكتفى بسرد وقائع القضية ، ولم يحاول حتى أن يفند اقوال المتهم عن « الاستفزاز » الذى تعرض له . وختم مرافعته بقوله : « لا اعتقد انه يوجد هناك ما يضاف إلى ما سبق . ولست انوى ان اخاطب المحلفين مرة اخرى ! » .

محامى المتهم يتكلم ..

وعندئذ وقف محامى المتهم واخذ يترافع قائلا : « لقد كان حب المتهم لزوجته وابنه ، هما كل ما تبقى له فى هذه الدنيا ، بعد أن تسببت الحرب فى فقده ثروته وممتلكاته ووطنه . فلا عجب — إذن — فى ان يتشبث بهما ، وأن يحاول جاهدا استعادتهما . اننا نصادف فى حياتنا كثيرا من المنغصات ، غير اننا لم نسمع اطلاقا قصة تثير اشفاقنا مثل

هذه ، ولا استفزازا مثل الذى تعرض له « فانتل » فى مسكن القتيل ، المؤثث فى بذخ واسراف ! .. » .

وتحول يهاجم لندسى قائلا : إنه من ذلك النوع من الناس الذين يقطنون مسكنا يبلغ ايجاره اربعين جنيها شهريا ، ويقتنون سيارة من طراز « بنتلى » بيضاء اللون ، ويحيون حياة السلاطين ، ولا يتورعون عن السطو على اعراض الأزواج الهانئين . فاذا ما حضر إليه احدهم متوسلا إليه ان يبتعد عن زوجته ، عامله معاملة فظة !

القاضى يشيد بتضحيات المتهم

بعد ان ختم الدفاع مرافعته ، وجه القاضى إلى المحلفين كلمة قال فيها : « لا اعتقد انه يوجد بينكم من لا يعتمل فى صدره شعور بالاحتقار نحو القتيل ، فلقد قدم الدفاع وقائع ثابتة ، وتبين كيف حاول عامدا تحطيم حياة المتهم العائلية .. ان فانتل عندما يمم شطر مسكن القتيل ، لم يكن ينتوى قتله ، فقد ادرك ان قتله لن يجديه شيئا ! .. وقد اثبتت اقواله — التى لم يتقدم شاهد واحد لتفنيدها — ان لندسى قد تصرف تصرفا بشعا ! .. كما تثبت — ايضا — ان فانتل لم يكن واعيا لما فعل ، ولم يدرك تماما حقيقة ما كان ينتويه عند ذهابه إلى مسكن القتيل . فلما دخل ، قوبل باسوا معاملة تخطر على بال إنسان ..

« ان عليكم ان تضعوا فى اعتباركم ان المتهم قاسى الكثير فى حياته ، كما قدم للعالم خدمات جليلة اثناء الحرب ، فى الوقت الذى فقد فيه كل ثروته وممتلكاته . غير انه لم يكن

يولى خسارته الفادحة اهتماما ، إذ بقى له شىء يفوق كل كنوز الدنيا قيمة ، وذلك هو حياته العائلية الهانئة بين زوجته وابنه . فلما تعرضت للتحطم سعى إلى مسكن القتيل تحدوه رغبة واحدة ، وهى انقاذ ذلك « الكنز » ! .. غير ان معاملة القتيل السيئة له ، ومباهاته بأن زوجته قضت الليلة السابقة فى فراشه — ليلة عيد زواجهما الثامن عشر — افقدته وعيه ، وجعلته يخرج المسدس من جيبه ، ويطلق عليه النار ثلاث مرات ! » .

« الاستفزاز » هو العامل الجدير بالدراسة

واستطرد القاضى سالمون يقول : « إن محاكم الطلاق تشهد الكثيرين ممن يستحقون العقاب ، ولكن .. لو ان كلا منا نصب نفسه قاضيا ، ونفذ القانون بيده ، لعمت الفوضى ولما استقام الوضع !

« .. وقد تعتقدون ان ظروف هذه القضية تختلف عن مثيلاتها ، إلا ان الموضوع الرئيسى الذى يجب ان نوليه الدراسة الوافية هو : « هل كان الاستفزاز الذى تعرض له المتهم كفيلا بأن يفقده رشده ، بغض النظر عن مدى احتقارنا للقتيل او اشفاقنا على المتهم ؟ » .. وما إن ختم القاضى كلمته ، حتى انسحب المحلفون إلى غرفة جانبية ، ليدرسوا القضية ويقرروا نوع الجريمة .

والآن .. فكر مع المحلفين !

ويحسن بالقارىء هنا ان يعيد النظر فى وقائع القضية ، وان يضع نفسه مكان المحلفين فى دراستهم للموضوع :

لم يكن هنالك شك فى ان « فانتل » أطلق النار على لندسى ، **فلقد اعترف بذلك اعترافا مفصلا ، كما انه اشترى مسدسا خصيصا لهذا الغرض** . بيد انه لم يكد يصل إلى مسكن القتيل حتى عدل عن عزمه .. وهنا عامله القتيل بفظاظة كما لو كان « قذارة » ، وهز كتفيه ثم اشار له نحو الباب !

لقد كان من حق المحلفين ان يخففوا من نوع جريمته ، فيحولوها إلى جريمة « ضرب أفضى إلى الموت » ، ولكن لم يكن بوسعهم ان يبرئوه تماما . وقد نص القانون على ان الاستفزاز يجب ان يكون قويا بدرجة تفقد المتعرض له رشده وارادته . لذلك كان على المحلفين ان يضعوا فى اعتبارهم نوع السلاح المستعمل فى الجريمة والوقت الذى انقضى بين وقوع الاستفزاز وارتكاب الجريمة . اما الدفاع فقد كان يتعين **عليه ان يثبت — بما لا يدع مجالا للشك — ان « فانتل » كان** فاقد الوعى اثناء إقدامه على القتل ، **بينما ألقى القاضى على** عاتق المحلفين تقرير ما إذا كان ذلك الاستفزاز كفيلا بأن يفقد **اى شخص عاقل ، رزين ، رشده وسيطرته على نفسه ، لو** انه كان فى مكان « فانتل » .

. . . .

. . . .

ولم يجد المحلفون صعوبة فى الوصول إلى قرار .. فلم **تمض أكثر من ثمانى دقائق حتى عادوا إلى قاعة المحكمة** . **ووقف احدهم وقرأ على الملأ قرارهم الاجماعى الذى ادان**

المتهم بارتكابه جريمة ضرب لندسى ضربا افضى إلى موته . وعندئذ اصدر القاضى حكمه الذى كان يقضى على « فانتل » بالحبس لمدة ثلاث سنوات .

وقبل ان تفض الجلسة ، توجه القاضى بحديثه إلى السجين قائلا : « لا ينكر احد انك تعرضت لاستفزاز عنيف **من القتيل ، غير ان هذا لا يبرر ان تمسك بالمسدس وتطلق** عليه النار ثلاث مرات . ولولا الظروف المخففة فى هذه القضية ، وسجلك الرائع اثناء الحرب . لشعرت أن من واجبى ان اصدر عليك حكما اشد قسوة ! » .

لوصبر القاتل .. !

غير انه ما زالت للقصة بقية : فقد مات « هوراس لندسى » بعد ان جمع ثروة تقدر بحوالى ربع مليون جنيه . غير ان تلك الثروة لم تجده شيئا ، فلم تحل دون قتله فى مسكنه . ولما مات لم يخلف شيئا لزوجته السابقة او لعشيقته « مسز فانتل » ! .. كل ما خلفه وراءه خمسمائة جنيه للفتى الذى كان يرافقه اثناء لعبة « الجولف » ، ومثلها للسفرجى !

وقد علقت زوجته السابقة على القضية بقولها : « لقد كان لندسى اجبن رجل رأيته فى حياتى ! .. لو كان « فانتل » يعلم مدى جبنه لما ارتكب جريمته ! .. لو انه هدده فقط قائلا : « دع زوجتى وشانها وإلا حطمتك ! » ، لما تردد فى اطلاق ساقيه للريح والهرب بعيدا » !!



عزيزى القارئ ..

فى الكتاب السابق رقم ٢٢ (الجزء الأول من سلسلة المحاكمات الكبرى) ، قدمت لك محاكمة فيلسوف الإغريق الأعظم (سقراط) ، فى عام ٣٩٩ قبل الميلاد ، وعدة محاكمات تاريخية هامة ، منها محاولة اغتيال فرعون مصر (رمسيس الثالث) ، ومحاكمة وإعدام ملكة إنجلترا (آن بولين) على يد زوجها الملك زير النساء (هنرى الثامن) ثم محاكمة وإعدام ملك إنجلترا (تشارلس الأول) ، ومحاكمة وإعدام ملك فرنسا (لويس السادس عشر) ، ومحاكمة دريفوس (الضابط الفرنسى المظلوم) ، ومحاكمة قاتل الراهب الأفّاق المحتال (راسبوتين) ، الذى سيطر على قيصرة روسيا أيام الحكم القيصرى .. إلخ .



وفى هذا الجزء الثانى من المحاكمات الكبرى ، أقدم لك محاكمة (مرجريت فهمى) قاتلة زوجها المليونير المصرى على فهمى كامل ، ثم محاكمة (قابيل الهندى) قاتل أخيه ، فمحاكمة المحتال الفرنسى (ستافيسكى) ، ثم جريمة حارة التونى فى القاهرة ، وجريمة درب العشاق ، ومحاكمة القاتل الذى حاز عطف الجماهير .. إلخ .. إلخ .

وفى الجزء الثالث والأخير من المحاكمات الكبرى (كتابى القادم) ، أقدم لك عددًا من المحاكمات لنساء قاتلات ، تحت عنوان (نساء ومآسٍ فى ساحة العدالة !) .

والله ولى التوفيق

حلمى مراد